

كتاب

النحو

للإمام العلامة شيخ الإسلام علم الأعلام
تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية
المتوفي سنة ٧٢٨ هجرية

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الأولى

إدارة الطباعة المنيرية

لصاحبها وشرائه من دار نشر دار الفقه

كل من بطع هذا الكتاب بطالب بأن يبرز نسخة خطية قديمة مطابقة لما طبعه
والا يكون مؤاخذاً بالحقوق المدنية ومطالباً بالتعويض

حقوق الطبع محفوظة الى

إدارة الطباعة المنيرية بمصر بشارع الكحكيين عمرة ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله

فصل

في معجزات الانبياء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين

وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها أما الاول فان منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الامر المعتاد فانه معجزة وهو الخارق للعادة اذا اقترن بدعوى النبوة . وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول ، فيلزم أن يكون كل من خرق له العادة نبياً

فقلت طائفة لا تحرق العادة الا لنبى ، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان ، وبكرامات الصالحين . وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن حزم وغيره . بل يحكى هذا القول عن أبي اسحق الاسفرايينى وأبي محمد بن أبى زيد . ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً وانما أرادوا الفرق بين الجنسين . وهؤلاء يقولون ان ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو ارهاص أى توطئة واعلام بمجيء الرسول . فما خرق في الحقيقة الا لنبى ، فيقال لهم وهكذا الاولياء انما خرق لهم لتابعهم الرسول ، فكأن ما تقدمه فهو من معجزاته ؛ فكذلك ما تأخر عنه ، وهؤلاء يستنون ما يكون أمام الساعة . لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الانبياء والمنازع لهم يقول هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الانبياء وقد شهدوا خلق كثير لم يشهدوا معجزات الانبياء ، فكيف يكذبون بما شهدوه ، ويصدقون بما غاب عنهم ، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره ؟

وقالت طائفة بل كل هذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً ، وكل ما خرق لني من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين ؛ بل ومن السحرة والكهان ، لكن الفرق أن هذه تقترب بها دعوى النبوة وهو التحدى . وقد يقولون انه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك ، وهذا قول من اتبع جهماً على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد واحتاجوا مع ذلك الى الفرق بين النبي وغيره ، فلم يأتوا بفرق معقول ، بل قالوا هذا يقترب به التحدى ، فن ادعى النبوة وهو كاذب لم يحز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له ولا يكون دليلاً على صدقه لما يقترب بها مما يناقض ذلك فان هذين قولان لهم ❦

فقل لهم لم أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره وأنتم لا توجبون على الله شيئاً ؟ فقالوا لان المعجزة علم الصدق فيمتنع أن يكون لغير صادق : فالجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة ، أو هذان مع السلامة عن المعارض ❦ فقل لهم ولم قلتم انه علم الصدق على قولكم ؟ فقالوا اما لانه يفضى منع ذلك الى عجزه ؛ واما لانه علم دلالة على الصدق بالضرورة ❦ فقل لهم انما يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكناً ؛ وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم لكنه يناقض أصولكم ويوجب أن يكون أحد الشئيين معلوماً بالضرورة دون نظيره وهذا ممتنع فانكم تقولون يجوز أن يخلق على يد مدعى النبوة والساحر والصالح ، لكن ان ادعى النبوة دلت على صدقه وان لم يدع النبوة لم يدل على شئ مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعى النبوة وغير مدعى النبوة بل كلاهما جائز فيه . فاذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر ؟ ولم اقترب العلم بأحد المتماثلين دون الآخر ؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة الا على يد صادق وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور وخلقها على يد الكذاب مقدور ؟ ❦

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الانبياء فرقا بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لني يجوز أن يخرق للاولياء حتى معراج محمد . وفرق البحر لموسى . وناقاة صالح وغير ذلك ولم يذكروا بين المعجزة والسحر

فرقا معقولا بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك لكن بينهما فرق دعوى نبوة وبين الصالح والساحر البر والفجور وحقاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل ابن سينا وهو أفضل طائفتهم ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب . فانهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس لكن الفرق أن النبي والصالح نفسه طاهرة يقصد الخير ؛ والساحر نفسه خيثة . وأما الفرق بين النبي والصالح فتعذر على قول هؤلاء .

ومن الناس من فرق بين معجزات الانبياء ، وكرامات الاولياء بفروق ضعيفة ، مثل قولهم الكرامة يخفيها صاحبها ؛ أو الكرامة لا يتحدى بها ، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء ، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر ، وإظهار أبي مسلم لما ألقى في النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً : وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً وإطفاء النار مقدور للإنس والجن : ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الاسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم ؛ وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله ، ومثل هذا كثير .

فيقال المراتب ثلاثة : آيات الانبياء ؛ ثم كرامات الصالحين ؛ ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين . أما الصالحون الذين يدعون الى طريق الانبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الانبياء فانهم يقولون نحن انما حصل لنا هذا باتباع الانبياء ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا فهؤلاء اذا قدر انه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للانبياء كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم ؛ كما صارت على ابراهيم . وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي أو احياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما احياء للانبياء . فهذه الامور هي مؤكدة لآيات الانبياء وهي ايضا من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الارهاص ؛ ومع هذا فالاولياء دون الانبياء والمرسلين فلا تبلغ كرامات أحد قط الى مثل معجزات المرسلين كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب الى درجاتهم ، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد

يشاركونهم في بعض أعمالهم . وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله ﷺ

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم ، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحى هذه الامة فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الانبياء فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون وهذا غلط فان النبي واجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة ؛ ودلت المعجزة على صدقه ، والنبي معصوم وهنا المعجزة مادلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي ، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً ، ولكن الذي يحتاج الى الفرقان الفرق بين الانبياء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدعى النبوة وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه ، فان الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول والا فاذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل . فأيات الانبياء وبراهينهم لا توجد الا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ؛ ومدعى النبوة اما صادق واما كاذب ، والكاذب يناقض النبوة ، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها وليس هنا شيء مخالف لها ولا يناقض فان الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة ﷻ

والناس رجلان : رجل موافق لهم ورجل مخالف لهم . فالمخالف يناقض واذا كان كذلك فيقال جنس آيات الانبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور جنس الحيوان . وأما خوارق مخالفهم كالسحرة والكهان فانها من جنس أفعال الحيوان من الانس وغيره من الحيوان والجن مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر ؛ وكذلك ركوب المكنسة أو الحاية أو غير ذلك حتى تعطيه به وطيوانه في اهواء من بلد الى بلد هذا فعل مقدور للحيوان فان العليق تفعل ذلك والجن تفعل ذلك وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) وهذا تصرف في اعراض الحي فان الموت والمرض والحركة اعراض والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الاعراض ليس في هذا قاب جنس الى

جنس ولا في هذا ما يختص الرب بالقدره عليه ولا ما يختص به الملائكة . وكذلك احضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب وهذا اما هو نقل مال من مكان الى مكان وهذا تفعله الانس والجن لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الاصابع من غير زيادة يراها فهذا لا يقدر عليه أنسى ولا حتى . وكذلك الاخبار ببعض الامور الغائبة مع الكذب في بعض الاخبار فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور بخلاف اخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين . وبنو اسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله . وأيضاً غفر المسيح وغيره من الانبياء ليس فيه كذب قط والكهان لا بد لهم من الكذب والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الامور الغائبة لكن ذكر الفرق فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثهم كاذبون) وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته وخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتاج بالنسبة الى نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة والا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن) . قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به وهذا كما قال في الآية (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاع البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) فهذا غيب الرب الذي اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الامور الكبار على وجه الصدق فان هذا لا يقدر عليه الا الله . والجن غايتها أن تخبر ببعض الامور المستقبلية كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب فلا بد لهم من الكذب والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات

وغير المتألمات فهو من جنس المعتاد للناس . وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل أخباره « أنكم تقاتلون الترك صغار العين ذلف الأنف (١) يتنعلون الشعر كأن وجوههم المحان المطرقة » . وقوله « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيئ لها أعناق الابل بصرى » ونحو ذلك . فهذا لا يقدر عليه جنى ولا أنسى والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والانس فهو من جنس المقدور لهم وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء فهو من غيب الله الذى قال فيه (فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول) (٢)

﴿ والآيات الحارقة جنسان ﴾ : جنس في نوع العلم ؛ و جنس في نوع القدرة فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الانس والجن وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الانس والجن ، وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الانس لان الجن هم من جملة من دعاه الانبياء الى الايمان وأرسلت الرسل اليهم قال تعالى (يامعشر الجن والانس أليكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ومعلوم أن النبي اذا دعا الجن الى الايمان به فلا بد أن يأتى بآية خارجة عن مقدور الجن فلا بد أن تكون آيات الانبياء خارجة عن مقدور الانس والجن . وما يأتى به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجنى لما استرق السمع مثل الذى يستمع الى حديث قوم وهم له كارهون ؛ وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الانس والجن كتسخير الرياح والطير . واما الملائكة فالانبياء لا تدعوا الملائكة الى الايمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحى على الانبياء وتعينهم وتؤيدهم ، (فالخوارق التى تكون بأفعال الملائكة تختص بالانبياء واتباعهم ، لا تكون للكفار والسحرة والكهان . ولهذا أخبر الله تعالى أن الذى جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بظنين وما هو بقول شيطان رجيم) وقال (نزل به الروح الامين على

«١» قال فى النهاية الذلف بالتحريك قصر الانف وانبطاحه : وقيل ارتفاع طرفه مع صغر رنبتة . والذلف بسكون اللام جمع اذلف كاحمر وحرر والانف جمع قلة للانف وضع موضع جمع الكثرة اه . والله اعلم

قلبك لتكون من المنذرين) وقال (قل نزل به روح القدس من ربك بالحق) وقال (من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك بأذن الله) وقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أئيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فينبغي أن يتدبر هذا الموضع وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الانبياء وبين ما يشتبه بها كما يعرف الفرق بين النبي : وبين المتنبي : وبين ما ينجي به النبي : وما ينجي به المتنبي فالفرق حاصل في نفس صفات هذا ، وصفات هذا ، وأفعال هذا ، وأفعال هذا وأمر هذا ، وأمر هذا ، وخبر هذا ، وخبر هذا ، وآيات هذا ، وآيات هذا . إذ الناس يحتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره ، والله تعالى بينه وبينهم . ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات اليينات وكيف يشبه خير الناس بشر الناس ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقد تنازع الناس في الحوارق هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله .

والتحقيق ان من كان مؤمناً بالانبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الحوارق التي قد تكون للكفار والفساق وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله كقوله (ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقد علق السعادة بالايان والتقوى في عدة مواضع كقوله لما ذكر السحرة (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) وقوله عن يوسف (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولا أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) وقوله في قصة صالح (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهذه طريقة الصحابة والسلف .

وأما دلالتها على ولاية المعين فائس متنازعون هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث اذا كان مؤمناً تقياً وقد علم انه يموت كافراً يكون في تلك الحال عدواً لله أو ينتقل من ايمان وولاية الى كفر وعداوة وهما قولان معروفان : فمن قال بالاول قالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال والحوارق لاتدل على ذلك : ولهذا قال هؤلاء كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرها انها لاتدل : وأما من قال الولاية

تتبدل فالولاية هنا كالإيمان وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره فهذا لا يتمتع لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة وفيها ثلاثة أقوال : قيل لا يشهد بذلك لغير النبي وهو قول أبي حنيفة والاوزاعي وعلى بن المديني وغيرهم : وقيل يشهد به لمن جاء به نص ان كان خيراً صحيحاً كمن شهد له النبي بالجنة فقط وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم : وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة انه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرها وكان ابو ثور يشهد لاحمد ابن حنبل بالجنة وقد جاء في الحديث الذي في المسند « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قالوا بماذا يا رسول الله قال بالثناء الحسن والثناء السيئ » وفي الصحيحين « أن النبي ﷺ عليه بجنائز فأتوا عليها خيراً فقال وجبت وجبت ومرت عليه بجنائز فأتوا عليها شراً فقال وجبت وجبت فقلل يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنائز أئنتم عليها الخير فقلت وجبت لها الجنة، وهذه الجنائز أئنتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض » وفي حديث آخر « اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت واذا سمعهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » « وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال « تلك عاجل بشرى المؤمن » »

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم : ولهذا لما قالت أم العلاء الانصارية « لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الانصار على سكنهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى فرض فرضناه ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ وما يدريك ان الله قد أكرمه قالت لا والله لا أدري فقال النبي ﷺ اما هو فقد أئام اليقين من ربه وانى لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بى ولا بكم قالت فوالله لا ازكى بعده أحداً أبداً قالت ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عينا تجرى فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال ذاك عمله »

وأما من لم يكن مقراً بالانبياء فهذا لا يعرف الولي من غيره اذ الولي لا يكون ولياً الا اذا آمن بالرسول لكن قد تدل الحوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من اتباع الانبياء كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين فيؤيد الله المؤمنين بخوارق

(م ٢ - النبوات)

تدل على صحة دينهم : كما صارت النار على ابي مسلم برداً وسلاماً : وكما شرب خالد السم وأمثال ذلك فهذه الخوارق هي من جنس آيات الانبياء وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين ولكن جنهم وشياطينهم أقرب الى الاسلام فيترجعون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات كما يجري لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم مع عباد المشركين البخشية قدام (١) التار كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب الى الاسلام. وعند من هو أحق بالاسلام منهم لا تظهر خوارقهم بل تظهر خوارق من هو أتم ايماناً منهم وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة فاتهم وان ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار لكن من أراد أن يسلك الى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء ومن كان جائراً نفعه هؤلاء بل كلام ابي حامد ينفع المتفلسف ويصير أحسن فان المتفلسف يسلم به اسلام الفلاسفة والمؤمن يصير به ايمانه مثل ايمان الفلاسفة وهذا أردأ من هذا بخلاف ذلك

والخوارق ثلاثة أنواع : اما أن تعين صاحبها على البر والتقوى فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين والثاني ان تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجهم المباحة فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تحفضه وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان : والا ول مثل ارسال نبينا الى الجن يدعوهم الى الايمان فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الامور المباحة كاستخدام سليمان لهم في محارب وتمثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات : قال تعالى (يعملون له ما يشاء من محارب وتمثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) وقال تعالى (ومن يرغ منهم عن أمرنا ندقه من عذاب السعير) ونبينا أرسل اليهم يدعوهم الى الايمان بالله وعبادته كما أرسل الى الانس فاذا اتبعوه صاروا سعداء فهذا أكمل له ولهم من ذلك كما ان العبد الرسول أكمل من النبي الملك ويوسف وداود وسليمان أنبياء ملوك وأما محمد فهو عبد رسول كبراهيم وموسى والمسيح وهذا الصنف أفضل وأتباعهم أفضل منه والثالث أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك

والقول الباطل فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم فانهم يستعينون بها على الشرك وقتل النفوس بغير حق والفواحش وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً فان أخبارهم بالمغيبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم (١) وهم من جنس المجانين وقد قال شيخهم ان أصحاب الاحوال منهم يموتون على غير الاسلام واما سماعهم ووجدتهم فهو شعر الشعراء ولهذا شبههم من رأيهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الانداد

فصل

وحقيقة الامر ان ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها فلا بد أن يكون مختصاً بها لا يكون مشتركاً بين الانبياء وغيرهم فان الدليل هو مستلزم لدلوله لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه بل اما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص أو يكون أخص منه وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الانبياء لكن اذا كانت معتادة لكل نبي أو لكثير من الانبياء لم يقدح هذا فيها فلا يضرها أن تكون معتادة للانبياء وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث ولا السلف وقد بينا في غير هذا الموضع ان هذا وصف لا ينضبط وهو عديم التأثير فان نفس النبوة معتادة للانبياء خارقة للعادة بالنسبة الى غيرهم ان كون الشخص يخبره الله بالغيب خبراً معصوماً هذا مختص بهم وليس هو موجوداً لغيرهم فضلاً عن كونه معتاداً

فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة بمعنى انها ليست معتادة للآدميين وذلك

«١» ومعنى الكلام ان الذين يؤلهون الجن والشياطين احوالهم وخوارقهم اشد من غيرهم ويقوى حال الواحد منهم كلما اشتد تأليهه لهم وهم من جنس المجانين لان لهم اخذات ونوبات وتشجات وورطانات وهذبات فلهذه الاعراض نوع من الجنون اذ هو كما قيل فنون ويمكن صوغ العبارة باوضح منها هكذا (واقوى خوارق هؤلاء انما تظهر فيمن يؤلهون الجن والشياطين وهم من جنس المجانين) الخ

لأنها حينئذ لاتكون مختصة بالنبى بل مشتركة . وبهذا احتجوا على أنه لابد أن تكون خارقة للعادة لكن ليس في هذا ما يدل على ان كل خارق آية فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان وهو خارق بالنسبة الى غيرهم، كما ان ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم وهو خارق بالنسبة الى غيرهم ❦

ولهذا اذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس اذ كانوا لا يعرفون طريقه فليس في هذا ما يختص بالنبى وكذلك قراءة القرآن بعد ان بعث محمد ﷺ صارت مشتركة بين النبى وغيره : وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبى وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الانبياء لما صار مشتركاً بين النبى وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به فالكهانة مثلاً وهو الاخبار ببعض الغائبات عن الجن أم معروف عند الناس وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان وأما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة فهم كثيرون في أرض عباد الاصنام ويوجدون كثيراً عند النصارى ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والايمان بما جاء به الرسول لأن هؤلاء أعداء الانبياء والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الانبياء فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفكأ أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فهؤلاء لابد أن يكون في أحدهم كذب وفجور وذلك يناقض النبوة فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهان وهم اذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم بوجود هذا الجنس لغير الانبياء كالذين صدقوا مسيعة الكذاب والأسود العنسى والحارث الدمشقى وبابا الرومى وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين وكان هؤلاء يأتون بأمور عجبية خارقة لعادة أولئك القوم لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبى فمن صدقهم ظن ان هذا مختص بالانبياء وكان من جهله بوجود هذا لغير الانبياء كما انهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة ❦

ولهذا يجب في آيات الانبياء أن لا يعارضها من ليس بنبى فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الانبياء فليس من آياتهم. ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى انه ساحر فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى فلا تبقى حجته

مختصة بالنبوة وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم فلما أتت وابتلعها العصا التي صارت حية علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فأمنوا إيماناً جازماً . ولما قال لهم فرعون (لاصلبنكم في جذوع النخل وتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقي قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لامثالهم وأن هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هذا فدل على صدق دعواه وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) فإذا قيل لهم المعجزة هي الفعل الخارق للعادة أو قيل هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي أو قيل مع ذلك الخارق للعادة السليم عن المعارضة فكونه خارقاً للعادة ليس أمراً مضبوطاً فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل فإن آيات الانبياء بعضها نظير بعض بل النوع الواحد منه كاحياء الموتى هو آية لغير واحد من الانبياء وإن قيل أن بعض الانبياء كانت آيته لانه لا نظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات ثم هب انه لا نظير لها في نوعها لكن وجد حوارق العادات للانبياء غير هذا فنفس حوارق العادات معتاد جميعه للانبياء بل هو من لوازم نبوتهم مع كون الانبياء كثيرين وقد روى أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي وما يأتي به كل واحد من هؤلاء لا يكون معدوم النظير في العالم بل ربما كثر نظيره وإن عني بكون المعجزة هي الخارق للعادة انها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك فهذا ليس بحجة فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء كما كان اتباع مسيحة والعنسى وامثالها لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء والمبرز في فن من الفنون يقدر على ما لا يقدر عليه أحد في زمنه وليس هذا دليلاً على النبوة فكتاب سيويه مثلاً مما لا يقدر على مثله عامة الخلق وليس بمعجز إذ كان ليس مختصاً بالانبياء بل هو موجود لغيرهم وكذلك طب أبقراط بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس وليس هو دليلاً على نبوته وأيضاً فكون الشيء معتاداً هو مأخوذ من العود وهذا يختلف بحسب الامور فالخائض المعتادة من الفقهاء من يقول تثبت عادتها بمرة ، ومنهم من يقول بمرتين، ومنهم من يقول لا تثبت الا بثلاث ، وأهل كل

بلد لهم عادات في طعامهم ولباسهم وأبنيتهم لم يعتدها غيرهم فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم فإيذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الانبياء بمجرد كونها خارقة للعادة ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل فإن هذا لا ضابط له وهو مشترك بين الانبياء وغيرهم ولكن اذا قيل من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد، ويعرفون أن الأمر المعتاد مثل الأكل والشرب والركوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها وتزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها؛ ليس دليلاً؛ ولا يدعى أحد أن مثل هذا دليل له؛ فإن فساد هذا ظاهر لكل أحد؛ ولكن ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين: أحدهما أن كون الشيء معتاداً وغير معتاد أمر نسبي إضافي ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء مثل كونه مألوفاً ومجرباً ومعروفاً ونحو ذلك من الصفات الإضافية. الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الانبياء وغيرهم وإذا خص ذلك بعدم المعارضة فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر وقد يأتي بما لا يمكن معارضته وليس بآية لشيء لكونه لم يختص بالانبياء وقد يقال في طب أبقراط ونحو سيبويه أنه لا نظير له بل لا بد أن يقال أنه مختص بالانبياء والطب والنحو والفقه وأن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره فليس مختصاً بالانبياء بل معروف أن هذا تعلم بعضه من غيره واستخرج سائرہ بنظره وإذا خص الله طبيياً أو نحوياً أو فقيهاً بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته وإن كان خارقاً للعادة؛ فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس، وهي طرق معروفة لغير الانبياء. والنبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله. فإن قيل فينبغي أن يعرف أن الآية مختصة بالنبي حتى تعرف النبوة قبل أما بعد وجود الانبياء في العالم فهكذا هو ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من قبله وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالاً من أهل القرى ليعلم أن هذا معتاد معروف ليس هو أمراً لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) كما ذكره في سورة النحل والانبياء وقال في يوسف (وما أرسلنا من قبلك

الرجال نوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) فان الكفار كانوا يقولون
انما يرسل الله ملكا أو يرسل مع البشر ملكا كما قال فرعون (أم أنا خير من هذا
الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلو لا القوى عليه أساور (١) من ذهب أو جاء معه الملائكة
مقترنين) وقال قوم نوح (ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله
لا نزل ملائكة ماسمعا بهذا في آباءنا الاولين) وقال مشركو العرب لمحمد (ما لهذا
الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لو لا انزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى
اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) وقال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم
الهدى الا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يشوف
مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وقال تعالى (وقالوا لو لا أنزل عليه ملك
ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه
ما يلبسون) بين انهم لا يطيقون الاخذ عن الملائكة ان لم يأتوا في صورة انبشروا ولو
جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس وقال تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل
منهم أن أنذر الناس) وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن اسماعيل فقال الله لهم
(فاسألوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب (ان كنتم لاتعلمون) هل أرسل اليهم رجالا
أو ملائكة ولهذا قال له (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال (وما محمد الا رسول قد
خلت من قبله الرسل) بين ان هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال
وهو سبحانه أمر ان يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور
الانبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب
التواتر جنس ما جاءت به الانبياء وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبي بل هو أحق
بالنبوة من غيره والثاني أن يسألوه عن خصوص محمد وذكره عندهم وهذا يعرفه
الخاصة منهم ليس هو معروفاً كالاول يعرفه كل كتابي قال تعالى (قل أرأيتم ان كان من
عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله) وقوله (شهد شاهد) ليس
المقصود شاهداً واحداً معيناً بل ولا يحتمل كونه واحداً وقول من قال انه عبد الله بن
سلام ليس بشيء فان هذه زلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام ولكن المقصود جنس.

الشاهد كما تقول قام الدليل وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قديقترن
 بخبره ما يدل على صدقه أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول فان خبرك بهذا صادق
 وقوله (على مثله) فان الشاهد من بنى اسرائيل على مثل القرآن وهو ان الله بعث بشراً
 وانزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له ونهى فيه عن عبادة ما سواه
 وأخبر فيه انه خلق هذا العالم وحده وامثال ذلك وقد ذكر في أول هذه السورة
 التوحيد وبين ان المشركين ليس معهم على الشرك لادليل عقلي ولا سمعي فقال
 تعالى (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا
 عما اندروا معرضون قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض
 أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو ائارة من علم ان كنتم صادقين
 ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم
 غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين واذا تلى عليهم آياتنا
 بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراء قل ان افتريته
 فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو
 الغفور الرحيم قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا
 ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد
 من بنى اسرائيل على مثله) الى آخره

ومثل ذلك قوله تعالى (ويقول الذين كفروا الست مرسلات قل كفى بالله شهيداً بينى
 وبينكم ومن عنده علم الكتاب فن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الاول وهو
 يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل ويشهد أيضاً بالعين وكل من الشهادتين كافية فتى
 ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فأسأل
 الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا
 تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) وهذا سواء كان خطاباً للرسول
 والمراد به غيره أو خطاباً له وهو لغيره بطريق الأولى والمقدر قد يكون معدوماً أو ممتنعاً
 وهو مجرف ان كقوله (قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) و (ان كنت قلته فقد
 علمته) والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير ان كنت قلته فانت عالم به وبما في نفسى وان

كان له ولد فانا عابده وان كنت شاكفا سأل ان قدر امكان ذلك فسؤال الذين يقرأون الكتاب قبله اذا أخبروا فاعندهم شاهد له ودليل وحجة، ولهذا نهى بعد ذلك عن الامتراء والتكذيب . وأما تقدير الممتع بحرف ان فكثير . ومن ذلك قوله (فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض أو سائما في السماء فتأنيهم بآية فان كان لكم كيد فكيدون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين فأتوا بسورة مثلها وادعوا من استطعت من دون الله ان كنتم صادقين) وقد قال تعالى (أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل) وقال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا تتلى عليهم يخرعون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذ تتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وهذا كله في السور المكية، والمقصود الجنس فاذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد فان هذا متعذر . ومن أنكر أو قال لا أعلم لم يضر إنكاره . وان قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم اقتراؤه في الجنس وعلم في الشخص اذ كان لم يحط علما بجميع نسخ الكتب المتقدمة وما في النبوات كلها فلا سبيل لاحد من أهل الكتاب ان يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة نسخة بكل كتاب من كتب الانبياء اذ العلم بذلك متعذر ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع . وما ينبغي ان يعلم ان أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي نبعثه هو دعوى الشريك لله والولد والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه فهذا في سورة الاخلاص وفي سورة الانعام في مثل قوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) وفي سورة سبحان (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) وفي سورة الكهف في أولها (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) وفي آخرها (أحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دون أولياء ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر وعن الشريك في مثل قصة ابراهيم وفي تنزيل وغير

ذلك وفي الانبياء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنين (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) وأول الفرقان (الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى. فالمقصود الاعظم بقصة موسى اثبات الصانع ورسالته اذ كان فرعون منكراً. ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فان فيها الرد على المشركين المقربين بالصانع ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب. ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الايجاب الذاتي فانه أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الابدان وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله (ويقول الانسان اذا مامت لسوف أخرج حياً أولاً يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) الى قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب لان الفلاسفة داخلون فيهم فان اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يقول الله تعالى « شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فاما شتمه اياي فقلوله اني اتخذت ولداً وانا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه اياي فقلوله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته » رواه البخاري عن ابن عباس

ولما كان الشرك كشر في بني آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه أكثر وكلاهما يقتضي اثبات مثل وند من بعض الوجوه فان الولد من جنس الوالد ونظيره له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه فالذى جعل شريكاً لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع وان كان غير مكافئ فهو مقهور. والولد يتخذ المتخذ لحاجته الى معاونته له كما يتخذ المال، فان الولد اذا اشتد أعان والده. قال تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الارض) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً ادأ) الى قوله (ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبداً) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والارض كل له قانتون) فان كون المخلوق مملوكاً لحالقه وهو مفتقر اليه من كل وجه والحالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد لانه اما يكون حاجته اليه في حياته أو ليخلفه بعد موته والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير اليه وهو الحي الذي لا يموت والوالد في نفسه مفتقر الى ولد مخلوق لا حيلة له فيه بخلاف من

يشترى المملوك فانه باختياره ملكه ويمكنه ازالة ملكه فتعلقه به من جنس تعلقه بالاجانب والولادة بغير اختيار الوالد . والرب يمتنع ان يحدث شئ بغير اختياره . واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة . ولهذا من قال : بالايحاب الذاتى بغير مشيئته وقدرته ، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الاختيار . بل قوهم شر من قول النصارى ومشركى العرب من بعض الوجوه كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير (قل هو الله أحد) وغيره ❖

والمقصود أن الله قال لمحمد (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال فهو معتاد في الآدميين وان كان قليلا فيهم . وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم نوح فهذا بمنزلة ما يتديه الله من الأمور وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون ان الله صدقه في ارساله فهذا يدل على النوع والشخص ، وان كانت آيات غيره تدل على الشخص اذا النوع قد عرف قبل هذا . فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصا بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع ولا يجوز أن يوجد لغير النوع ❖

وقد قلنا ان ما يأتي به أتباع الانبياء من ذلك هو مختص بالنوع ؛ فانا نقول هذا لا يكون الا لمن اتبع الانبياء فصار مختصاً بهم . وأما ما يوجد لغير الانبياء وأتباعهم فهذا هو الذى لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان ❖

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق . ولهذا كانوا اذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى (ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون) وقال للسحرة لما آمنوا (انه لكبيركم الذى علمكم السحر وان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون (يا أيها الساحر ادع لنا ربك) وكذلك المسيح قال تعالى (واذا قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا ساحر مبين) وقال تعالى عن كفار العرب (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وان نسبوه الى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح (مجنون وازدجر) وقالوا عن موسى (ان رسولكم الذى أرسل اليكم المجنون) وقال عن مشركى العرب (وان يكاد

الذين كفروا ليرلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون (وقد قال تعالى (ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا له ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) فالسحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة معتادة فيهم ، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم . فاذا قالوا عن الشخص انه مجنون فانه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله ، وكذلك يعرف هل هو من جنس الانبياء أو من جنس السحرة . وكذلك لما قالوا عن محمد انه شاعر فان الشعراء جنس معروفون في الناس . وقالوا انه كاهن ؛ وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون ؛ وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الامور الغائبة . فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) ثم قال (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً) (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) وقال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزل من رب العالمين) ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس هو شاعر ومجنون وساحر وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة ، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الاجناس .

فالمقصود ان هذه الاجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة ، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له وتلك الخواص آيات له مستلزمة له فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها تعرف بها وتلك الخواص خارقة لعادة غير الانبياء وان كانت معتادة للانبياء فهي لا توجد لغيرهم فهذا هذا والله أعلم .

فاذا أتى مدعى النبوة بالامر الحارق للعادة الذي لا يكون الا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرها كان دليلا على نبوته . وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين . فان الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين . قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر) والساحر لا يتجاوز سحره الامور المقدورة

للشياطين كما تقدم بيانه والساحر كما قال تعالى (ولا يفلاح الساحر حيث أتى) وقال تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب الى الله وان من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق فان مبناه على الشرك والكذب والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش ، وهذا مما يعلم بصريح العقل انه من السيئات . فالنبي لا يأمر به ولا يعمل به يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الانبياء أنهم حرّموا الشرك فمتى كان الرجل يأمر بالشرك وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا والكذب والفواحش والظلم علم قطعاً انه من جنس السحرة لا من جنس الانبياء. وخوارق هذا يمكن معارضتها وابطالها من بنى جنسه وغير بنى جنسه. وخوارق الانبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحداً ابطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم. فان الانبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وان أتى بنظيرها فهو يصدقه. ومعجزة كل منها آية له وللآخر أيضاً ، كما ان معجزات اتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة فانها انما تدل على ان صاحبها ساحر يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم ، ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم ، ويستعين على ذلك بالشياطين. فمقصوده الظلم والفساد. والنبي مقصوده العدل والصلاح. وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة. وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له، وهذا انما يستعين بالشرك وعبادة غير الله. وهذا يعظم ابليس وجنوده؛ وهذا يذم ابليس وجنوده. والاقرار بالملائكة والجن عام في بنى آدم لم ينكر ذلك الا شواذ من بعض الامم. ولهذا قالت الامم المكذبة (لو شاء الله لأتزل ملائكة) حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون. قال قوم نوح (ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأتزل ملائكة) وقال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأتزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون) وفرعون وان كان مظهر الجحد الصانع فانه ما قال (لولا القى عليه أساور من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) الا وقد سمع بذكر الملائكة اما معترفاً بهم واما منكراً لهم فذكر الملائكة والجن عام في الامم ^١ وليس في الامم ^٢ تنكر ذلك انكاراً عاماً، وانما يوجد انكار

ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم فلا بد في آيات الانبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الانبياء بحيث لا يقدر عليه الا الله الذي أرسل الانبياء ليس مما يقدر عليه غير الانبياء لاجيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك. ومن خصائص معجزات الانبياء انه لا يمكن معارضتها فاذا عجز النوع البشري غير الانبياء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالانبياء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها. فهذا لا يكون آية البتة فاصل هذا أن يعرف وجود الانبياء في العالم وخصائصهم كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفاً بالانبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يعرف كما لم يعرف لارسطو وأتباعه فيهم كلام يعرف بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة ولما أراد طائفة كابي حامد وغيره أن يقرروا امكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الانبياء لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك. وهذا انما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم وهذا لا ينكره عاقل. وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة انها من قوى النفس وقوى النفوس متفاوتة وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والاطباء بل هذا المثال أقرب فان بعد النبوة عن غير الانبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ورأوا ذكر الانبياء قدشاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الانبياء.

(فان قيل) موسى وغيره كانوا موجودين قبل ارسطو فان ارسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة. وأيضاً فقد قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال (انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة الا خلا فيها نذير) فهذا يبين ان كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟ قلت عن هذا جوابان: أحدهما ان كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال (ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم . الثاني : أنه قال تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم) فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها وأرسلوا لم يأت إلى أرض الشام . ويقال إن الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبياء لكن المعرفة الجملة لا تنفع كمعرفة قريش كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعا من غير معرفة بأحوالهم وأيضا فهم وأمثالهم المشاؤون أدركوا الاسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل أما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرفوه أو حملوه على أصولهم . وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الاسلام فما الظن بمن كان يبلد لا تعرف فيها شريعة نبي ؟

بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقرأ أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء . ولهذا انما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وإن قوما صدقوهم وقوما كذبوهم . ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الأرض فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الأرض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة . يقول الله تعالى (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدائن وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكاين من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فأنها لا تسمع الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد انذار قومه (يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظالما للعباد) ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى . وقال النجاشي إن هذا والنبي

جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكان عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به ولولا ذلك لم يعلموا هذا وكذلك الجن لما سمعت القرآن ولوا الى قومهم منسدرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ﴿١﴾ ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد قال (انا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وسيلاً) وقال تعالى (وما قدره الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القري ومن حولها) فهو سبحانه يثبت وجود جنس الانبياء ابتداء كما في السور المسكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة لان الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الانبياء فمن أقر بجنس الانبياء كان اقراره بنبوة محمد في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء فاذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الاربعة ونحوهم كان اقراره بذلك من أبين الامور. ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم. والعرب عرفوا ما جاء به محمد فلما أقروا بجنس الانبياء لم يبق عندهم في محمد شك. وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الانبياء يدل على نبوة محمد بطريق الاولى اذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل فينبغي معرفة هذا فانه أصل عظيم. ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به فلم يحتج أحد منهم ان تؤخذ منه جزية فانهم لما عرفوا نبوته وانه لا بد من متابعتة أو متابعة اليهود والنصارى عرفوا ان متابعتة أولى. ومن كان من أهل الكتاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعناداً. وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرئوا أخبار محمد وما جاء به خالين من الهوى بخلاف من لم يكن له كتاب فانه نظر في الامر من نظر خال من الهوى فعرف فضل ما جاء به محمد على ما جاء به غيره. ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها يمرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى الا رجحت دين المسلمين كما يجري لانواع الامم التي لا كتاب.

لها فأهل الكتاب مقرون بالجنس منازعون في العين. والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس وإن أقروا ببعض صفات الانبياء فإنما أقروا منها بما لا يختص بالانبياء بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم فلم يؤمن هؤلاء بالانبياء البتة هذا هو الذى يجب القطع به ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم فيقال قانت الانبياء والفلاسفة واتفقت الانبياء والفلاسفة كما يقال المسلمون واليهود والنصارى وقال أيضاً رضى الله عنه رحمه

فصل

ومن آياته نصر الرسل على قومهم وهذا على وجهين تارة يكون باهلاك الامم وانجاء الرسل واتباعهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الاعراف وهود والشعراء ولا يذكر معها قصة ابراهيم [١] وإنما ذكر قصة ابراهيم في سورة الانبياء ومريم والعنكبوت والصفافات فإن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الامم بل في سورة الانبياء كان المقصود ذكر الانبياء ولهذا سميت سورة الانبياء فذكر فيها اكرامه للانبياء وان لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب وذكر آخر الكل ان هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ فيها بقصة ابراهيم اذ كان المقصود ذكر اكرامه للانبياء قبل محمد وابراهيم أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية وهو أب أكثرهم اذ ليس هو أب نوح ولوط لكن لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الانعام (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب) وأما سورة مريم فذكر الله تعالى فيها انعامه على الانبياء المذكورين فيها فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحيى وأنه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وأنه آتاه الحكم صبيا وذكر بدء خلق عيسى وما أعظماء الله تعالى من تعليم الكتاب وهو

[١] قوله ولا يذكر معها قصة ابراهيم نعم ذكرت قصة ابراهيم في سورة الشعراء ولكن على نسق من القصص غير نسق ما بعدها من بقية الامم المذكورة فيها حيث ذكر هلاكهم وتدمير الله لهم

التوراة والنبوة وإن الله تعالى جعله مباركا أينما كان وغير ذلك وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لآبيه وإن الله تعالى وهبه إسحاق ويعقوب نبيين ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق عليا ثم ذكر موسى وأنه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغير ذلك ، وذكر إسماعيل وأنه كان صادق الوعد وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيها وعد به أباه من صبره عند النجى فوفي بذلك وذكر إدريس وإن الله تعالى رفعه مكانا عليا ثم قال (أولئك الذين أنعم الله عليهم) وأما سورة العنكبوت فإنه ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد . وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل . فذكر قصة إبراهيم لأنها من النخط الأول ونصرة الله له على قومه . وكذلك سورة الصافات قال فيها (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا يقتضى أنها عاقبة رديئة أما بكونهم غلبوا وذلوا وأما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر فيها قصة الياس ولم يذكرها في غيرها ولم يذكر هلاك قومه بل قال (فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين) والياس قد روى أن الله تعالى رفعه وهذا يقتضى عذابهم في الآخرة فإن الياس لم يقم فيهم والياس المعروف بعد موسى من بنى إسرائيل، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال؛ وبعد نوح لم يهلك جميع النوع وقد بعث في كل أمة نذيرا والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله الأسفلين الاخسرين وفي هذا ظهور برهانه وآيته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضاً بالقدره حيث أذلهم ونصره وهذا من جنس المجاهد الذى هزم عدوه وتلك من جنس المجاهد الذى قتل عدوه وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهرائى قومهم حتى هلكوا فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك وهو أقامته فيهم وانتظار العذاب النازل، وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك. ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل [١] فانهم إذا علموا

[١] ولما لم يقيم بين قوميها بعد ما قاما بابلاغهم الدعوة ولم ينتظرا نزول

الدعوة حصل المفصود وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب. وأما حال إبراهيم فكانت الى الرحمة أميل فلم يسع في هلاك قومه لابلعاء ولا بالمقام ودوام اقامة الحجّة عليهم. وقد قال تعالى (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلك الظالمين ولنسكنكم الأرض من بعدهم) وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم الا عاقبوا وقوم إبراهيم أوصلوه الى العذاب لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب اذ الدنيا ليست دار الجزاء التام وانما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة كما في العقوبات الشرعية فمن أراد أعداؤه من اتباع [١] الانبياء ان يهلكوه فعصمه الله وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره فهو أشبه بإبراهيم واذا عصمه من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينه وبينهم سجلاً ثم كانت العاقبة له فهو أشبه بحال محمد ﷺ فان محمداً سيد الجميع وهو خليل الله كما ان إبراهيم خليله وأخيلان هما أفضل الجميع وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرها ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ديناً غير الشرك وكذلك عن قوم نوح *

وأما عاد فذكر عنهم التجبر وعمارة الدنيا وقوم صالح ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وانما أهلكهم لما عقروا الناقة، وأما أهل مدين فذكر عنهم الظلم في الاموال مع الشرك (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو ان نفعل في أموالنا ما نشاء) وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكرهم بالتوحيد بخلاف سائر الامم وهذا يدل على انهم لم يكونوا مشركين وانما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك؛ وكانت عقوبتهم أشد. اذ ليس في ذلك تدين بل شر يعلمون انه شر. وهذه الامور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم فان قوم نوح أغرقهم اذ لم يكن فيهم خير يرجى *

[١] من اتباع بيان لمن في قوله فمن أراد



فصل

في آيات الانبياء وبراهينهم

وهي الادلة والعلامات المستلزمة لصدقهم ؛ والدليل لا يكون الا مستلزماً للمدلول عليه مختصاً به ، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره ، فانه يلزم من تحققه تحقق المدلول ، واذا انتفى المدلول انتفى هو ؛ فما يوجد مع وجود الشيء ومع عدمه لا يكون دليلاً عليه ؛ بل الدليل ما لا يكون الا مع وجوده فما وجد مع النبوة تارة ومع عدم النبوة تارة لم يكن دليلاً على النبوة ، بل دليلاً ما يلزم من وجوده وجودها . وهنا اضطرب الناس فقليل دليلاً جنس يختص بها وهو الخارق للعادة ؛ فلا يجوز وجوده لغير نبي ، لا ساحر ؛ ولا كاهن ؛ ولا ولي ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم كابن حزم وغيره . وقيل بل الدليل هو الخارق للعادة بشرط الاحتجاج به على النبوة والتحدى بمثله ؛ وهذا متنف في السحر والكرامة كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الاثبات كالقاضيين أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما . وقد بسط القاضي أبو بكر الكلام في ذلك في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات والكرامات ؛ والحيل ، والكهانات ، والسحر ، والنيروحيات . وهؤلاء جعلوا مجرد كونه خارقاً للعادة هو الوصف المعبر ؛ وفرق بين أن يقال لا بد أن يكون خارقاً للعادة ، وبين أن يقال كونه خارقاً للعادة هو المؤثر ؛ فان الاول يجعله شرطاً لا موجباً ؛ والثاني يجعله موجباً . وفرق بين أن يقال العلم والبيان وقراءة القرآن لا يكون الا من حي ؛ وبين أن يقال كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً . ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء . وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف ؛ بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز . وانما فيه آيات وبراهين ، وذلك يوجب اختصاصها بالانبياء . وأيضاً فقالوا في شرطها أن لا يقدر عليها الا الله ، لا تكون مقدورة للملائكة ، ولا للجن ، ولا للانس ؛ بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه الا الله ، كاحياء الموتى ، وقلب العصا حية ، واذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة ، مثل حمل الجبال ، والقفز من المشرق الى المغرب ، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر

ففيه لهم قولان : أحدهما أن ذلك يصح أن يكون معجزة . والثاني أن المعجزة إنما هي اقدار المخلوق على ذلك بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة ، وهذا اختيار القاضي أبي بكر . ومن اتبعه كالقاضي أبي يعلى . وظنوا أن هذا يوجب ضرد قولهم أنها لا تكون مقدورة لغير الله بخلاف القول الاول ، فإنه تقع فيه شبهة اذ كان الجنس معتاداً . وإنما الحارق هو الكثير الخارج عن العادة ؛ وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف فإنه اذا كان قادراً على اليسير ، فخرق العادة في قدرته حتى جعله قادراً على الكثير ، فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور ؛ وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة كما خرقت بفعل خارج عن القدرة . وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها ، والقدرة عنده مع الفعل فلا فرق . وهذا القول وهو أن المعجزة لا تكون الا مقدورة للرب لا للعباد قول كثير من أهل الكلام من القدرية والمثبتة للقدر وغيرهم . ثم انهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر الابداء على مثل ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله ، اعتمدوا في الدلالة على أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده . فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الامور ، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده ، وهو العجز أو القدرة على ضد ذلك الفعل ، كما يقولونه في فعل العبد انه اذا لم يقدر على الفعل فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده . هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل والقدرة عنده لا تصلح للضدين كالاشعرية فيقول لا يخلو من القدرة أو العجز فهذه مقدمة . والمقدمة الثانية ونحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى ونحو هذه الامور لكننا غير قادرين عليها ؛ ولا يجوز أن نقدر عليها . وهؤلاء يقولون لا يكون الشيء عاجزاً الا عما يصح أن يكون قادراً عليه بخلاف ما لا يصح أن يكون قادراً عليه فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه . ولهذا قالوا لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات لان ذلك يقتضى أن الله أعجز العباد عنها ، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه . هذا كلام القاضي أبي بكر ومن وافقه . وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منهما حجة ، فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنياً على مثل هذا الكلام الذي ينازعه فيه أكثر العقلاء ؟ ولو كان صحيحاً لم يفهم الا بكلفة ولا يفهمه الا

قليل من الناس ؛ فكيف اذا كان باطلا والذين آمنوا بالرسول لما رأوه وسمعوه من الآيات لم يتكلموا بمثل هذا الفرق بل ولا خطر بقلوبهم . ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق كأبي المعالي والرازي والآمدى وغيرهم حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد البارئ بالقدرة عليها قالوا كل حادث فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب وهو خالقها، والعبد ليس خالقاً لفعله . فالاعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة ، وتحدى بمثلها فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد . وزعم القاضي أبو بكر أن ما يستدل به على أن المعجزات يتمتع دخولها تحت قدر العباد لا يصح على أصول القدرية؛ وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض كعادته في أمثال ذلك ثم جعل هذا الفرق هو الفرق بين المعجزات وبين السحر والحيل. فقال وأما على قولنا ان المعجز لا يكون الا من مقدورات القديم ونما يستحيل دخوله ودخول مثله تحت قدر العباد، فاذا كان كذلك استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئاً من معجزات الرسل؛ أو ما هو من جنسها، لان المحتال انما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته دون ما يستحيل كونه مقدوراً له. قال وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد، وان لم يقدرُوا على كثيره؛ وما يخرق العادة منه فانهم يقولون قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر والمشعبذ الى فعل الصعود في السماء، ولا قفز من المشرق الى المغرب، وقفز الفراسخ الكثيرة؛ والمشى على الماء، وحمل الجبال الراسيات. هذا أمر لا يتم بحيلة محتال ولا سحر ساحر. وتكلم على أبطال قول من قال ان السحر لا يكون الا تخيلاً لا حقيقة له. وذكر أقوال العلماء والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره. وقول انه يقتل حداً عند أكثرهم، وقصاصاً عند بعضهم. ثم قال ﴿باب القول في الفصل بين المعجز والسحر﴾ وهو لم يفرق بين الجنسين بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر، لكن قال الفرق هو تحدى الرسول بالاثبات بمثله وتقريع مخالفه. بتعذر مثله عليه، فتنى وجد الذي ينفرد الله بالقدرة عليه من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره لم يكن معجزاً واذا كان كذلك خرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لا آيات الانبياء، وكان ما يظهر عند فعل الساحر من جنس بعض معجزات الرسل.

وما يفعله الله عند تحديهم به غير ان الساحر اذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله بوجهين: أحدهما أن ينسبه عمل السحر أولاً يفعل عند سحره شيئاً في المسحور من موت أو سقم أو بغض. ولم يخلق فيه الصعود الى جهة العلو، والقدرة على الدخول في بقرة، فاذا منعه هذه الاسباب بطل السحر. والثاني أن الساحر تمكن معارضته فان أبواب السحر معلومة عند السحرة، فاذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره لم يلبث ان يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده. والرسول اذا ظهر عليه مثل ذلك وادعاء آية له قال لهم هذا آيتي وحقى ودليل ذلك انكم لاتقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتي هذا، ومع تحدى ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر وفعل كاهن وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق وان دق سحره وعظم في الكهانة علمه فاذا ظهر ذلك عليه وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع انه قد كان يظهر من قبل صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحرة والكهنة خاصة. قال ولم يبعد أن يقال هذه الآية أعظم من غيرها وان لها فضل مزينة، ذكر هذا بعد أن قال فان قال قائل فاذا أجزتم أن يكون من عمل السحر ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض وبغض الوطن والرد اليه من السفر وضيق الصدر والعجز عن الوطاء بالربط والشد الذي يعلمه السحرة والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات في الفصل بين هذا وبين معجزات الرسل، وكيف ينفصل مع ذلك المعجزات من السحر ويمكن الفرق بين النبي والساحر. أو ليس لو قال نبي مبعوث اني أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذه البقرة وأخرج واني أفعل فعلاً أفرقه بين المرء وزوجه وأفعل فعلاً أقتل به هذا الحى وأسقم هذا الصحيح فهل كان يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلاً على صدقه وما الفصل اذاً بين السحر والمعجز ثم قال في الجواب يقال له جواب هذا قريب وذلك انا قد بينا في صدر هذا الكتاب ان من حق المعجزات لا يكون معجزاً حتى يكون واقعاً من فعل الله على وجه خرق عادة البشر مع تحدى الرسول بالاثبات الى آخر ما كتب ۞

قلت هذا عمدة القوم ولهذا طعن الناس في طريقهم وشنع عليهم ابن حزم وغيره.

وذلك ان هذا الكلام مستدرك من وجوه. أحدها انه اذا -جوز أن يكون ما ينفرد
 الرب بالقدره عليه على قوله يأتي به النبي تارة والساحر تارة ولا فرق بينهما الا دعوى
 النبوة والاستدلال به، والتحدى بالمثل فلاحاجة الى كونه مما انفرد الباري بالقدره
 عليه؛ لاسيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يتمتع قدرة العباد عليه وما لا يتمتع . ولهذا
 أعرض المتأخرون عن هذا القيد، الوجه الثاني وبه تنكشف حقيقة طريقهم انه على هذا
 لم تتميز المعجزات بوصف تختص به وانما امتازت باقتراثها بدعوة النبوة وهذا حقيقة
 قولهم وقد صرحوا به. فالدليل والبرهان ان استدل به كان دليلا وان لم يستدل به لم
 يكن دليلا، وان اقترنت به الدعوى كان دليلا وان لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلا
 عندهم ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية بل دلالة وضعية كدلالة الالفاظ
 بالاصطلاح وهذا مستدرك من وجوه. منها ان كون آيات الانبياء مساوية في الحد
 والحقيقة بسحر السحرة أمر معلوم الفساد بالاضطرار من دين الرسل الله الثاني ان هذا
 من أعظم القدح في الانبياء اذا كانت آياتهم من جنس "سحر السحرة" وكهانة الكهان
 الثالث انه على هذا التقدير لا تبقى دلالة فان الدليل ما يستلزم المدلول ويختص به فاذا
 كان مشتركا بينه وبين غيره لم يبق دليلا فهو لاء قدحوا في آيات الانبياء ولم يذكرها
 دليلا على صدقهم ثم الرابع انه على هذا التقدير يمكن الساحر دعوى النبوة وقوله انه
 عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر أو يأتي بمن يعارضه دعوى مجردة فان المنازع
 يقول لانسلم انه اذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك، لاسيما على أصله وهو ان
 الله يجوز أن يفعل كل مقدور وهذا مقدور للرب فيجوز أن يفعله وادعى ان ما يحرق
 العادة من الامور الطبيعية والطلسمات هي كالسحر فقال ولاجل ذلك لم تلبس آيات
 الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس وما يوجد ويكون عند كتب الطلسمات
 قال وذلك انه لو ابتدأ نبي باظهار حجر المغناطيس لوجب أن يكون ذلك آية له
 ولو أن أحدا أخذ هذا الحجر وخرج الى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره ولم
 يسمع به لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين أحدهما أن يؤثر دواعي خلق من البشر الى
 حمل جنس تلك الحجارة الى ذلك البلد وكذلك سبيل الزناد الذي يقده النار وتعرفه العرب
 وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال انها تنفذ الابواب والبق والحيات والوجه الاخر أن لا يفعل

الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل فيقال هذه دعوى مجردة ومما يوضح ذلك الوجه الخامس وهو أن جعل قدح الزناد وجذب حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الانبياء وأنه لو بعث نبي ابتداء وجعل ذلك آية له جاز ذلك غلط عظيم وعدم علم بقدر معجزات الانبياء وآياتهم وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآيات كما فعلت المعتزلة وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الانبياء وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك لدلالة الشرع والأخبار المتواترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والاستدلال والتحدى دون الخارق ومعلوم أن ما ليس بدليل لا يصير دليلاً بدعوى المستدل أنه دليل وقد بسط الكلام في ذلك. وحوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب إذا خلق الله مثلاً على يده من يعارضه فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل مع أن المثل عنده موجود بآيات الانبياء لها أمثال كثيرة لغير الانبياء لكن يقول أن من ادعى الاتيان فاما ان لا يظهرها الله على يديه واما أن يقيض من يعارضه بمثلاً هذا عمدة القوم وليس فرقاً حقيقياً بين النبي والساحر وإنما هو مجرد دعوى وهذا يظهر بالوجه السادس وهو أن من الناس من ادعى النبوة وكان كاذباً وظهرت على يده بعض هذه الخوارق فلم يمنع منها ولم يعارضه احد بل عرف أن هذا الذي أتى به ليس من آيات الانبياء وعرف كذبه بطرق متعددة كما في قصة الأسود العنسي ومسيامة الكذاب والحارس الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة فقولهم ان الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس ليس كما ادعوه الوجه السابع أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب لان ذلك يقضى الى عجز الرب وهذه عمدة الأشعرى في أظهر قوليهِ وهي المشهورة عند قدمائهم وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى ونحوه

قال القاضي أبو بكر فان قال قائل من القدرية فلم لا يجوز ان يظهر المعجزات على يد مدعى النبوة ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار واضلالهم في الفصل بين اضلالهم بهذا وبين اضلالهم باظهار المعجزات على يد الكاذبين؟ قال فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية الفصل بين الامرين ظاهر معلوم وقد نص القرآن والاخبار بأنه يضل ويهتدي ويختم على القلوب والاسماع والابصار. فاما مطالبهم بالفرق بين اضلال العباد بهذه الضروب من

الأفعال وبين اضلالهم باظهار المعجزات على أيدي الكذابين ؛ فجوابه انا لم نحل اضلالهم بهذا الضرب لانه اضلال عن الدين أو لقبحه من الله لو وقع أو لاستحقاقه الذم عليه تعالى عن ذلك ، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل ؛ كل ذلك باطل محال من تمويههم وانما أخلناه لانه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب ، وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبي من جهة الدليل اذ لادليل في قول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم الا ظهور انلام المعجزة على أيديهم ؛ أو خبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل فهذا اجماع لاخلاف فيه ، فلو أظهر الله على يد المتنبي الكاذب ذلك لبطلت دلائل النبوة وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم ، ولما لم يحجز عجزه وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات لم يحجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين ؛ بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين . قلت هذا عمدة القوم والمتأخرون عرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كابي المعالي والرازي وغيرهما بل سلكوا الجواب الآخر وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة فهو علم ضروري وبيان ضعف هذا الجواب مع انه يحتاج به وقال فهذا هذا من وجوه : أحدها ان يقال ان كان الامر كما زعمتم فأنما يلزم العجز اذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم جنسه لا يدل بل جنسه يتقع مع عدم النبوة ولم يبق عندكم جنس من الادلة يخص النبوة فلم قلتم ان تصديقهم والحال هذه ممكن ولا ينفعكم هنا الاستدلال بالاجماع ونحوه من الادلة السمعية لان كلامكم مع منكرو النبوات فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلاً على صدق النبي . وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم فانه لا يحتاج الى كلامكم فاذا قال لكم منكرو النبوة لا نسلم امكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم ما يدل على ذلك وقد أورد هذا السؤال وأجاب عنه بأنه يمكنه (١) تصديقهم بالقول والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول بل التصديق بالفعل أوكد وضرب المثل بمدعى الوكالة اذا قال قم أو اقعد ففعل ذلك عند استشهاد وكيله ، فان العقلاء كلهم يعلمون انه أقام تلك الأفعال مقام القول

قلت وهذا يعود الى الاحتجاج بالطريقة الثانية وهي العلم بالتصديق ضرورة فلا حاجة الى طريقة المعجزات . الثاني انه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم وقد سلم القاضي أبو بكر ذلك لكن قال اذا اضطررنا الى العلم بصدق مدعى النبوة وانه أرسله الينا كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا الى العلم بذاته واني انه قد أرسل مدعى النبوة واذا علمنا ذلك اضطراراً لم يكن للتكليف بالعلم بصدق وجهها وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين وهذا كلام يؤدي الى خروجنا عن أحد المحنة والتكليف فيقال له اذا حصل العلم الضروري بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالاقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له وبصدق رسله وطاعة أمره وهذا هو الذي أمرت به الرسل أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده وأن يطيعوا رسله ولم يأمرُوا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله لكن من جحد الحق أمروه بالاقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وانه جاحد للحق الذي يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون انه صادق ويكذبونه فليتدبر هذا الموضع فانه موضع عظيم من الوجوه الثالث ان يقال نحن نسلم ان المعجزات تدل على الصدق وانه لا يجوز اظهارها على يد الكاذب لكن هو لان الله منزّه عن ذلك وان حكمته تمنع ذلك ولا يجوز عليه كل فعل ممكن وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب فما علم بالعقل والاجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم من الوجوه الرابع ان يقال لم قلت انه لا دليل على صدقهم الا المعجزات وما ذكرتم من الاجماع على ذلك لا يصح الاستدلال به لوجهين : أحدهما انه لا اجماع في ذلك بل كثير من الطوائف يقولون ان صدقهم بغير المعجزات . الثاني انه لا يصح الاحتجاج بالاجماع في ذلك فان الاجماع انما يثبت بعد ثبوت النبوة والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالاجماع وقولكم لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة وذكر عن الاشعري انه ذكر جواباً آخر فقال وأيضاً فان قول القائل ما أنكرتم من جواز اظهار المعجزات على أيدي الكذابين قول متناقض والله على كل شيء قدير . ولكن ما طالب السائل باجازه محال لانصح القدرة عليه ولا المعجز عنه لانه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم فانه أوجب انهم صادقون لان المعجز

دليل على الصدق ومتضمن له وقوله مع ذلك انهم كاذبون نقض لقوله انهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم فوجب احالة هذه المطالبة وصار هذا بمثابة قول من قال ما أنكرتم من [١] صحة ظهور الافعال المحكمة الدالة على علم فاعلمها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض فيجب اذا كان الامر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال ما أنكرتم وزعمتم أنه من فعل المحال الذي لا يصح حدوثه وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر وضروب الضلال التي يصح حدوثها وتناول القدرة لها . قلت هذا كلام صحيح اذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق والممتع غير مقدور فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم لكن المطالب يقول كيف يستقيم على أصلكم ان يكون ذلك دليل الصدق وهو أمر حادث مقدور وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله ولو كان فيه من الفساد ما كان فانه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن ولا يقبح منه فعل فحينئذ اذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق لم يكن ممتعاً على أصلكم وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم ويلزمكم اذا لم يكن دليل الهى الا يكون في المقدور دليل على صدق مدعى النبوة فيلزم ان الرب سبحانه لا يصدق أحداً ادعى النبوة واذا قلتم هذا ممكن بل واقع ونحن نعلم صدق الصادق اذا ظهرت هذه الاعلام على يده ضرورة قيل فهذا يوجب ان الرب لا يجوز عليه اظهارها على يد كاذب وهذا فعل من الافعال هو قادر عليه وهو سبحانه لا يفعله بل هو منزّه عنه فأنتم بين أمرين ان قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتعاً فقد قلتم انه لا يقدر على احداث حادث قد فعل مثله وهذا تصرّح بعجزه وأنتم قلتم فليست بدليل فلا يلزم عجزه فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم وان قلتم يقدر لكنه لا يفعل فهذا حق وهو ينقض أصلكم . وحقيقة الامر ان نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب وحصوله له ممتنع غير مقدور . وأما خلق مثل تلك الحارقة على يد

١٦٢٨ هذا الاصل له انما هو كذا فهو من قس وقوله بعد ذلك من الجاهل بها متعلق بظهور

الكاذب فهو ممكن والله سبحانه وتعالى قادر عليه لكنه لا يفعله لحكمته كما انه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم والمعجز تصديق وتصديق الكاذب هو منزه عنه، والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب فيمتنع جعل من ليس برسول رسولاً وجعل الكاذب صادقاً ويمتنع من الرب قصد المحال وهو غير مقدور وهو اذا صدق الصادق بفعله علم بالاضطرار والدليل انه صدقه وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب فانتم تقولون ان الرب لا يخلق شيئاً لشيء وحينئذ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الاحكام فلا يكون الاحكام دالا على العلم على أصلكم فان الاحكام انما هو جعل الشيء محصلاً للمطلوب بحيث يجعل لاجل ذلك المطلوب وهذا عندهم لا يجوز فاثباته علمه وتصديق رساله مشروط بأن يفعل شيئاً لشيء وهذا عندهم لا يجوز فلماذا يقال انكم متناقضون والله سبحانه وتعالى أعلم ^{٢٦} الوجه الثامن أن حقيقة الامر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخسار مع التحدى ان المعجز في الحقيقة ليس الا منع الناس من المعارضة بالمثل سواء كان المعجز في نفسه خارقاً أو غير خارق وكثير مما يأتي به الساحر والكاهن أمر معتاد لهم وهم يجوزون أن يكون آية للنبي واذا كان آية منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل أو قبيح له من يعارضه وقالوا هذا ابلغ فانه منع المعتاد وكذلك عندهم احدى نوعي المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة وهو ما أخذ من يقول بالصرفه واذا كان كذلك جاز أن يكون كل أمر، كالاكل والشرب والقيام والقعود معجزة اذا منعهم أن يفعلوا كفعله وحينئذ فلا معنى لكونها خارقاً ولا لاختصاص الرب بالقدره عليها بل الاعتبار بمجرد عدم المعارضة وهم يقرون بخلاف ذلك والله أعلم ^{٢٧}

الوجه التاسع أنه اذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدى فلا حاجة الى كونه خارقاً كما تقدم ويجب اذا تحدى بالمثل أن يقول فليأت بمثلي القرآن من يدعى النبوة فان هذا هو المعجز عندهم والا القرآن مجرداً ليس بمعجز فلا يطلب مثل القرآن الا ممن يدعى النبوة كما في الساحر والكاهن اذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك أو قبيح له من يعارضه واذا لم يدع النبوت جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن وسائر المعجزات والله أعلم ^{٢٨}

فصل

في أن الرسول لابد أن يبين أصول الدين

وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر ومن أعظم أصول الضلال الاعراض عن بيان الرسول للدلالة والآيات والبراهين والحجج فان المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته فان لم يكونوا عالمين بصدقه فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم فاما المؤمن او الموقن فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمننا به واتبعناه . وأما المنافق او المرتاب فيقول هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين . وان استدل على ذلك بغير الآيات والدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً لابد أن يخطيء ويضل فان ظن الظان انه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل الى مقصوده وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر كما وقع في الظن الاول طوائف من العباد الغالطين أصحاب الارادة والمحبة والزهد . وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » يتناول هذا وهذا وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق فان أرباب العبادة والمحبة والارادة والزهد الذين سلكوا غيراً أمروا به ضلوا كما ضلت النصاري ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والاستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانهم أيضاً ضلوا قال تعالى (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال

رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فخسيتها وكذلك اليوم تنسى) وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد أصول الاسلام أربعة : دال ودليل : ومبين ومستدل . فالدال هو الله ، والدليل هو القرآن ، والمبين هو الرسول . قال الله تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) والمستدل هم أولو العلم وأولو الالباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرأيتهم وقد ذكره ابن المني عن أحمد وهو مذكور في العدة للمقاضي أبي يعلى وغيرها اما أن أحمد قال له أو قيل له فاستحسنه . ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والاستدلال وينهون عن التقليد ويقول كثير منهم أن إيمان المقلد لا يصح أو أنه وإن صح لكنه عاص بترك الاستدلال ثم النظر والاستدلال الذي يدعون اليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبراً ولا أمراً وهو استدلال فاسد لا يوصل الى العلم فانهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بانها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها ثم استدلوا على حدوث الأعراض قالوا فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا يخلو عنها فلا تكون مثلها ثم كثير منهم قالوا وما لم يخل من الحوادث أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بان لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة ولو قدرت ألف ألف ألف حادث فإن الحوادث اذا جمعت مقدرة محدودة فلا بد ان يكون لها ابتداء فان ما لا ابتداء له ليس له حد معين ابتداءً منه إذ قد قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث فانه يكون اما معها واما بعدها وكثير منهم يفتن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة فالجنس مثل ان يقال ما زالت الحوادث توجد شيئاً بعد شيء أو ما زال جنسها موجوداً أو ما زال الله متكلماً اذا شاء أو ما زال الله فاعلاً لما يشاء أو ما زال قادراً على ان يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يتمتع معها المقدور فان هذه في الحقيقة ليست قدرة ومثل ان يقال في المستقبل لا بد ان الله يخاق شيئاً بعد شيء ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول ولا ينفد وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفذ ولا نهاية لها لا في الماضي ولا في المستقبل ونحو ذلك . فالكلام

في دوام الجنس وبقائه وانه لا ينفد ولا ينقضى ولا يزول ولا ابتداء له غير الكلام فيما
يقدر محدوداً له ابتداءً أو له ابتداء وانتهاء فان كثيراً من النظائر من بقول جنس الحوادث اذا قدر
له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء لانه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر
مما وجد وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل فانه ليس وراء عدم النهاية شئ أكثر منها
بمخلاف ما لا ابتداء له ولا انتهاء فان هذا لا يكون شئ فوقه فلا يفضى الى التفاضل فيما
لا يتناهى وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا ان هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم
وايمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وانه من لم ينظر
في هذا الدليل فاما انه لا يصح ايمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم . واما ان
يكون عاصياً على قول آخرين واما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا
التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص . والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل
وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والايمان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء
المسلمين يعلمون بالاضطرار ان الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لاعامة
الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطاً في الايمان والعلم وقد شهد القرآن
والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وانهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء
به وعالمون بالله وبأنه لا اله الا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى
(ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز
الحمد) وقال (شهد الله ان لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) وقال
(أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى)

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله (وبالاخرة هم يوقنون)
وقوله (أولئك على هدى من ربهم) وقوله (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعني) وأمثال ذلك فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذى أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين
ليس مما أوجبه الله ورسوله ولو قدر انه صحيح في نفسه وان الرسول أخبر بصحته
لم يلزم من ذلك وجوبه اذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة ولهذا طعن الرازى وأمثاله
على أبى المعالى في قوله انه لا يعلم حدوث العالم الا بهذا الطريق وقالوا هب أنه يدل على
حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر وسلكوا هم طرقاً أخرى

فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلا وقد شهدها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع امكان سلوك طرق أخرى كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والاجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى . ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره كالأيات المسكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل سائر القرآن فالدليل يجب طرده لا يجب عكسه . ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم والاشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضا في رسالته الى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللمع في الرد على أهل البدع وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحا كثيرة والقاضي أبو بكر شرحه ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه نقض نقض اللمع . وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازما له ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجىء الآخرفيرد عليه ويبين فساد ما التزمه ويلتزم هو لوازم آخر لطردها فيقع أيضا في مخالفة الشرع والعقل . فالجهمية التزموا لاجلها نفي أسماء الله وصفاته إذ كانت الصفات اعراضا تقوم بالموصوف ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم فإذا اعتقدوا حدوثه اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعالى قديم فالتزموا نفي صفاته واسماؤه مستلزما لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى . والمعتزلة استعظموا نفي الاسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكذيبا ظاهرا الخروج عن العقل والتناقض فانه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان فلا لا يميز من غيره لاحقيقة له ولا اثبات وهو حقيقة قول الجهمية فانهم لم يثبتوا في نفس الامر شيئا قديما البتة كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الامكان والوجوب وجعلوا ذلك

بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجبا بنفسه البتة وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر وذلك انه يشهد وجود السموات وغيرها فهذه الافلاك ان كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب وان كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم فان وجود الممكن بدون الواجب والمحدث بدون القديم ممتنع في بداية القول فثبت وجود موجود قديم واجب بنفسه على كل تقدير فاذا كان ما ذكره من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقا ونفي الواجب علم انه باطل وقد بسط هذا في مواضع وبين أن كل من نفي صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول الا مع القول بصدق الرسول فادلة العقول مستلزمة لصدق الرسول فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لاعقل ولاسمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار قال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم الا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنی استعظموا ذلك وأقروا بالاسماء ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات نفوا الصفات فصاروا متناقضين فان اثبات حتى علم قدير حكيم سمیع بصير بلا حياة ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصير مكبرة للعقل كاثبات مصل بلا صلاة وصائم بلا صيام وقائم بلا قيام ونحو ذلك من الاسماء المشتقة كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها . ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الاسم المشتق كالحي والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم . وذكروا النزاع مع من ذكره من المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم فجاء ابن هلاب ومن اتبعه كالاشعري والقلاسي فقررروا أنه لا بد من اثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي مع اثبات الاسماء وقالوا ليست اعراضا لان العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية وسلوكوا في هذا الفرق وهو أن العرض لا يبقى زمانين مسلکا أنكره عليهم جمهور العقلاء وقالوا انهم خالفوا الحس وضرورة العقل وهم موافقون لأولئك على صحة هذه

الطريقة طريقة الاعراض قالوا وهذه تنفى عن الله أن يقوم به حادث وكل حادث فانما يكون بمشيئته وقدرته قالوا فلا يتصف بشئ من هذه الامور لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره بل منهم من قال لا يقوم به فعل بل الخلق هو المخلوق كالا شعري ومن وافقه ومنهم من قال بل فعل الرب قديم أزلي وهو من صفاته الازلية وهو قول قدماء الكلاية وهو الذى ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الاصل فكتبوا عقيدة اصطلاحوا عليها وفيها اثبات الفعل القديم الازلي وكان سبب ذلك انهم كانوا كلاية يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل كلامه المعين لازم لذاته أزلا وأبداً. وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وكان قد بلغه عن الامام احمد انه كان يذم الكلاية وانه امر بهجر الحارث المحاسبى لما بلغه انه على قول ابن كلاب وكان يقول حذروا عن حارث الفقير فانه جهمى واشتهر هذا عن احمد. وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون ان القرآن وغيره من كلام الله مخلوق ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته لكن مرادهم بذلك انه يخلق كلاما باثنا عنه قائما بغيره كسائر المخلوقات وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فاراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قوهم فنفر منه وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا انه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الاعراض وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بامام الأئمة واكثر الناس معه ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك الى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلاية وبين أهل الحديث والسنة فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق وانه لم يزل متكلماً وان فعله أيضاً غير مخلوق فالمفعول مخلوق ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية وهو اختيار القاضي أبى يعلى وغيره في آخر عمره ونسب هذا له موضع آخر.

والمقصود التنبيه على افتراق الامة بسبب هذه الطريقة ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب وانه يقول ان الله لم يتكلم بالقرآن العربى وان كلامه شئ واحد هو معنى آية الكرسي وآية الدين عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل فنفروا عنه

وعرفوا أن هؤلاء يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته فانكروه وكان ممن أنكر ذلك الكرامية وغير الكرامية كأصحاب أبي معاذ التومني وزهير البابي وداود بن علي وطوائف فصار كثير من هؤلاء يقولون انه يتكلم بمشيئته وقدرته فانكروه لكن يراعى تلك الطريقة لاعتقاده صحتها فيقول انه لم يكن في الازل متكلما لانه اذا كان لم يزل متكلما بمشيئته نزم وجود حوادث لا تنتهي ۞

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء انه صار متكلما بعد ان لم يكن متكلما مخالفوا قول السلف والأئمة انه لم يزل متكلما اذا شاء وبسط هذه الامور له موضع آخر ۞ والمقصود هنا أن كثيرا من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والايمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الامة وأئمتها على ذمها وذم أهلها فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أو لامتواثر مشهور قد صنف فيه مصنفات وذمهم للكلام والتكلمين مما عني به أهل هذه الطريقة كذم الشافعي لحفص الفرد الذي كان على قول ضرار بن عمرو وذم احمد بن حنبل لأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث الذي كان على قول حسين النجار وذمهما وذم أبي يوسف ومالك وغيرهم لأنثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة وقد صنف في ذم الكلام وأهلها مصنفات أيضا وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعا فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلا قطعا بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والايمان ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي وأبو عبد الله الرازي وأمثالهما ثم الذي يتبين له فسادها اذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائرا مضطربا والقائلون بقدم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها فصار ذلك من اعظم حججهم على قولهم الباطل فيقولون قول هؤلاء انه صار فاعلا او فاعلا ومتكلما بمشيئته بعد ان لم يكن ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون انهم اذا ابطالوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم وهم أضل وأجهل من أولئك فان أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد ان لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة وان كان الفاعل لم يزل فاعلا لما يشاء ومتكلما بما يشاء وصار كثير من أولئك اذا ظهر له فساد اصل

أولئك المتكلمين المتبدعين وليس عنده الا قولهم وقول هؤلاء يميل الى قول هؤلاء الملاحدة ثم قد يظن ذلك وقد يظهر لمن يأمنه وابتلى بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة ويزعمون انهم أهل التحقيق والتوحيد والعرفان فآخذوا من نفي الصفات ان صانع العالم لا داخل العالم ولا خارجه ومن قول هؤلاء ان العالم قديم ولم يروا موجودا سوى العالم فقالوا انه هو الله وقالوا هو الوجود المطلق والوجود واحد وتكلموا في وحدة الوجود وانه الله بكلام ليس هذا موضع بسطه ثم لما ظهر ان كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون القرآن كله شرك وانما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل اليه هذا العلم البدني الاعلى فليترك العقل والنقل وصار حقيقة قولهم التكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع لسكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقا كثيرا لم يعرفوا باطن أمرهم وهؤلاء صاروا ينتسبون الى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطريق كالفضيل وابراهيم بن ادهم والتستري والجنيد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء ممن له في الامة لسان صدق فافتقر هؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافا لهؤلاء المشايخ السادة ولمن هو أفضل منهم من السابقين الاولين والانبياء المرسلين وكان من أسباب ذلك ان العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف امر معظم في القلوب والرسل انما بعثوا بدعاء الخلق الى ان يعرفوا الله ويكون أحب اليهم من كل ما سواه فيعبودوه ويألهون ولا يكون لهم معبود سواه غيره

وقد انكر جمهور أولئك المتكلمين ان يكون الله محبوا أو انه يحب شيئا أو يحبه أحد وهذا في الحقيقة انكار لكونه الها معبودا فان الاله هو المألوه الذي يستحق ان يؤله ويعبد والتأله والتعبد يتضمن غاية الحب بغاية الذل ولكن غلط كثير من أولئك فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق وان الاله بمعنى الاله [١] وان العباد يألههم الله لا انهم هم يألهون الله كما ذكر ذلك طائفة منهم الاشعرى وغيره وطائفة ثالثة لما رأيت ما دل على ان الله يحب ان يكون محبوا من أدلة

[١] أى اسم الفاعل من فعل اله كعصر

الكتاب والسنة وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة صاروا يقولون بأنه محبوب لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنى المشيئة وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كابن اسماعيل الانصارى وأبي حامد الغزالي وأبي بكر بن العربي ؒ

وحقيقة هذا القول ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه وهذا هو المشهور من قول الأشعرى وأصحابه وقد ذكر أبو المعالى انه أول من قال ذلك وكذلك ذكر ابن عقيل ان أول من قال ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعرى وأصحابه وهم قد يقولون لا يحبه ديناً ولا يرضاه ديناً كما يقولون لا يريد ديناً أى لا يريد ان يكون فاعله مأجوراً وأما هو نفسه فهو محبوب له دائماً المخلوقات فانها عندهم محبوبة له اذ كان ليس عندهم الا ارادة واحدة شاملة لكل مخلوق فكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضى ؒ

وجاهير المسلمين يعرفون ان هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل وان المسلمين واليهود والنصارى متفقون على ان الله لا يحب الشرك ولا تكذيب الرسل ولا يرضى ذلك بل هو يبغض ذلك ويمتته ويكرهه كما ذكر الله في سورة بنى اسرائيل ما ذكره من المحرمات ثم قال كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً وبسط هذه الأمور له مواضع أخر ؒ

والمقصود هنا ان الذين اعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل وان أولئك لما أوجبوا النظر الذى ابتدعوه صارت فروعهم فاسدة ان قالوا ان من لم يسلكها كفر أو عصى فقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام ان الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يسلكوا طريقهم وهم خير الأمة وان قالوا ان من ليس عنده علم ولا بصيرة بالايمان بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة يكون مؤمناً فالكتاب والسنة يخالف ذلك ، ولو انهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض فان ما جاء به الرسول جاء من عند الله وما ابتدعوه جاؤا به من عند غير الله وقد قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وهؤلاء بنوا دينهم على النظر والصوفية بنوا دينهم على الارادة وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل فالحق.

هو النظر الشرعى والارادة الشرعية فالنظر الشرعى هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى كما قال (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) والارادة الشرعية ارادة ما أمر الله به ورسوله والسمع الشرعى سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن. والدليل الذى يستدل به هو الدليل الشرعى وهو الذى دل الله به عباده وهداهم به الى صراط مستقيم فانه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل صار اسم النظر والدليل والسمع والارادة يطلق على ثلاثة أمور منهم من يريد به البدعى دون الشرعى فيريدون بالدليل ما ابتدعوه من الادلة الفاسدة والنظر فيها ومن السماع والارادة ما ابتدعوه من اتباع ذوقهم ووجدهم وما تهووا أنفسهم وسمع الشعر والنساء الذى يحرك هذا الوجد التابع لهذه الارادة النفسانية التى مضمونها اتباع ما تهوى النفس بغير هدى من الله. ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والارادة من غير تقييدها لا بشرعى ولا بدعى فهؤلاء يفسرون قوله الذين يسمعون القول بمطلق القول الذى يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون الى هذا وهذا وأولئك يفسرون الارادة بمطلق المحبة لئلا من غير تقييدها بشرعى ولا بدعى ويجعلون الجميع من أهل الارادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول أو كان عابدا للشيطان مشركا عابدا بالبدع وهؤلاء أوسطهم وهم أحسن حالا من الذين قيدوا ذلك بالبدعى. وأما القسم الثالث فهم صفوة الأمة وخيارها المتبعون لرسول الله وعملا بدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والادلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية وهى محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لأشريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون الا الله ويعبدونه بما شرع وأمر ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذى قال فيه (أفلم يدبروا القول) وهو الذى قال فيه (فبشر عبادى الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه) كما قال (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) وقال [وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها] [١]

سبحانه بين القدرة على الابتداء كقوله (ان كنتم في ريب مما نزلنا من البعث فانا خلقناكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) الآية ومثل قوله
(ويقول الانسان اذا مامت لسوف اخرج حيا اولا يذكر الانسان انا خلقنا من قبل
ولم يك شيئا) الآية ومثل قوله (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم
قل يحييها ان الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم) وغير ذلك.

فلا استدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة وهي طريقة
عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس اليها وبينها وأرشد اليها
وهي عقلية فان نفس كون الانسان حادثا بعد ان لم يكن ومولودا ومخلوقا من نطفة
ثم من علقه هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به
الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل
شرعى لان الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلى لانه بالعقل تعلم صحته
وكثير من المتنازعين في المعرفة هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه وهو عقلى
شرعى وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر هو
مذكور في القرآن في غير موضع وهو عقلى شرعى كما قال تعالى (أولم يروا اننا نسوق
الماء الى الارض الجرز فنخرج به ذرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)
فهذا مرئي بالعيون وقال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين
لهم أنه الحق) ثم قال (أولم يكف يربك انه على كل شيء شهيد) فالآيات التي يريها
الناس حتى يعلموا ان القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقول على ان القرآن
حق وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية
التي يستدل بها العقل وهي شرعية لان الشرع دل عليها وأرشد اليها ولكن كثير من
الناس لا يسمي دليلا شرعيا الا ما دل بمجرد خبر الرسول وهو اصطلاح قاصر ولهذا
يجعلون أصول الفقه هولييان الأدلة الشرعية الكتاب والسنة والاجماع والكتاب يريدون
به أن يعلم مراد الرسول فقط والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الاحكام الشرعية
العملية فيجعلون الأدلة الشرعية مادلت على الاحكام العملية فقط ويخرجون ما ذلك
بإخبار الرسول عن أن يكون شرعيا فضلا عما دل بإرشاده وتعليمه ولكن قد يسمون

هذا دليلاً سمعياً؛ ولا يسمونه شرعياً؛ وهو اصطلاح قاصر، والاحكام العملية أكثر الناس يقولون انها تعلم بالعقل أيضاً؛ وان العقل قد يعرف الحسن والقبح فتكون الادلة العقلية دالة على الاحكام العملية أيضاً؛ ويجوز أن تسمى شرعية لان الشرع قررها ووافقها أو دل عليها وأرشد اليها، كما قيل مثل ذلك في المطالب الخيرية كاثبات الرب ووحدانيته، وصدق رسله وقدرته على المعاد ان الشرع دل عليها وأرشد اليها . وبسط هذا له موضع آخر ❦

والمقصود هنا أن الاشعري بنى أصول الدين في اللمع ورسالة الثغر على كون الانسان مخلوقاً محدثاً فلا بد له من محدث، لكون هذا الدليل مذكوراً في القرآن فيكون شرعياً عقلياً لكنه في نفس الامر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها وهو الاستدلال على حدوث الانسان بأنه مركب من الجواهر المفردة فلم يخل من الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، فجعل العلم بكون الانسان محدثاً ويكون غيره من الاجسام المشهودة محدثاً، انما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة وهي لا تخلو من اجتماع واقتراق وتلك أعراض حادثة؛ وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء فانهم أنكروا المعلوم بالحس والمشاهدة وبالضرورة العقلية من حدوث المحدثات المشهودة حدوثها وادعوا انه انما يشهد حدوث أعراض لاحداث أعيان مع تنازعهم في الاعراض، ثم قالوا والاجسام لا تخلو من لاعراض وهذا صحيح، ثم قالوا والاعراض حادثة، فاضطربوا هنا ثم قالوا وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . وهذا أصل دينهم وهو أصل فاسد يخالف للسمع والعقل كما قد بسط في غير هذا الموضع ❦

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم؛ لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية فاستطالوا عليهم بذلك ولسكوا ما هو أفسد منها كطريقة الامكان والوجوب كما قد بسط في موضع آخر؛ فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول وهو الاستدلال بحدوث الانسان وغيره من المحدثات التي يشهد حدوثها؛ فصار في كلامهم حق وباطل من جنس ما أحدثه أهل الكتاب، حيث لبسوا الحق بالباطل؛ واحتاجوا في ذلك الى كتمان الحق الذي جاء به الرسول الذي يخالف ما أحدثوه فصاروا يكرهون ظهور

ما جاء به الرسول بل يمتنعون عن قراءة الاحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه. ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه، والذين لا يقصدون على المنع من ذلك صاروا يقرأون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، بل ان اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم ممن يحرفون الكلم كالم الله عن مواضعه؛ والاصل العقلي الحسي الذي به فارقوا العقل والسمع هو حدوث ما يشهد حدوثه مثل حدوث الزرع والثمار؛ وحدث الانسان وغيره من الحيوان، وحدث السحاب والمطر ونحو ذلك من الاعيان القائمة بنفسها؛ غير حدوث الاعراض، كالحرارة، والبرودة والضوء، والظلمة وغير ذلك، بل تلك الاعيان التي يسمونها أجساما وجواهر، هي حادثة فانه معلوم ان الانسان مخلوق من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة، وان الثمار تخلق من الاشجار، وان الزرع تخلق من الحب، والشجر تخلق من النوى. قال تعالى (ان الله فالحق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون فالحق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا مترا كما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لايات لقوم يؤمنون. فهذا الانسان والشجر والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها. وهم يقولون انما هي من الجسم القائم بنفسه وهو الجوهر العام في اصطلاحهم الذى يقولون انه مركب من الجواهر المفردة. وهل الذى خلق من المادة هو اعيان أم لم يخلق الاعراض قائمة بغيرها، واما الاعيان فهي الجواهر المفردة وتلك منها شئ في هذه الحوادث ولكن أحدث فيها جمع وتفريق فكان خلق الأنسان وغيره هو تركيب تلك الجواهر وانحدت. هذا التركيب للاحداث تلك الجواهر. وأما حدوث تلك الجواهر فانما يعلم بالاستدلال فيستدل عليه بأن الجواهر التي تركبت منها هذه الأجسام لا تخلو من اجتماع وافتراق. والاجتماع والافتراق حادث ومالم يخل من الحوادث فهو حادث فهذا طريق هؤلاء

الجهمية اهل الكلام المحدث . وأما جمهور [١] العقلاء فيقولون بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها لا نقول انه لم يحدث الا عرض فان هذا القول يقتضى ان تلك الجواهر التي ركب منها آدم باقية لم يزل في كل آدمى منها شيء وهذا مكابرة فان بدن آدم لا يحتمل هذا كله لا يحتمل أن يكون فيه جواهر بعدد ذريته لاسيما وذل آدمى انما خالق من متى أبويه ، وهم يقولون تلك الجواهر التي في منى الابوين باقية بأعيانها في الولد ، وهم يقولون ان الجواهر لا تغنى بل تنتقل من حال الى حال ، وكثير منهم يقول انها مستغنية عن الرب بعد ان خلقها ، وتحيروا فيما اذا أراد أن ينفذها ، كيف ينفذها ؟ كما قد ذكر في غير هذا الموضع . اذ المقصود هنا التنبيه على أن أصل لاصول معرفة حدوث الشيء من الشيء كحدوث الانسان من المني ، فهو لاء ظنوا أنه لا يحدث الا الاعراض . ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبه الكبار

[١] قوله واما جمهور العقلاء فيقولون الخ يمكن توجيه هذا الالتزام الذي ذكره رحمه الله الى أولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين الذين يرون ما حكاه عنهم من ان الجواهر الفردة في الأصول والآباء تظل متقلة في الفروع والمواليد الى ما لا نهاية وهذا منتهى ما وصلت اليه عقول الخصمين من جميع الناس في هذه الاعصار وليس الأمر كما زعم هذا ولا هذا ولكن لا ينبغي ان يتهكم على ذلك الاغرار بسرد ما كشفته الطبيعة والكيمياء اليوم فلو كان ابن تيمية في هذا العصر لبرز أهل المشارق والمغارب في فلسفتهم الحاضرة بعقرته التي لا يستطيع التاريخ أن يعثر لها على نظير في الفلاسفة او المتكلمين ولو كان مثل دارون ونيوتن ووليم طمسون وديكارت وأضرابهم من أساطين الفلسفة الحاضرة في أيام ابن تيمية ما دانا احد منهم في عقلية الفلسفية ولكانوا عيالاً عليه . يوقن بذلك من عرف الرجل وخبره وطالع كتبه الكثيرة مطولة ومختصرة في مناقضة الفلاسفة والمتكلمين (هذا) وقد أثبتت علوم الطبيعة والكيمياء الآن أن جميع الأجسام مركبة من ذرات باقية تتحلل وتتركب وتخرج من هذا الجسم وتدخل في الآخر وأن الأجسام المغذية وهي مواليد الطبيعة الثلاثة الانسان والحيوان والنبات ليست لها شخصيات ثابتة بل هي دائمة التحليل والتركيب بالافراز والابتذاء حتى أن جسم الانسان يتجدد كله بعد بضعة سنين لا تبقى فيه ذرة مما كان قبل ذلك فذرات المادة باقية ثابتة هي موجودة قبل جميع المركبات ولا يحدث ولا يعدم الا الاعراض .

والصغار الطرق الدالة على اثبات الصانع لم يذكر طريقاً صحيحاً ، وليس في كتبه وكتب أمثاله طريق صحيح لاثبات الصانع ، بل عدلوا عن الطرق العقلية التي يعلمها العقلاء بفطرتهم ؛ وهي التي دلتهم عليها الرسل الى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقل ، لاسيما من سلك طريقة الوجوب والامكان متابعة لابن سينا كالرازي ، فان هؤلاء من أفسد الناس استدلالاً كما قد ذكرنا طرق عامة النظار في غير هذا الموضع : مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك .

والمقصود هنا أن الرازي ذكر ان ما يستدل به على اثبات الصانع ، اما حدوث الاجسام ، واما حدوث صفاتها ؛ واما امكانها ؛ واما امكان صفاتها . وذكر في بعض المواضع واما الاحكام والاتقان ؛ لكن الاحكام والاتقان يدل على العلم ابتداء ، والاستدلال بحدوث الاجسام وامكانها وامكان صفاتها طرق فاسدة ، فان دلالة حدوثها مبنية على امتناع حوادث لا أول لها ، ودلالة امكانها مبنية على ان ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لانه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها ؛ فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص ، وهذه كلها طرق باطلة ، قال وأما الاستدلال بحدوث الصفات فهو الاستدلال بحدوث الأعراض وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق مع انها قاصرة ، فان مدارها على انهم لم يعرفوا حدوث شيء من الاعدان ؛ وإنما علموا حدوث بعض الصفات ، وهذا يدل على انه لا بد لها من محدث . قال وهذا لا ينبغي كون المحدث جسماً بخلاف تلك الطرق ، وهذه الطريق تدل على أن الأعراض كتركيب الانسان لا بد له من مركب ولا ينبغي بها شيء من قدم الاجسام والجواهر ، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الانسان وغيره تديعة أزلية ، لكن حدثت فيها الاعراض ، ويجوز أن يكون المحدث للاعراض بعض اجسام العالم ؛ فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض اجسام العالم وتلك باطلة ؛ مع أن مضمونها ان الرب لا يتصف بشيء من الصفات ، فهي لا تدل على صانع وان دلت على صانع فليس بوجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم ، كما قد بسط في غير موضع . ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته (١) لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيته تشفى غليلاً ، ولا تروى غليلاً ؛ ورأيت أقرب الطرق

[١] ذكر هذا في كتابه نهاية العقول كما يأتي بوجهه بعد قريباً

طريقة القرآن ؛ أقرأ في الاثبات [اليه يصعد الكلم الطيب] ﴿١﴾ [الرحمن على العرش استوى] وقرأ في النفي [ليس كمثل شئ] ﴿٢﴾ [ولا يحيطون به علما] قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ﴿٣﴾

ولما ذكر الرازي الاستدلال بحدوث الصفات كالحيوان والنبات والمطر ؛ ذكر أن هذه طريقة القرآن ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الاستدلال بآيات الله كقوله [ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض آيات لقوم يعقلون] وهذا مذكور بعد قوله [والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم] وقبل قوله [ومن الناس من يتخذ من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله] ﴿٤﴾ لكن القرآن لم يذكر ان هذه صفات حادثة وانه ليس فيها احداث عين قائمة بنفسها ، بل القرآن يبين ان في خلق الاعدان القائمة بنفسها آيات ويذكر الآيات في خلق الاعدان والاعراض كقوله (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) وهي أعيان ثم قال [وما أنزل الله من السماء من ماء] والماء عين قائمة بنفسها. وقوله [فأحيا به الارض بعد موتها] هو بما يخلقه فيها من النبات وهو أعيان وكذلك قوله [وبث فيها من كل دابة] وقوله [وتصريف الرياح] فالرياح أعيان وتصريفها أعراض. وقوله [والسحاب المسخر بين السماء والارض] والسحاب أعيان [لا آيات لقوم يعقلون] وقد تقدم أن أصل الاشتباه في هذا ان خلق الشئ من مادة هل هو خلق عين أم احداث اجتماع وافتراق واعراض فقط والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال : فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر الى حد لا يتميز منها جانب عن جانب ، يقولون تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث ولكن تعتقب عليها الاعراض الحادثة والاستدلال بالاعراض على حدوث ما يلزمه من الجواهر ثم الاستدلال بذلك على المحدث غير الاستدلال بحدوث هذه الاعراض على المحدث لها ، فتلك هي طريقة الجهمية المشهورة وهي التي سلكها الاشعري في كتبه كلها متبعة للمعتزلة ولهذا قيل

الاشعرية مخاتيت معتزلة ، وأما الاستدلال بأحوادث على المحدث فهي الطريقة المعروفة لكل أحد ، لكن تسمية هذه أعراضاً هو تسمية القائلين بالجواهر الفرد ، مع أن الرازي توقف في آخر أمره فيه ؛ كما ذكر ذلك في نهاية العقول . وذكر أيضاً عن أبي الحسين البصري وأبا المعالي أنها توقفا فيه . والمقصود أن القائلين بالجواهر الفرد يقولون إنما أحدث أعراضاً كجمع الجواهر وتفريقها ، فالمادة التي هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها ولكن أحدث صوراً هي أعراض قائمة بهذه الجواهر ؛ وأما المتفلسفة فيقولون أحدث صوراً في مواد باقية كما يقول هؤلاء لكن يقولون أحدث صوراً هي جواهر في مادة هي جوهر وعندهم ثم مادة باقية بعينها والصور الجوهرية ، كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليها ؛ وهذه المادة عندهم جوهر عقلي ، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي ؛ ولكن الجسم مركب من المادة والصورة ، ولهذا قسموا الموجودات ؛ فقالوا إما أن يكون الموجود حالاً بغيره أو محلاً أو مركباً من الحال والمحل ، أو لا هذا ولا هذا ، فالحال في غيره هو الصورة ، والمحل هو المادة ؛ والمركب منها هو الجسم ؛ وما ليس كذلك ان كان متعلقاً بالجسم فهو النفس والا فهو العقل ، وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها ؛ إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً أنه لم يحدث جسماً قائماً بنفسه ، بل إنما أحدث صورة في مادة باقية ؛ ولا ريب أن الاجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق ؛ وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه ، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج ، كالعدد المجرد ؛ والسطح المجرد ، والنقطة المجردة ، وكالجسم التعليمي وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها ، فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه ؛ فهؤلاء جعلوا الاجسام مشتركة في جوهر عقلي ، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية ، وهؤلاء قالوا اذا خلق كل شيء من شيء قائماً أحدثت صورة مع أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة ، ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك عالم الكون والفساد ، ولهذا قال ابن رشد أن الاجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد بخلاف الفلك فإنه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة ؛ قال وإنما ذكر أنه مركب من هذا وهذا ابن سينا وهؤلاء تخبروا

في خلق الشيء من مادة كخلق الانسان من النطفة، والحب من الحب، والشجرة من النواة. وظنوا أن هذا لا يكون الا مع بقاء أصل تلك المادة، اما الجواهر عند قوم واما المادة المشتركة عند قوم. وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء فانه عندهم لم يحدث الا الصورة التي هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم، وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء، وقد ذكروا في قوله (أم خلقوا من غير شيء) ثلاثة أمور: قال ابن عباس والاكثرون أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي. وقال الزجاج وابن كيسان أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون كما يقول فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة وقيل أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم. ثم من هؤلاء من قال فهم كالجناد، ومنهم من قال كالسموات ظناً منه أنها خلقت من غير مادة. ذكر الاربعة أبو الفرج. وذكر البغوي الوجهين الاولين. والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر، وهو أن من قال المادة باقية بعينها وإنما حدث عرض أو صورة وذلك لم يخلق من غيره ولكن أحدث في المادة الباقية. فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء لان المادة عندهم لم تخلق، أما المتفلسفة فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها، وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة مازالت موجودة، لكن من قال انها حادثة من اهل الملل وغيرهم قالوا يستدل على حدوثها بالدليل لا أن خلقها معلوم للناس، فهو عندهم مما يستدل عليه بالادلة الدقيقة الحفية مع أن ما يذكرونه منتهاه الى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل فلا دليل عندهم على حدوثها، واذا كانت لم تخلق اذ خلق الانسان بل هي باقية في الانسان، والاعراض الحادثة لم تخلق من مادة، فاذا خلق الانسان لم يخلق من شيء لاجواهره ولا أعراضه. وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي، ولا خلق كل دابة من ماء، ولا خلق آدم من تراب، ولا ذريته من نطفة، بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة، وتلك الأعراض ليست من التراب؛ فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها باقية. اما الجواهر المنفردة واما المادة والحادث هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة وليس قولهم انه لم يخلق من مادة

معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء وانهم قصدوا بها تعظيم الخالق . بل الانسان لاريب انه جوهر قائم بنفسه، وعندهم ذلك القائم بنفسه مازال موجوداً لم يخلق اذ خلق الانسان والجوهر الحامل لصورته مازال موجوداً أيضاً فلم يخلق عند هؤلاء الا الاعراض، وعند هؤلاء الا صورة مجردة وكلاهما ليس هو الانسان بل صفة له أو صورة له هذا هو المخلوق عندهم يخلق الانسان فقط. وقد قال تعالى (أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم يك شيئاً) فقد أمر الانسان ان يتذكر ان الله خلقه ولم يك شيئاً، والانسان اذا تذكر انما يذكر انه خلق من نقطة. وعندهم ما زال جواهر الانسان شيئاً وذلك الشيء باق وانما حدث أعراض لتلك الأشياء. ومعلوم أن تلك الأعراض وحدها ليست هي الانسان فان الانسان مأمور منهي حتى عليم قد ير متكلم سميع بصير موصوف بالحركة والسكون وهذه صفات الجواهر والعرض لا يوصف بشيء لاسيما وهم يقولون العرض لا يبقى زمانين. فالمخلوق على قولهم لا يبقى زمانين بل يفنى عقب ما يخلق ولهذا اضطربوا في المعاد فان معرفة المعاد مبنية على معرفة المبدأ والبعث مبنى على الخلق فقال بعضهم هو تفريق تلك الاجزاء ثم جمعها وهي باقية بأعيانها. وقال بعضهم بل يدمها ويعدم الأعراض القائمة بها ثم يعيدها واذا أعادها فانه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية، الى أن حصلت في هذا الانسان، فلماذا اضطربوا لما قيل لهم فالانسان اذا أكله حيوان آخر فان أعيدت تلك الجواهر من الاول نقصت من الثاني وبالعكس. أما على قول من يقول انها تفرق ثم تجمع فقليل له تلك الجواهر ان جمعت للأكل نقصت من المأكول وان أعيدت للمأكول نقصت من المأكول. وأما الذي يقول تعدم ثم تعاد بأعيانها فقليل له أنعدم لما أكلها المأكول أم قبل أن يأكلها؟ فان كان بعد أن أكلها فانها تعاد في المأكول فينقص المأكول. وان كان قبل الأكل فالأكل لم يأكل الا اعراضاً، لم يأكل جواهر. فهذا مكابرة ثم أن المشهور أن الانسان يبلى ويصير تراباً كما خلق من تراب وبذلك أخبر الله فان قيل انه اذا صار تراباً عدمت تلك الجواهر فهو لما خلق من تراب عدمت أيضاً تلك الجواهر فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الاستحالات الا اذا صار تراباً تناقض بين ، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك. وكأن هذا الضلال أصل ضلالهم في تصور الخلق

الاول والنشأة الاولى التي أمرهم الرب أن يتذكروها ويستدلوا بها على قدرته على الثانية قال تعالى (أفأريتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الاولى فلو لا تذكرون) والفلاسفة أجود تصوراً في هذا الموضع حيث قالوا تفسد الصورة الاولى وهي جوهر وتحدث صورة اخرى ، فان هذا أجود من أن يقال يزول عرض ويحدث عرض . ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم أن هناك مادة باقية بعينها وإنما تفسد صورتها . والحق أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد وتستحيل وتنفى وتتلاشى وينشئ الله الثاني ويبتديه ويخلق من غير أن يبقى من الاول شيء لا مادة ولا صورة ولا جوهر ولا عرض . فاذا خلق الله الانسان من المني فالمني استحالة وصار علقية ، والعلقة استحالت وصارت مضغة ، والمضغة استحالت الى عظام وغير عظام . والانسان بعد أن خلق خلق كله جواهره وأعراضه وابتدأه الله ابتداء كما قال تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين) وقال تعالى (أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) فالانسان مخلوق خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية . ولفظ المادة مشترك . فالجمهور يريدون به ما منه خلق وهو أصله وعنصره ، وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق وهو محل للصورة الجوهرية ؛ فلم يخلق عندهم الانسان من مادة ، بل المادة باقية ، وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية كصورة الخاتم والسريير والثياب والبيوت وغير ذلك ، إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد ، لكن حولت من صفة الى صفة فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في ماهية باقية لم تفسد ، فيجعلون خلق الانسان بمنزلة عمل الخاتم والسريير والثوب . والمتفلسفة تقول أيضاً ان مادته باقية لم تفسد كمادة الصورة الصناعية ، لكن يقولون أنه أحدث صورة جوهرية وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية ، فانهم يسمون صورة الانسان صورة في مادة ، وصورة الخاتم صورة في مادة فيكون خلق الانسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد ويكون خلقه بمنزلة

تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم انه يستغنى عن الخالق بعد الخلق كما يستغنى الحائط عن البناء. والا شعرية عندهم أن البناء والحياط وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئاً. فان القدرة المحدثه عندهم لا تتعلق الا بما هو في محلها لا خارجا عن محلها. ويقولون ان تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله ليس للانسان فيها صنع، وخلق الله لها على أصلهم هو احدث أعراض فيها كما تقدم فينكرون ما يصنعه الانسان وهو في الحقيقة مثما يجعلونه مخلوقاً للرحمن وهم لا يشهدون للرحمن احدثاً ولا افناء بل انما يحدث عندهم الاعراض، وهي تفتى بانفسها لا بافنائها، وهي تفتى عقب احدثائها. وهذا لا يعقل وهم حارون اذا أراد أن يعدم الاجسام كيف يعدمها والمشهور عندهم أنها تعدم بأنفسها اذا لم يخلق لها اعراضاً. فالعرض يفتى عندهم بنفسه والجوهر يفتى بنفسه اذا لم يخلق له عرض بعد عرض، هذا في الافناء. وأما في الأحدث فانهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً للزم حدوث كل شيء من غير محدث. فحقيقة أصل أهل الكلام المتبعين للجهمية انه لا يحدث شيئاً ولا يفتى شيئاً بل يحدث كل شيء بنفسه ويفنى بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثاً أيضاً بلا محدث. وهذه الاصول هي أصول دينهم العقلية التي بها يعارضون الكتاب والسنة والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل ولا سمع، كما حكى الله عن من قال (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) والخلق يشهدون احدث الله لما يحدثه وافناءه لما يفنيه؛ كالمى الذى استحال وفى وتلاشى وأحدث منه هذا الانسان؛ وكالحبة التى فئت واستحالت وأحدث منها الزرع؛ وكالهواء الذى استحال وفى وحدث منه النار أو الماء، وكالنار التى استحالت وحدث منها الدخان، فهو سبحانه دائماً يحدث ما يحدثه ويكونه ويفنى ما يفنيه ويعدمه. والانسان اذا مات وصار تراباً فنى وعدمه؛ وكذلك سائر ما على الأرض كما قال (كل من عليها فان) ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلق خلقاً جديداً. ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى فعرفة الانسان بالخلق الأول وما يخلق من بنى آدم وغيرهم من الحيوان، وما يخلق من الشجر والنبات والثمار، وما يخلق من السحاب والمطر وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد، وان لم يعرف أن الله يخلق كله من المتى جواهره وأعراضه، والا فما عرف أن

الله خلقه. ومن ظن أن جواهره، لم يخلقها اذ خلقه بل جواهر المني وجواهر ماياً كله ويشربه باقية بعينها فيه لم يخلقها أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها اذ خلقه بل هي باقية أزلية أبدية لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث. والعلماء ينكرون على من يقول أن روح الانسان قديمة أزلية من المنتسبين الى الاسلام وهؤلاء الذين يقولون أن مادة جسمه باقية بعينها وهي أزلية أبدية أبعد عن العقل والنقل منهم ، وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا الانسان مركب من قديم ومحدث من لاهوت قديم وناسوت محدث. أو هؤلاء جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية وصورة محدثة ، وجعلوا القديم الأزلي فيه أخس ما فيه وهو المادة ، فانها عندهم أخس الموجودات وهي قديمة أزلية ، وأولئك جعلوا القديم الأزلي أشرف ما فيه وهي النفس الناطقة. وكلا الطائفتين وان كان ضالاً فالشريف العالى أولى بالقدم من الخسيس السافل وهذا أولى بالحدوث ❖

وأما المتكلمة الجهمية فهم لا يتصورون ما يشهدونه من حدوث هذه الجواهر في جواهر آخر من مادة ، ثم يدعون ان الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء ، وهم لم يعرفوا قط جوهرأ أحدث لا من شيء كما لم يعرفوا عرضاً أحدث لا في محل. وحقيقة قولهم ان الله لا يحدث شيئاً من شيء لا جوهرأ ولا عرضاً ، فان الجواهر كلها أحدثت لا من شيء والأعراض كذلك ❖

والمشهود المعلوم للناس (١) انما هو احداثه لما يحدثه من غيره لا احداثاً من غير مادة ، ولهذا قال تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) ولم يقل خلقتك لا من شيء

(١) قوله والمشهود الخ أطال في هذه المسألة وأسهب سابقاً ولاحقاً وأورد الزامات ونقوضاً عقلية ونقلية . وكل ذلك إنما يرد على هذه المسألة اذا كانت حقيقتها هي بحسب ما وصلت اليه مدارك أولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين فهذا أبدع النقوض عليهم وأعجبها . ولكن حقيقة هذه المسألة تجلت الآن على غير ذلك فان الكيمياء الآن بقسميها عضوية وغير عضوية تقوم بتحليل جميع الأجسام الى عناصرها التي تركبت منها بعملية دقيقة هي برهان حسي لا ريب فيه، بل تستطيع الكيمياء غير العضوية التي تعتمد الى العناصر البسيطة فتركب منها أجساماً جديدة ذات خواص وأوصاف غير خواص عناصرها وأوصافها ثم تحلل تلك الأجسام فتعيدها الى عناصرها ثانية وأماما ذكره من النصوص الثقلية فليست نصاً فيما أراد ولا تناقض ما كشفه العلم اليوم من أمر المسألة

وقال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء .
وقال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهذا هو القدرة التي تبهر العقول وهو أن
يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول وينفيه ويلاشيهِ ويحدث شيئاً آخر كما قال
(فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) ويخرج الشجرة الحية
والسنبلة الحية من النواة والحبة الميتة ويخرج النواة الميتة والحبة الميتة من الشجرة
والسنبلة الحية كما يخرج الانسان الحى من النطفة الميتة والنطفة الميتة من الانسان الحى
وعندهم لا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حى ؛ فان الحى والميت انما هو الجوهر
القائم بنفسه ، فان الحياة عرض لا يقوم الا بجوهر ، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر
وان كان العرض يوصف بأنه حى كما يقال قد أحييت العلم والايمان ، وأحييت الدين ،
وأحييت السنة والعدل ، كما يقال أمات البدعة . فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهرأً من
جوهر ولا عرضاً من عرض ؛ فلا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حى ، بل الجواهر
التي كانت في الميت هى بعينها باقية كما كانت ، ولكن أحدث فيها حياة لم تكن ، وتلك
الحياة لم تخرج من ميت ، فما اخرج عندهم حى من ميت ولا ميت من حى . ولهذا
ينكرون أن يقلب الله جنساً الى جنس آخر . ويقولون الجواهر كلها جنس واحد ، فاذا
خلق النطفة انساناً لم يقلب عندهم جنساً الى جنس ، بل نفس الجواهر هى باقية كما
كانت ؛ وخاصة الخلق انما هى بقلب جنس الى جنس وهذا لا يقدر عليه الا الله كما
قال تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن
يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف
الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز)
ولا ريب أن النحلة ما هى من جنس النواة ، ولا السنبلة من جنس الحبة ، ولا الانسان
من جنس المتى ؛ ولا المتى من جنس الانسان ، وهو يخرج هذا من هذا ؛ وهذا من
هذا ، فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته . وهذا خلق الله فأرونى
ماذا خلق الذين من دونه وهو سبحانه اذا جعل الابيض أسود أعدم ذلك البياض
وجعل موضعه السواد ، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيها وتلاشيها وتجعل منها
هذا المخلوق ، الجديد ويخلق الضد من ضده ؛ كما جعل من الشجر الأخضر ناراً فاذا

حك الاخضر بالاخضر سخن ما يسخنه بالحركة حتى ينقلب نفس الاخضر فيصير ناراً وعلی قولهم ما جعل فيه ناراً بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن . وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتنزع من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير توجل الليل في النهار وتوجل النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب) ولهذا قال للملائكة (اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وقال (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) ولهذا امتنع اللعين كما قال تعالى (واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً) وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون) وأيضاً فكون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء وأبعد عن مشابهة الربوبية ، فان الرب هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فليس له أصل وجد منه ولا فرع يحصل عنه فاذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له . واذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد ، واذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية ، فانه خرج من غيره ، ويخرج منه غيره ، لا سيما اذا كانت المادة التي خلق منها مهينة كما قال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقال تعالى (فبينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعته لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) وفي المسند عن بشر بن جحاش قال « بصق رسول الله ﷺ في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال يقول الله تعالى ابن آدم اني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلات مشيت بين بردين وللارض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أو ان الصدقة » وكذلك اذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الانسان في ظلمات ثلاث كان أبلغ في قدرة القادر ، وأدل على عبودية الانسان وذله لربه وحاجته اليه . وقد يقول المعير للرجل مالك أصل ولا فصل ولكن الانسان أصله التراب وفصله الماء المهيّن

ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة وقالوا انه ابن الله مع انه لم يخلق الا من مادة من أمه، ومن الروح التي نفخ فيها. كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال تعالى ايضا (فتمثل لها بشراً سوياً قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) قاله انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً) فما خلق من غير مادة تكون كالأب له قد يظن فيه انه ابن الله وأن الله خلقه من ذاته. فلهذا كانت الانبياء مخلوقة من مادة لها أصول ومنها فروع لها والد ومولود. والأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وحدث الشيء لا من مادة قد يشبه حدوثه من غير رب خالق وقد يظن انه حدث من ذات الرب كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة انها بنات الله لما لم يكن لها أب مع انها مخلوقة من مادة كما ثبت في الصحيح صحيح مسلم عن عائشة «ان النبي ﷺ قال خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم [١]»

ولما ظن طائفة انها لم تخلق من مادة ظنوا انها قديمة أزلية وايضا فالدليل الذي احتج به كثير من الناس على ان كل حادث لا يحدث الا من شيء أو في شيء فان كان عرضاً لا يحدث الا في محل وان كان عينا قائمة بنفسها لم تحدث الا من مادة فان الحادث انما يحدث اذا كان حدوثه ممكناً وكان يقبل الوجود والعدم فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه فلا بد له من محل يقوم به هذا الامكان والجواز وقد تنازعوا في هذا هل الامكان صفة خارجية لا بد لها من محل أو هي حكم عقلي لا يفتقر الى غير الذهن. والتحقيق انه نوعان: فالامكان الذهني وهو تجويز الشيء أو عدم العلم بامتناعه محله الذهن والامكان الخارجي المتعلق بالفاعل أو المحل مثل ان تقول يمكن القادر أن يفعل، والمحل مثل أن تقول هذه الأرض يمكن ان تزرع، وهذه المرأة يمكن ان تحبل، وهذا لا بد له من محل خارجي. فاذا قيل عن الرب يمكن أن يخلق فعناه أنه يقدر على ذلك ويتمكن منه، وهذه صفة قائمة به واذا قيل يمكن أن يحدث حادث، فان قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث فهو ممتنع، واذا كان الحدوث لا بد له من سبب حادث، فذاك السبب ان كان قائماً بذات الرب فذاته قديمة أزلية. واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئة أو تمام تمكن ونحو ذلك لا يكون الا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره، فلا يحدث حادث

[١] الجان الجن والمارج الذهب المختلط بسواد النار

مباين الأمسوقاً بجداث مباين له . فالحدث مسبقاً بامكانه ولا بد لامكانه من محل . ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئاً إلا من شيء . والذي يقول ان جنس الحوادث حدثت لا من شيء هو كقولهم انها حدثت بلا سبب حادث ، مع قولهم انها كانت متممة ثم صارت ممكنة من غير تجدد سبب . بل حقيقة قولهم ان الرب صار قادراً بعد أن لم يكن من غير تجدد شيء ، يوجب ذلك . وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم وهو بناء على قولهم انه تتمتع حوادث لا أول لها . وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع وأخبرت به الرسل كما غلطوا في المعقولات . فكل واحد مما يسمى شرعاً وعقلاً وسمعاً قد وقع فيه اشتباه . فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة ؛ هذا هو الشرع المنزل ، وهو الحق الذي ليس لاحد خلافه . ويطلق على ما يضيفه بعض الناس الى الشرع اما بالكذب والافتراء واما بالتأويل والغلط ، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب ، بل ولا يجوز اتباعه . وكذلك لفظ السنة فان السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ والسنة تذكر في الأصول والاعتقادات وتذكر في الأعمال والعبادات وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به . فما أخبر به وجب تصديقه فيه ، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه . ثم كثير من الناس يضيف الى السنة ما أدخله بعض الناس فيها اما بالكذب واما بالتأويل مثل أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة ، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل عليه . ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا الى السنة في بعض الأمور ، مثل اثبات الصفات والقدر ، فان المنتسبين لذلك يضافون الى السنة ، لان نفاة الصفات والقدر مبتدعة ، وكذلك حب الخلفاء الراشدين ومواليهم يضاف أهل السنة لان الطاعين فيهم أهل بدعة . ومثل الاستدلال بالنصوص على موارد النزاع فان أهل ذلك يضافون الى السنة لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث والمخالفون لذلك الذين يردون الاخبار الصحيحة او لا يحتجون بالقرآن مبتدعون . ثم قد يقول المضافون الى السنة أشياء ليست من السنة مثل أحاديث كثيرة يروونها في فضائل بعض الصحابة وهي كذب . ومثل نفى الحكمة والأسباب في مسائل القدر . ومثل كلامهم في الأجسام والأعراض وتناهي الحوادث ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول . فهذا ليس من السنة وان كان أهلها وافقوا

السنة في مواضع خالفهم فيها من تنازعهم في هذه المسائل ، فلا يجب اذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة أن يصيبوا حيث لم يوافقوها . وكذلك مسمى العقل فان مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية ، لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة ؛ بل وهو في نفس الأمر مخالف للعقول ، وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين ، وكلاما في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول والرأى والقياس والكلام والجدل ، فاذا رأى من يتكلم بهذا الجنس اعتقده مبتدعاً مبطلاً ، كما ان هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين الى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع وخالفوا فيها صريح المعقول ، وهم يقولون ان السنة جاءت بذلك صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الاصول بالشرع والسنة ويسمونهم حشوية وعامة ، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم . ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محمود ومذمومة ، وخالفوا مسمى العقل محمود ومذمومه . وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محمود ومذمومه وخالفوا مسمى الشرع محمود ومذمومه ، فيجب البيان والتفصيل والاستفسار وبيان الفرقان بين الحق والباطل فان ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنة الغراء وهو المعقول الحق ، وهو الكلام الصدق ، وهو الجدل بالتي هي احسن . ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة وليس منها . ورد ما سمى معقولا وهو باطل وسمى كلاماً صدقاً وهو كذب وسمى جدلاً بالتي هي أحسن وهو جدل ؛ لباطل بغير علم . ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه . من الدين ، وتحريف الكلم عن مواضعه . ومضاهاة لاهل الكتاب مما ذمهم الله عليه . والبخارى في أول كتاب خلق أفعال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم ۞

والتبديل نوعان : أحدهما أن يناقضوا خبره . والثاني أن يناقضوا أمره . فان الله بعثه بالهدى ودين الحق وهو صادق فيما أخبر به عن الله أمر بما أمر الله به كما قال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وأهل التبديل الذين يضيفون الى دينه وشرعه ما ليس منه ، وهم

أهل الشرع المبدل تارة يناقضونه في خبره فينفون ما أثبتته أو يشتون مانفاه كالجمية الذين ينفون ما أثبتته من صفات الله وأسمائه. والقدرية الذين ينفون ما أثبتته من قدر الله يومئذيه وخلقه وقدرته. والقدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبتته من عدل الله وحكمته ورحمته ، يشتون مانفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه وأمثال ذلك ، ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب ، ثم أنهم أيضاً يوجبون ما لم يوجب بل حرمه ، ويحرمون ما لم يحرمه بل أوجب ، فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره وموالاته أهلها ومعاداته من خالفها . ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أخذوه كما أوجبوا النظر في دليل الاعتراض الذي استدلوا به على حدوث الأجسام وقالوا يجب على كل مكلف أن ينظر فيه ليحصل له العلم بآثار الصانع . قالوا لأن معرفة الله واجبة ولا طريق إليها الا هذا النظر . وهذا الدليل ، ولما علم كثير من موافقيهم أن الاستدلال بهذا الدليل لم يوجب الرسول خالفوهم في إيجابهم مع موافقيهم لهم على صحته . والتحقيق ما عليه السلف انه ليس بواجب أمرا ولا هو صحيح خبراً بل هو باطل منتهى عن شرعا . فان الله تعالى لا يأمر بقول الكذب ، والباطل بل ينهى عن ذلك . لكن غلطوا حيث اعتقدوا انه حق وان الدين لا يقوم الا على هذا الاصل الذي أصلوه . كأن طوائف من أهل العبادة والزهد والارادة والمجبة والتصوف سلكوا طرقا ظنوا أنه لا يوصل الى الله الا بها . ثم منهم من يوجبها ويندم من لم يسلكها ومنهم من لم ير أن سلكها أفضل من غيرهم ويوسع الرحمة لانه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم انها طرق صحيحة موصلة الى رضوان الله ، وهي عند التحقيق طرق مضلة انما توصل الى رضى الشيطان وسخط الرحمن كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا ما دين المرسلين فهؤلاء في الاحوال البدعية وأولئك في الاقوال البدعية .

والقول الحق هو القرآن والحال الحق هو الايمان كما قال جندب وابن عمر تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازدنا ايمانا . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة طعمها مر ولا ريح لها» .

فالناس أربعة أصناف: صاحب قول قرآني وحال إيماني فهم أفضل الخلق، وصاحب قول قرآني وحال ليس بإيماني؛ وصاحب حال إيماني وليس له قول، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال إيماني وكثير من المنتسبين إلى القول والكلام والعلم والنظر والفقه والاستدلال ابتدعوا أقوالاً تخالف القرآن وكثير من المنتسبين إلى العمل والعبادة والإرادة والمحبة وحسن الخلق والمجاهدة ابتدعوا أحوالاً وأعمالاً تخالف الإيمان وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره وصار كثير من الطائفتين ينكر ما عليه الأخرى مطلقاً كما قالت اليهود ليست النصراني على شيء. وقالت النصراني ليست اليهود على شيء. وفي كل من الطائفتين شبه من أحد الأمتين في المنتسبين إلى العلم اذالم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود. وفي أهل العمل اذالم يوافقوا العمل الشرعي ويعملوا بعلم شبه من النصراني. وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله وأرادته كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف ينكر جنس العلم والكلام والنظر. وأولئك الذين أنكروا محبة الله وأرادته بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة والنافية وهو أن المحبة والإرادة والرضا والمشئة شيء واحد ولا يتعلق ذلك الابدعوم وهو ازيادة الفاعل أن يفعل مالم يكن فعله فاعتقدوا أن المحبة والإرادة لا تتعلق الابدعوم. فالوجود لا يحب ولا يراد والقديم الأزلي لا يحب ولا يراد، والباقي لا يحب ولا يراد فانكروا أن يكون الله محبوباً أو مراداً وهم لا ينكار كونه يحب وأبلغ وأبلغ فلا يثبتون الا مشيئته ان يخلق فقط وهي لا تتعلق الابدعوم فاما أن يحب موجوداً من خلقه فهذا باطل عند الطائفتين. لكن المجبرة يقولون محبته هي مشيئته وقد شاء خالق كل شيء فهو يحب كل شيء. والنافية يقولون محبته هي إرادته ائابة المطيعين وهي مشيئة خاصة والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين ان الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله (يحبهم ويحبونه) ومثل قوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) وقوله (قل ان كنتم تحبون الله فابعثوني بحسبكم الله) بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة الا الله وحده وهذا من معنى كونه معبوداً حيث جاء القرآن بالامر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيين إلى الله والتوايين إليه أو الوايين أو المظمتين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك. فهذا كله يتضمن محبته وما لا يحب تمتع كونه معبوداً وما لوها هو مطمئناً بذكره ومن اطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا ليس بمعبود ولا اله بل قديم

يكون الشخص كافراً وظالماً يفيض ويلعن ومع هذا يعمل معه عمل بموضع فمن جعل العمل لله لا يكون الا لذلك فلم يثبت الرب الهه معبوداً ولا رباً محموداً وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق لكنه لم يقل ان العابد لله والعامل له لا يحصل له الا ما ذكر بل وقد قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما أبلغتهم عليه اقرأوا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون [١] . » وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال « يقول الله يا أهل الجنة ان لكم عندي موعداً أريد ان أنجزكموه فيقولون ما هو ألم تنتضر وجوهنا وتقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجربنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه وهي الزيادة [٢] . » وفي الحديث الذي رواه النسائي لمصلحة عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي ﷺ « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم اني اسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر الى وجهك ، والشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بترنّة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وروى نحوه هذا من وجه آخر فقد أخبر الصادق المصدوق انه لم يعط أهل الجنة أحب اليهم من النظر اليه وسن أن يدعى بلذة النظر الى وجهه الكريم وأهل الجنة قد تنعموا

[١] قوله ذخراً منصوب متعلق بأعددت أي أعددت ذلك لهم مذكوراً وقوله بله هو بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الهاء معناه دع الذي اطلعت عليه ، وقيل معناه سوى أي سوى ما اطلعت عليه الذي ذكره الله في القرآن . قال الخطابي كأنه يريد به دع ما اطلعت عليه وانه سهل يسير في جنب ما اخترته لهم والله أعلم .

[٢] الزيادة يعني الواردة في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

من أنواع النعيم بال مخلوقات بما هو غاية النعيم ، فلما كان نظرهم اليه أحب اليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر اليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات . والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، فالذات أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر اليه واللذة تحصل بأدراك المحبوب فلو لم يكن أحب اليهم من كل شيء ما كان النظر اليه أحب اليهم من كل شيء وكانت لذته أعظم من كل لذة والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي اسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالحالق كما أن النار اسم لدار فيها أنواع الآلام لكن غلط من ظن أن التمتع بالنظر اليه ليس من نعيم أهل الجنة . وصار هؤلاء حزبين : حزباً أنكروا التمتع بالنظر اليه وهم المنكرون للمحبة حتى قال أبو المعالي ونحوه ممن ينكر محبته أنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر . وكذلك قال من شاركهم في التحم من أهل الوحدة كابن عربي قال ما لذ عارف بمشاهدة قط . وادعى أبو المعالي أن إنكار محبته من أسرار التوحيد ، وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة . وحكى عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم فقال له هب أن له وجهاً له وجه يلتذ بالنظر اليه . وهذا بناء على هذا الأصل فإنه وشيخه أبا يعلى ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوباً واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني ونحوه ممن ينكر محبة الله . وجعل القول بإثباتها قول الحلولية . والجواب الثاني أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن يسمى الجنة لا يدخل فيه النظر إلى الله ، وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته ، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام ، فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر اليه صاروا يستخفون بسمى الجنة ويقول أحدهم ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك . وهم غلطوا من وجهين : أحدهما أن ما يطلبونه من النظر اليه والتمتع يذكره ومشاهدته كل ذلك في الجنة . الثاني أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً أو ألقى في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة . ولهذا قال سمنون

..... وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فامتحنى

ابتلى بعسر البول فضار يطوف على المكاتب ويقول ادعوا السك الكذاب

وأبو سليمان لما قال قد أعطيت من الرضا نصيباً لو أنقاني في النار لكنت راضياً ذكر
 أنه ابتلى بمرض فقال إن لم يعافني والا كفرت أو نحو هذا والفضيل بن عياض ابتلى
 بعسر البول فقال بحبي لك إلا فرجت عني فبذل حبه في عسر البول فلا طاقة لمخلوق
 بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمة. وقد قال النبي ﷺ لرجل ما تدعو في صلاتك
 قال أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما أني لأحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال
 حولها ندندن. ودخل على اعرابي قد صار مثل الفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشيء
 قال كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال سبحان الله
 انك لا تستطيعه ولا تطيقه هلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
 عذاب النار والعنوان في الإرادة والعبادة والعمل حصل من اعراضهم عن العلم
 الشرعي واتباع الرسول وقد قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله)
 قال بعضهم ليس الشأن في أن تحبه الشأن في أن يكون هو يحبك وهو إنما يحب من
 اتبع الرسول والا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون انهم يحبونه وأولئك غلطوا بنفي
 محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة وقد قال تعالى (ومن
 الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)
 فالاقسام ثلاثة أولئك معطلة للمحبة وحقيقة قوهم تعطيل العبادة مطلقاً وهؤلاء
 مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة أولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود،
 وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى، وكل واحد من المستكبرين والمشركين
 ليسوا مسلمين بل الاسلام هو الاستسلام لله وحده. ولفظ الاسلام يتضمن الاسلام
 ويتضمن اخلاصه لله وقد ذكر ذلك غير واحد حتى أهل العربية كابي بكر ابن الانباري
 وغيره. ومن المفسرين من يجعلها قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي ان المسلم هو المستسلم
 لله وقيل هو المخلص. والتحقيق أن المسلم يجمع هذا وهذا فمن لم يستسلم له لم يكن مسلماً
 ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلماً، ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في
 القرآن (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) وقال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم
 حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وامره

ونبيه فيتناول فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا عصام بن وراد حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله [بلى من أسلم وجهه لله] يقول من أخلص لله قال ابن أبي حاتم وروى عن الربيع نحو ذلك وقال ذكر عن يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاه بن دينار عن سعيد بن جبير عن أسلم وجهه لله قال من أسلم أخلص وجهه قال دينه . وقال أبو الفرج أسلم بمعنى أخلص . وفي الوجه قولان أحدهما انه الدين والثاني العمل وقال البغوي من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله وأصل الاسلام الاستسلام والخضوع وخص الوجه لانه اذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه وهو محسن في عمله قيل مؤمن وقيل مخلص ثم قلت قول من قال خضع وتواضع لربه هو داخل في قول من قال أخلص دينه أو عمله أو عبادته لله فان هذا انما يكون اذا خضع له وتواضع له دون غيره فان العبادة والدين والعمل له لا يكون الا مع الخضوع له والتواضع وهو مستلزم لذلك ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الاسلام لله وحده فذكروا المعنيين الاستلزام وان يكون لله . وقول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله فان ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره واما ذكره التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع ؛ وتبين ان الله ذكر اسلام الوجه له و ذكر اقامة الوجه له في قوله [فأقم وجهك للدين] و ذكر توجيه الوجه له في قوله [انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض] لان الوجه انما يتوجه الى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فاذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً اليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان اسلام الوجه واقامته وتوجيهه مستلزماً لاسلام القلب واقامته وتوجيهه وذلك يستلزم اسلام كله لله وتوجيهه كله لله واقامة كله لله وبسط الكلام على ما يناسب ذلك [١]

وهذا حقيقة دين الاسلام، لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان : أحدهما ان المحبة تقتضى المناسبة ، قالوا وهي متفية فلا مناسبة بين المحدث والقديم فيقال لهم هذا كلام عجمل تعنون بالمناسبة الولادة أو المماثلة ونحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه فان الشيء ينسب إلى أصله بأنه ابن فلان وإلى فرعه بأنه أبو فلان وإلى نظيره بأنه مثل فلان ولما سأل المشركون النبي ﷺ عن نسب ربه أنزل الله تعالى [قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد] فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء . ولا له مثل فان غيتم هذا لم نسلم ان المحبة لا بد فيها من هذا . وان أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفا بمعنى يحبه الحب فهذا لازم للمحبة والرب متصف بكل صفة تحب وكل ما يجب فانما هو منه فهو أحق بالمحبة من كل محبوب وإذا كان الانسان يحب الملائكة وهم من غير جنسه لما اتصفوا به من الصفات الحميدة فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذي كلما اتصفت به الملائكة وغيرهم فهو من جوده وإحسانه وهو العزيز الرحيم اذ كان المخلوق كثيراً ما يتصف بالعزة دون الرحمة أو تكون فيه رحمة بلا عزة وهو سبحانه العزيز الرحيم الغفور الودود الحميد . والودود فعول من الود . وقال شعيب (ان ربي رحيم ودود) وقال تعالى (وهو الغفور الودود) فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع . قال أبو بكر ابن الانباري الودود معناه المحب لعباده من قولهم ووددت الرجل أوده وداً ووداً ويقال ووددت الرجل وداً ووداداً وودادة . وقال الخطابي هو اسم مأخوذ من الود وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فعولاً في محل مفعول كما قيل رجل هبوب بمعنى مهيب وفرس ركوب بمعنى مكوب . والله سبحانه وتعالى هو ودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من إحسانه اليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الوداء أي أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) قلت قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) فسروها بأنه يحبهم ويحبهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « اذا أحب الله العبد نادى يا جبريل اني أحب فلانا فأجبه فيجبه جبريل ثم ينادى في السماء ان الله يحب فلانا فأجبه فيجبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض » وقال في البغض مثل ذلك . وقال عبد بن حميد انبأ عبيد الله بن موسى عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

(سيجعل لهم الرحمن ودا) قال يحبهم ويحبهم. ورواه ابن أبي حاتم ايضاً وقال عبد اخبرني شباية عن ورقاء عن ابن ابي نجيح عن مجاهد [سيجعل لهم الرحمن ودا] قال يحبهم ويحبهم الى المؤمنين . أخبرنا عبد الرازق عن الثوري عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس [سيجعل لهم الرحمن ودا] قال محبة وهذا فيه اثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله [سيجعل لهم الرحمن ودا] وهو نظير قوله [قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله] فهو يحبهم اذا اتبعوا الرسول ونظير قوله في الحديث الصحيح «ولا يزال عبيد يتقرب الى بالتواقل حتى احبه فاذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» وكذلك قوله واحسنوا ان الله يحب المحسنين ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ان الله يحب المتقين ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وهذه الآيات وأشباهها تقتضي ان الله يحب أصحاب هذه الاعمال فهو يحب التوابين وانما يكونون توابين بعد الذنب ففي هذه الحال يحبهم وهذا مبني على الصفات الاختيارية فنفاها رد هذا كله ولهم قولان : احدها ان المحبة قديمة فهو يحبهم في الازل اذا علم انهم يموتون على حال مرضية ويقولون ان الله يحب الكفار في حال كفرهم اذا علم انهم يموتون على الايمان وبنقض المؤمن اذا علم انه يرتد هذا قول ابن كلاب ومن تبعه . ثم منهم من يفسر المحبة بالارادة . ومنهم من يقول هي صفة زائدة على الارادة . والقول الثاني يجعلون هذا من باب الفعل فالمحبة عندهم احسانه اليهم والاحسان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنه والكتاب والسنة واقوال السلف والأئمة والادلة العقلية انما تدل على القول الاول كما قد بسط في غير هذا الموضع . اذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود والاكثر على ما ذكره ابن الانباري وانه فعول بمعنى فاعل أي هو الوداد كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم قال ابن ابي حاتم حدثنا ابي ثنا عيسى بن جعفر قاضي الري ثنا سفيان في قوله ان ربي رحيم وودود قال محب وقال قرئ على يونس ثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد قوله الودود قال الرحيم وقد ذكر فيه قولين : القول الاول رواه من تفسير الوالي عن ابن عباس قوله الودود قال الحبيب . والثاني قول ابن زيد الرحيم . وما ذكره الوالي انه الحبيب قد يراد به المعنيان انه يحب ويحب فان الله يحب من يحبه واولياؤه يحبهم ويحبونه

والبغوى ذكر الامرين فقال وللودود معنيان ان يحب المؤمنين وقيل هو بمعنى المودود اى محبوب المؤمنين. وقال أيضاً في قوله (وهو الغفور الودود) اى المحب لهم وقيل معناه المودود كالخلوب والركوب بمعنى المحبوب والمركوب وقيل يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد الى أوليائه بالمغفرة قلت هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ «تزوجوا الودود الولود» وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور واما بمعنى مفعول فقليل وأيضاً فان سياق القرآن يدل على أنه صح أراد أنه هو الذى يود عبادَه كما أنه هو الذى يرحمهم ويغفر لهم فان شعيباً قال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم وودود فذكر رحمة ووده كما قال تعالى [وجعل بينكم مودة ورحمة] وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه وودوداً كما قال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غيوجه عن النبي ﷺ «أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بارض دوية (١) مهلكة ثم وجدها بعد اليأس» فهذا الفرحة منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الاخرى [وهو الغفور الودود] فانه مثل قوله [وهو الغفور الرحيم] وأيضاً فان كونه مودوداً أى محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذى يتبين اختصاصه به مثل اسم الاله فان الاله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذى الجلال والاكرام ونحو ذلك وكونه مودوداً ليس بعجيب وانما العجب جوده واحسانه فانه يتودد الى عبادَه كما جاء في الاثر «يا عبدى كم أتودد اليك بالنعم وأنت تتمقت الى بالمعاصي ولا يزال ملك كريم يصعد الى منك بعمل سىء» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله تعالى «من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعاً ومن تقرب منى ذراعاً تقربت اليه باعاً ومن أتانى يمشى أتيتته هرولة» وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذى يقبل على من أعرض عنه والمنان الذى يجود بالنوال قبل السؤال وأيضاً فبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين كما قال الواحى عن ابن عباس أنه الحبيب وذلك أنه اذا كان يود عبادَه فهو مستحق لان يوده العباد بالضرورة. ولهذا من قال انه يحب المؤمنين قال انهم محبوبونه فان كثيراً من الناس يقول انه محبوب وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً لكن محبته بمعنى مشيئته العامة ومن الناس من قال انه لا يحب مع أنه ثبت محبته للمؤمنين فالقسمة في المحبة

(١) رواه مسلم وهى منسوبة الى الدود وهو الصحراء

رباعية فالسلف وأهل المعرفة اثبتوا النوعين قالوا انه يجب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الامرين ومن الناس من قال انه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء ومنهم من عكس فقال بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون انه يرحم ولا يرحم فاذا قيل ان الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس فالصواب القطع بان الودود هو الذي يود وان كان ذلك متضمناً لانه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بلا كسر هو مثل المادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالنحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة اذ اوجدها بعد اليأس وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) قال يحبهم ويحبهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادى بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلانا فأجابوه وبسط هذا له موضع آخر .

وفي مناجاة بعض الداعين ليس العجب من حبي لك مع حاجتي اليك العجب من حبك لي مع غناك عني . وفي أثر آخر يا عبادي وحق أني لك محب فبحق عليك كن لي محبا . وروى ياد اود حبيني الى عبادي وحبي عبادي الى مرهم بطاعتي فأحبهم وذكرهم آلائي فيحبوني فاتهم لا يعرفون مني الا الحسن الجميل وهو سبحانه كما قال كلما خلقه فانه من نعمه على عباده ولهذا يقول (فبأي آلاء ربك تكذبان) والخير بيديه لا يأتي بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو ولا حول ولا قوة الا به ولا ملجأ ولا منجى منه الا اليه ووده سبحانه هو لمن تاب اليه وأتاب اليه كما قال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) وقال (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حرم مستغفرة فانه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين ولهذا قال شعيب (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان

ربي رحيم ودود) وقال هنا (وهو الغفور الودود) فذكر الودود في الموضوعين لبيان مودته للمذنب اذا تاب اليه بخلاف القاسى الجافى الغليظ الذى لاود فيه .

والحجة الثانية لهم قالوا ان الارادة والمجة لاتتعلق الابعدوم يراد فعله فانه لوجاز ان يراد الموجود وان يراد القديم لجاز أن يكون العالم قديما مع كونه مرادا مقدورا كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة فان القائلين انه موجب بذاته والعالم قديم منهم من يصفه بالارادة كأبي البركات وغيره قالوا ومن المع لوم بالاضطرار للعقلاء اذ قالوا هذا الامر حصل بالارادة أن يكون محدثا كائنا بعد ان لم يكن ولهذا لايجوز أن يقال ان قدرته ومشيتته تعلقت بوجوده ولا ببقائه ولا بكونه حيا ومن قال ان صفاته قديمة الاعيان لا يقول ان كلامه وارادته حصلت بارادته وقدرته فيقال هذا الذى قالوه صحيح لكن هنا نوعان أحدهما ارادة أن يفعل الشئ ويكون فهذه لاتكون الا مع حدوثه والثانية محبة نفس ذاته من غير أن يفعل في الذات شئ فهذه التى تتعلق بالموجود والباقي والقديم وارادة الفعل تابعة لهذه فانه لولا أن تكون الارادة متعلقة بنفس الشئ الموجود امتنع أن يراد ايجاده فان من أراد أن يبنى بيتا ليسكنه انما مراده نفس البيت لسكناء والانتفاع وانما البناء وسيلة الى ذلك ولولا ارادة الغاية المقصودة بالذات لم ترد الوسيلة واذا بناء فهو مرید له بعد البناء ولهذا يكره خرابه وزواله وكذلك من أراد أن يلبس ثوبا فلبسه فهو في حال اللبس مرید له فمن أراد احداث أمر وفعله كانت ارادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائية والفعل المطلوب لغاية لفاعله ارادتان ارادة الفعل وارادة الغاية وهذه هي الاصل وتلك تبع لهذه والارادة ارادة لاتتعلق بالمعدوم من جهة كونه معدوما بل تتعلق بوجود الفعل لكن يمتنع أن يراد فعله الا اذا كان معدوما فالعدم شرط في ارادة فعله ولهذا جعل من جهة علل الفعل ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث وكل ماأريد أن يفعل فانه يكون حادثا وكل ما تعلق المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث ثم من الناس من يقول هذا مختص بكونه مفعولا بالاختيار والاذا كان معلولا لعلة موجبة لم يلزم حدوثه وهو غلط بل ما فعل فلا يكون الا محدثا سواء كان ذلك ممكنا أو ممتنعا بل نفس كونه مفعولا مستلزم حدوثه ونفس تصور العلم بكونه مفعولا يوجب العلم بحدوثه وان لم يخطر بالبال كونه

مفعولاً بالقدره والاختيار ثم قد يقال ما من مفعول إلا وهو مفعول بالاختيار والقدير
إذا قدر فاعلاً بلا مشيئة كان ذلك ممتنعاً والموجب بالذات إذا قيل هو موجب بذاته
المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاء وهذا حق وهو مستلزم لكونه فاعلاً بمشيئته وقدرته
وأما موجب بلا مشيئة أو موجب يقارنه موجب فهذان باطلان وبها ضل من ضل
من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك ونفى الصفات ولكن من أراد أحداث شيء وأحدثه
لم يجب أن تنقطع ارادته بل قد يكون مريداً له مادام موجوداً ولولا أنه مريد لوجوده
لما فعله فكلما شاء الرب وجوده فهو مريد لأحداثه وبقائه مادام باقياً وأما الإرادة
والحجة المتعلقة بالقديم فليست إرادة فعل فيه بل هي حجة ذاته وكل إرادة وحجة فلا بد
أن تنتهي إلى محبوب لذاته وكل فاعل بالإرادة فأرادته تستلزم حجة عامة لأجلها فعل
فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه ومن لوازم حبه نفسه
أنها حجة مريدة لما يريد أن يفعل وما أراد فعله فهو يريد له غاية يحبها فالحب
هو العلة الغائية التي لأجله كان كل شيء والمتفلسفة يصفونه بالابتهاج والفرح كما
جاءت به النصوص النبوية لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور
الالهية فانهم يقولون اللذة ادراك الملائم من حيث هو ملائم وهو مدرك لذاته بأفضل
ادراك فهو أفضل مدرك لأفضل مدرك بأفضل ادراك وقد قصرنا في ذلك من ثلاثة
أوجه . أحدها أن اللذة والفرح والسرور والبهجة ليس هو مجرد الادراك بل هو
حاصل عقب الادراك فالادراك موجب له ولا بد في وجوده من حجة فهو ثلاثة
أمور حجة وادراك المحبوب ولذة تحصل بالادراك وهذا في اللذات الدنيوية الحسية
وغيرها فإن الإنسان يشتهي الخلو ويحبها فإذا ذاقه التذبدوقه والذوق هو الادراك وكذلك
في لذات قلبه يحب الله فإنه إذا ذكره وصلى له وجد حلاوة ذلك كما قال صلى الله
عليه وسلم « جعلت قرّة عيني في الصلاة » وأهل الجنة إذا تجلّى لهم فنظروا إليه قال فما
أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه والله أعلم *



فصل

في تمام القول في محبة الله

وانقسام المراد الى ما يراد لذاته والى ما يراد لغيره

ثم ذلك الغير لابد أن يكون مراداً لذاته فالمراد لذاته لازم لجنس الارادة والارادة لازمة لجنس الحركة فان الحركة القسرية مستلزمة للحركة الارادية والحركة الارادية مستلزمة لمراد لذاته فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزماً لمراد لذاته وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته وهو الله لا اله الا هو فلو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره وهو الممترك فانه كما قال الله تعالى (فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فان قوام الشيء بطبيعته الخاصة به فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الارادية وقوامها بالمراد لذاته فاذا لم يكن حركتها لارادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى ، ولهذا يهوى في الهاوية وهو ذنب لا يغفر ، لانه فسد الاصل كالمرض الذي فسد قلبه لا ينفع مع ذلك اصلاح اعضائه ، ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به فيكون الله هو المراد ودعاء المسألة يكون المراد منه [١] كما في قول المصلي اياك نعبد واياك نستعين فالعبادة ارادته والاستعانة وسيلة الى العبادة ارادة المقصود و ارادة الاستعانة ارادة الوسيلة الى المقصود ولهذا قدم قوله اياك نعبد وان كانت لا تحصل الا بالاستعانة فان العلة انما هي مقدمة في التصور والقصد وان كانت مؤخرة في الوجود والحصول وهذا انما يكون لكونه هو المحبوب لذاته لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به فيعبر عنها باللفظ الانابة والعبادة ونحو ذلك اذ كان لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة فلا يرضى لله بالقدر المشترك بل اذا ذكر من يحب غير الله ، قال تعالى [والذين آمنوا أشد حبا لله] واذا

[١] الجار والمجرور خبر يكون والضمير عائد لله

ذكر محبتهم لربهم ذكرت محبته لهم وجهادهم كما في قوله (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) وفي مثل قوله (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى [ألا بذكر الله تطمئن القلوب] فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى إذا ذكر وجلت فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نفسيها منه . فالوجل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان والافئس ذكر الله يوجب الطمأنينة لأنه هو المعبود لذاته والخير كله منه قال تعالى (نبي عبادي إني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقال تعالى (اعلموا أن الله شديد العقاب وإن الله غفور رحيم) وقال على رضى الله عنه « لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن عبد إلا ذنبه » فالخوف الذي يحصل عند ذكره هو بسبب من العبد والأفد ذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمان فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك كما قال ذلك المريض الذي سئل كيف تجددك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي ﷺ « ما اجتمع في قلب عبد في مثل هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » ولم يقل بذكر الله توجل القلوب كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب بل قال إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ثم قال وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته وأنه سبحانه حسب من توكل عليه يهديه وينصره ويرزقه بفضلته ورحمته وجوده فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه والاكتفاء به عما سواه وكذلك قال في الآية الأخرى [فإلهم الله واحداً فله أسلموا وبشر المحبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون] فهم محبتون والمحبت المطمئن الخاضع لله والأرض المحبت (١) روى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي عن الثوري عن ابن أبي نجيح وبشر المحبتين قال المطمئنين وعن الضحاك المتواضعين فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل وكما قال في وصف القرآن تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم

ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله فذكر أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله فذكره بالذات يوجب الطمأنينة وانما الاقشعرار والوجل غارض بسبب ما في نفس الانسان من التقصير في حقه والتعدي لحده فهو كالزبد مع ما ينفع الناس الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يكثر في الارض فالخوف مطلوب لغيره ليدعو النفس الى فعل الواجب وترك المحرم واما الطمأنينة بذكره وفرح القلب به ومحبة فطوب لذاته ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كايهمون النفس. والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة: حسية ووهمية وعقلية. والحسية في الدنيا غايتها دفع الالم والوهمية خيالات واضحات واللذة الحقيقية هي العلم فجعلوا جنس العلم غاية وغلطوا من وجوه احدها ان العلم بحسب المعلوم فاذا كان المعلوم محبوبا تكمل النفس بحبه كان العلم به كذلك وان كان مكروها كان العلم به لحذره ودفع ضرره كالعلم بما يضر الانسان من شياطين الانس والجن فلم يكن المقصود نفس العلم بل المعلوم ولهذا قد يقولون سعادتها في العلم بالامور الباقية وانما تبقى بقاء معلومها ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس امور باقية وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس. وابو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير الى هذا فان كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة فيه فلسفة مشوبة باسلام واسلام مشوب بفلسفة ولهذا كان في كبه كالا حياء وغيره يجعل المعلوم بالاعمال والاعمال كلها انما غايتها هو العلم فقط وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة وكان يعظم الزهد جدا ويعتني به أعظم من اعتناؤه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه فان هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده وترك محبة المخلوق مطلقا الا اذا أحبه الله فيكون داخلا في محبة الله بخلاف من يحبه مع الله فان هذا شرك وهؤلاء المتفلسفة انما يعظمون تجريد النفس عن الهوى وهي المادة وهي البدن وهو الزهد في أغراض البدن وهو الزهد في الدنيا وهذا ليس فيه الاتجريد النفس عن الاشتغال بهذا فتبقى النفس فارغة فيلقى اليها الشيطان ما يلقيه ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق وغاياته وجود مطلق هو في الاذهان لا في الالعيان ولهذا جعل أبو حامد السلوك الى الله ثلاثة منازل بمنزلة السلوك الى مكة فان السالك اليها له ثلاثة أصناف من الشغل الاول تهيئة الأسباب كشراء الزاد والراحلة وخرز الراوية والآ خر السلوك ومفارقة الوطن

بالتوجه الى الكعبة منزلا بعد منزل والثالث الاشتغال بأركان الحج ركننا بعد ركن ثم بعد النزوع عن لبسة الاحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة قال فالعلوم ثلاثة قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبة الشاخنة التي عجز عنها الاولون والآخرون الا الموفقون قال فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغني علم المنازل وطريق البوادي دون سلوكها فكذا لا يغني علم تهذيب الاخلاق دون مباشرة التهذيب لكن المباشرة دون العلم غير ممكن قل وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج واركانه وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وافعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة قال وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق اذا كان غرضه المقصد وهو السلامة واما الفوز بالسعادة فلا يتأهلها الا العارفون فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح والريحان وجنة ونعيم واما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم واما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين قال وكل من لم يتوجه الى المقصد او انتهض الى جهة لا على قصد الامثال بالامر والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حيم وتصلية جحيم قال واعلم انه هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراشخين في العلم اعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الابصار وترقوا فيه عن حجب التقليد الى الاستبصار . قلت وكلامه من هذا الجنس كثير ومن لم يعرف حقيقة مقصده يهوله مثل هذا الكلام لان صاحبه يتكلم بحبرة ومعرفة بما يقوله لا بمجرد تقليد لغيره لكن الشأن فيما خبره هل هو حق مطابق ومن سلك مسالك المتكلمين الجهمية والفلاسفة ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بحث به رسوله وانزل به كنه بل ولا بحقائق الامور عقلا وكشفا فان هذا الكلام غايته . وأما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا به فانه يعلم غاية مثل هذا الكلام وانه انما ينتهي الى تعطيل ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال كلام أبي حامد يشوقك فتسير خلفه وهو يشوقك فتسير خلفه منزلا بعد منزل فاذا هو ينتهي الى لا شيء

وهذا الذي جعله هنا الغاية وهو معرفة الله وصفاته وأفعاله وملائكته قد ذكره في المضمون
 به على غير أهله وهو فلسفة محضة قول المشركين من العرب خير منه دع قول اليهود والنصارى
 بل قوم نوح وهود وصالح ونحوهم كانوا يقولون بالله وبملائكته وصفاته وأفعاله خير أم هؤلاء
 لكن لم يقولوا بعبادته وحده لا شريك له ولا بأنه أرسل رسولا من البشر وهذا حقيقة قول
 هؤلاء فانهم لا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ولا يثبتون حقيقة الرسالة بل
 النبوة عندهم فيض من جنس المنامات وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا
 الجنس فان هذا الجنس موجود لجميع بني آدم ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم انهم
 كانوا يقولون بالملائكة كما قال [فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد
 يوشود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا
 لانزل ملائكة] وقال قوم نوح [ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء
 الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الاولى] بل فرعون قال لموسى [أم أنا خير
 من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلو لا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه
 الملائكة مقترنين فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين] والعبادات كلها
 عندهم مقصودها تهذيب الاخلاق والشرعية سياسة مدنية والعلم الذي يدعون الوصول
 اليه لا حقيقة لمعلومه في الخارج والله أرسل رسوله بالاسلام والايان بعبادة الله وحده
 وتصديق الرسول فيما أخبر فالاعمال عبادة الله والعلوم تصديق الرسول وكان النبي
 ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الاخلاص وتارة (قولوا آمنا بالله وما أنزل
 اليه) الآية فانها تتضمن الايمان والاسلام وبالإضافة من آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا
 إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) والذين سلكوا خلف أبي حامد أو ضاهوه في السلوك كابن
 سبعين وابن عربي صرحوا بحقيقة ما وصلوا اليه وهو أن الوجود واحد وعلموا أن
 أبي حامد لا يوافقهم على هذا فاستضعفوه ونسبوه إلى أنه عقيد بالشرع والعقل وأبو حامد
 يبين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة
 مما يخالف دين الاسلام والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الاسلام وعلى كونه لم ينسلخ
 عنه بالكلية إلى قول الفلاسفة ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه

يوماً يمان اذا ما جئت ذا يمن وان لقيت معدياً فعدنان
وأبونصر القشيري وغيره ذموه على الفلسفة وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة يقولون فيها
برثنا الى الله من معشر بهم مرض من كتاب الشفا [١]
وكم قلت يا قوم أنتم على شفا حفرة ما لها من شفا
فلما استهانوا بهزيفنا رجنا الى الله حتى كفا
فأتوا على دين برسطالس وعشنا على سنة المصطفى

ولهذا كانوا يقولون أبوحامد قد أمرضه الشفاء وكذلك الطرطوسي والمازري وابن عقيل
وأبو البيان وابن حمدين ورفيق أبي حامد أبو نصر المرغيناني وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في
ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير ولهذا الماسك خلفه ابن عربي
وابن سبعين كان ابن سبعين في كتاب اليد وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب
في كلام أبي حامد ويجعل المراتب خمسة : أدناها الفقيه ثم المتكلم ثم الفيلسوف ثم الصوفي
الفيلسوف وهو السالك ثم المحقق. وابن عربي له أربع عقائد : الأولى عقيدة أبي المعالي
وإتباعه مجردة عن حجة. والثانية تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة عقيدة
الفلاسفة ابن سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن. والرابعة التحقيق الذي
وصل اليه وهو أن الوجود واحد وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره
أبو حامد في ميزان العمل وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد عقيدة مع العوام يعيش بها
في الدنيا كالفقه مثلاً. وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام. والثالثة لا يطلع عليه
أحد إلا الخواص ، ولهذا صنف الكتب المضمون بها على غير أهلها وهي فلسفة مخفية
سلك فيها مسلك ابن سينا. ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلسفية الى أمور
أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع منها الرد على
ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك فانه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة
وكنت لما دخلت الى مصر بسبيهم ثم صرت في الاسكندرية جاءني من فضلائهم من
يعرف حقيقة أمرهم وقال ان كنت تشرح لنا كلام هؤلاء وتبين مقصودهم ثم تبطله
والا فنحن لانقبل منك كما لانقبل من غيرك فان هؤلاء لا يفهمون كلامهم فقلت نعم أنا

أشرح لك ما شئت من كلامهم مثل كتاب اليد والاحاطة لابن سيعين وغير ذلك فقال لي لا ولكن لوح الاصلة فان هذا يعرفون وهو في رءوسهم غفلت له هاته فلما أحضره شرحت له شرحاً بيناً حتى تبين له حقيقة الامر ، وان هؤلاء ينتهي أمرهم الى الوجود المطلق فقال هذا حق وذكر لي انه تناظر اثنان متفلسف سيعني ومتكلم على مذهب ابن التومرت فقال ذاك نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق فقال الآخر ونحن كذلك اعلمنا قلت له والمطلق في الازهان لا في الاعيان فتبين له ذلك وأخذ يصف في الرد عليهم ولم أكن أظن ابن التومرت يقول بالوجود المطلق حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط فوجدته كذلك . وأنه كان يقول الحق حقان : الحق المقيد والحق المطلق وهو الرب وتبينت انه لا يثبت شيئاً من الصفات ولا ما يتميز به موجودة عن موجود فان ذلك يقيد شيئاً من الاطلاق وسألتني هذا عما يحتجون به من الحديث مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل ، ومثل حديث كنت كنزاً لا أعرف فأجبت أن أعرف وغير ذلك فكتبت له جواباً مبسوطاً وذكرت ان هذه الاحاديث موضوعة وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا وقد نقلوه اما من رسائل احوان الصفا أو من كلام أبي حيان التوحيدى أو من نحو ذلك وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس الباطنية الاسماعيلية لكن أولئك يتظاهرون بالتشيع والرفض وهؤلاء غالبيتهم يميلون الى التشيع ويفضلون علياً ومنهم من يفضل به بالعلم الباطن ويفضل أبا بكر في العلم الظاهر كأبي الحسن الحرلى [١] وفيه نوع من مذهب الباطنية الاسماعيلية لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء ولا اظنه يفضل غير الأنبياء عليهم فهو أنبل من هؤلاء من وجه لكنه ضعيف المعرفة بالحديث والسير وكلام الصحابة والتابعين فينبى له أصولاً على أحاديث موضوعة ويخرج كلامه من تصوف وعقليات وحقائق وهو خير من هؤلاء وفي كلامه اشياء حسنة صحيحة واشياء كثيرة باطلة والله سبحانه وتعالى اعلم ^{بالتاني} الثاني أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لا في مجرد علم ليس فيه ذلك وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به وهذا ضلال عظيم فان جنس التشبه يكون بين اثنين مقصودهما واحد كالامام والمؤتم به

وليس الأمر هنا كذلك بل الرب هو معبود لذاته وهو يعرف نفسه ويحب نفسه ويثني على نفسه والمبدنجاته وسعاده في أن يعرف ربه ويحبه ويثني عليه والتشبه به أن يكون هو محبوباً لنفسه مثلياً بنفسه على نفسه وهذا فساد في حقه وضار به والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركي العرب فإنه ليس الرب عندهم لا رب العالمين وخالقهم ولا الههم ومعبودهم. ومشركو العرب كانوا يقولون بأنه خالق كل شيء وما سواه مخلوق له محدث وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع. والوجه الثالث أنهم يظنون أن ما عندهم هو علم بالله وليس كذلك بل هو جهل. والرازي لما شاركهم في بعض أمورهم صار حاراً معترفاً بذلك لما ذكر أقسام الذات وأن اللذة العقلية هي الحق وهي لذة العلم وأن شرف العلم بشرف المعلوم وهو الرب وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والأفعال. قال وعلى كل مقام عقدة فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات هل هو زائد عليها أم لا؟ وفي الصفات هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وفي الأفعال هل الفعل مقارن أم لا؟ ثم قال ومن الذي وصل إلى هذا الطلب أو من الذي ذاق من هذا الشراب

نهاية اقدام العقول عقال ✽ وأكثر سعي العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسوننا ✽ وغاية دينانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ✽ سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عيلاً ولا تروي غليلاً ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات الرحمن على العرش استوى اليه يصعد الكلم الطيب واقرأ في النفي ليس كمنه شيء ولا يحيطون به علماً ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب اليه ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود ولا يحتاج بالعلم عن المعلوم كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له اخلصت اربعين صباحاً فلم يتفجر لي شيء فقال يابني أنت اخلصت للحكمة لم يكن الله هو مرادك والاخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه كما في حديث مكحول عن النبي ﷺ «من أخلص لله اربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ولهذا تقول العامة قيمة كل امرئ بما يحسن والعارفون

يقولون قيمة كل امرئ ما يطلب وفي الاسرائيليات يقول الله تعالى «أني لا انظر الى كلام الحكيم وإنما انظر الى همته» فالنفس لها قوة الارادة مع الشعور وهما متلازمان وهؤلاء لخطوا شعورها واعرضوا عن ارادتها وهي تتقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به فانها تشعر بالخير والشر والنافع والضار ولكن لا يجوز ان يكون مرادها ومحبوبها الا ما يصلحها وينفعها وهو الاله المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره وهو الله لا اله الا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ثم مع هذا يكون العلم حقا وهو ما اخبرت به الرسل فالعلم الحق هو ما اخبروا به والارادة النافعة ارادة ما امروا به وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة وهو الذي اتفقت عليه الانبياء كلهم فكلمهم دعوا الى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك انما يكون بتصديق رسله وطاعتهم فلماذا كانت السعادة متضمنة لهذين الاصلين الاسلام والايمان عبادة الله وحده وتصديق رسله وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) قال ابو العالية هما خصلتان يسأل عنهما كل احد يقال لمن كنت تعبد وبماذا أجب المرسلين وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله اعلم . [١] *

وأتابع لها اسعد الناس في الدنيا والآخرة وحير القرون القرن الذين شاهدوه هؤلاء من به وبما يقول اذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاءه وبين ما يخالفه وأعظم محبة لما جاءه وبغضا لما خالفه وأعظم جهادا عليه فكانوا افضل ممن بعدهم في العلم والدين والجهاد اكمل علما بالحق والباطل وأعظم محبة للحق وبغضا للباطل وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذى فيه وموالاته أهله ومعاداة اعدائه واتصل بهم ذلك الى القرن الثاني والثالث فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارقه الارض ومغاربها كما قال ﷺ «زويت لي الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها» وكان لابد ان يظهر في امته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والاختلاف كما كان فيما غير لكن كانت امته خير الامم فكان الخير فيهم اكثر منه في غيرهم والشر فيهم اقل منه في غيرهم كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال

بنى اسرائيل قبلهم وبنو اسرائيل هم الذين قال الله فيهم [ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامور فاختلفوا الامن بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الامور فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغفوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين] وقال لهم موسى [يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين] فاذا كان بنو اسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الازمان وكانت هذه الامة خيرا منهم كانوا خيرا من غيرهم بطريق الاولى فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لامن السماء ولا بأيدى الخلق فلا يهلكهم بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بنى اسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور ومن لا يقبل منهم بقى مقهوراً تحت حكم غيرهم بل لا تزال في هذه الامة طائفة ظاهرة على الحق الى يوم القيامة ولا يجتمعون على ضلالة فلا تزال فيهم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٠ وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني عن واحدة سألت ربي ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» ١٠١ وهذا البأس نوعان أحدهما الفتن التي تجرى عليهم والفتنة ترد على القلوب فلا تعرف الحق ولا تقصده فيؤذى بعضهم بعضاً بالا قوال والاعمال والثاني أن يعتدى أهل الباطل منهم على أهل الحق منهم فيكون ذلك محنة في حقهم يكفر الله بها سيئاتهم ويرفع بالصبر عليها درجاتهم وبصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم بل تكون العاقبة للتقوى ويكونون من أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين اذا كانوا من أهل الصبر واليقين فانه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين والمتعدى منهم اما أن يتوب الله عليه كما تاب على أخوة يوسف بعد عدوانهم عليه وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال الما قالوا [أنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف عليه وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

الراحمين] وكما فعل سبحانه بقيادة الأحزاب الذين كانوا عدواً لله وللمؤمنين وقال فيهم ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ثم قال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدواً لله ثم يصير ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن لم يتب فإلى الله إيباه وعليه حسابه وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كما أمر الله ورسوله لا اتباعاً للظن وما تهوى الأنفس حتى يكون من خير أمة أخرجت للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ويؤمنون بالله وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه ويرحمون الخلق وهم أهل صدق وعدل أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى [ليلوكم أيكم أحسن عملاً] قال الفضيل ابن عياض وغيره أخلصه وأصوبه والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهو كما قالوا فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم خنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله ويتبغى بعمله وجه الله والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات والحسنات هي العمل الصالح والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله من واجب ومستحب فاليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً. وكذلك قال لمن قال [لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى] قال تلك أمانيتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [وقد قال تعالى (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه] فمما أخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل أنهم كانوا مسلمين وكذلك عن اتباع موسى وعيسى وغيرهم. والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ويتوكل عليه ويوحده ويرجوه ويخافه وحده. ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه الله بل يحب الله ويغض الله ويوالي الله ويعادي الله فن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ومن عبد مع الله

غيره لم يكن مسلماً وانما تكون عبادته بطاعته وهو طاعة رسوله من يطع الرسول فقد أطاع الله فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الاسلام واما ما بديل منها فليس من دين الاسلام واذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الاسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً ثم الامر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الاسلام فبعد النسخ لم يبق دين الاسلام الا أن يولى المصلى وجهه شطر المسجد الحرام فن قصد أن يصلى الى غير تلك الجهة لم يكن على دين الاسلام لانه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول اما ان تكون من الدين المبدل الذى ما شرعه الله قط أو من المنسوخ الذى نسخته الله بعد شرعه كالتوجه الى بيت المقدس فهذا كانت السنة في الاسلام كالا سلام في الدين هو الوسط كما قد شرح هذا في غير موضع، والمقصود هنا أنه اذا رد ما تنازع فيه الناس الى الله والرسول سواء كان في الفروع أو الاصول كان ذلك خيراً وأحمد عاقبة كما قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) وقال تعالى [كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأتزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم] وفي صحيح مسلم عن عائشة «ان النبي ﷺ كان اذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم» وهذه حال اهل العلم والحق والسنة يعرفون الحق الذى جاء به الرسول وهو الذى اتفق عليه صريح العقول وصحيح المنقول ويدعون اليه ويأمرون به نصحاء للعباد وبياناً للهدى والسداد ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى ولم يحكموا عليه بالجهل بل حكمة الى الله والرسول فمنهم من يكفره الرسول ومنهم من يجعله من أهل الفسق او العصيان ومنهم من يعذره ويجعله من اهل الخطأ المنفور والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد يجعل له اجرا على فعل ما أمر به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له كما ذكر الكتاب واما

اهل البدع فهم أهل اهواء وشبهات يتبعون اهواءهم فيما يحبونه ويغضونه ويحكمون بالظن والشبه فهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى فكل فريق منهم قد اصل لنفسه أصل دين وضعه اما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات واما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات واما بما يتأوله من القرآن ويحرف فيه الكلم عن مواضعه ويقول انه انما يتبع القرآن كالحوارج واما بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذبا وضعفاً كما يدعيه الروافض من النص والآيات وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتاج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله ويجعل ذلك حجة لاعمدته وعمدته في الباطن على رأيه كالجهمية والمعتزلة في الصفات والافعال بخلاف مسائل لوعده والوعيد فانهم قديقصدون متابعة النص فالبدع نوعان : نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول لكن غلطوا في فهم النصوص وكذبوا بما يخالف ظنهم من الحديث ومعاني الآيات كالحوارج وكذلك الشيعة المسلمين بخلاف من كان منافقاً زنديقاً يظهر التشيع وهو في الباطن لا يعتقد الاسلام وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الامر والنهي وتصديق الوعيد مع الوعد . ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وغيرهما ان الثنتين وسبعين فرقة أصولها أربعة : الشيعة والحوارج والمرجئة والقدرية . واما الجهمية النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول فانه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم وانما يدعون التمسك بالرأي المعقول وقد بسط القول على بياض فساد حججهم العقلية وما يدعيه بعضهم من السمعيات وبين أن المعقول الصريح موافق للمعقول الصحيح في بطلان قولهم لا يخالف له . والمقصود هنا الكلام في افعال الرب فان الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول ويجعلون العمدة وخاضوا في لوازم القدر برأيهم الخوض ففرقوا فيه تفرقا عظيماً وظهر بذلك حكمة نهى النبي ﷺ لأمته عن التنازع في القدر مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلي بآية لكن كان ذلك يفضي الى ايمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض فكيف اذا كان المتنازعون عمدتهم رأيهم والحديث رواه أهل المسند والسنن مفضلاً ورواه مسلم مجحلاً عن عبد الله بن رباح الانصاري أن عبد الله بن عمرو قال «هجرت الى رسول الله ﷺ يوما فسمع صوت رجلين اختلفا في آية

فخرج علينا عليه السلام يعرف في وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب . وقال الامام أحمد في المسند حدثنا أبو معاوية ثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال فكأنما يفتقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال فقال مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم قال فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده ما غبطت نفسى بذلك المجلس انى لم أشهده » وهذا حديث محفوظ من رواية عمرو بن شعيب وقد رواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية وكتب أحمد في رسالته الى المتوكل هذا الحديث وجعل يقول في مناظرته لهم يوم الدار في المحنة انا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض وروى هذا الحنفى الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حديث حسن غريب قال وفي الباب الذى فررت منه فانه كما قيل ان له حياة وعلمًا وقدرة وإرادة وغضبًا ورضى ونحو ذلك . قلت هذا يستلزم أن يكون موافقًا للمخلوق في مسمى هذه الاسماء وهذا تشبيه فقيل لك هذا يلزم مثله في الذات فان قيل بتعطيل الذات فذلك يستلزم ما فررت منه من ثبوت جسم قديم حامل للاعراض والحركات واذا كان هذا لازماً لك على تقدير نفى الذات كما ثبت أنه لازم على تقدير اثباتها كان لازماً على تقدير النقيضين النفى والاثبات وما كان كذلك لم يكن نفيه واما نحن فقد بينا أن اللازم على تقدير اثباتها لا محذور فيه وانما المحذور لازم على تقدير نفيها وهذا قد بسط في غير هذا الموضع . والمقصود هنا أنه يقال لهؤلاء الذين ينفون الحكمة ثم الارادة ثم الفعل في الافعال نظير ما قيل لاولئك في الصفات ويجعل مبدأ الكلام من الارادة في الموضعين فيقال لمن أثبتها ونفى الحكمة من المنتسبين الى اثبات القدر والمنتسبين الى السنة والجماعة لم نفيم الحكمة فاذا قالوا لانا لا نعرف من يفعل لحكمة الا من يفعل لغرض يعود اليه وهذا لا يكون الا فيمن يجوز عليه اللذة والالم والانتفاع والضرر والله منزّه عن ذلك فيقال لهم ما قاله نفاة الارادة وأنتم لا تعقلون ارادة الا فيمن يجوز عليه اللذة والالم والانتفاع والضرر وقد قلتم ان الله تعالى مرید فاما أن تطردوا أصلكم النافي فتنفوا الارادة أو المثبت فثبتوا اللذة والا فما الفرق فاذا قال نفاة الارادة فلماذا نفينا الارادة كما رجحه الرازى في المطالب العالية واحتج به للفلاسفة قيل لهم فانفوا ان يكون فاعلاً

فأنكم لا تعلمون فاعلا غير مقهور الا بارادة ولا يعقلون ما يفعل ابتداء الا بارادة أو فاعلا حياء الا بارادة أو فاعلا مطلقاً الا بارادة فان قال اتباع ارسطو فلهذا قلنا انه لا يفعل شيئاً وليس بموجب بذاته شيئاً لكن قلنا ان الفلك يتشبه به أو قال من هو أعظم تعطيلاً منهم فلهذا نفينا الاول بالسكينة ولم نثبت علة تفعل ولا علة يتشبه بها قيل لهم فهذه الحوادث مشهودة وحركة الكواكب والشمس والقمر مشهودة فهذه الحركات الحادثة وغيرها من الحوادث مثل السحاب والمطر والنبات والحيوان والمعدن وغير ذلك مما يشهد حدوثه أحدث بنفسه من غير أن يحدثه محدث قديم أو لا بد للحوادث من محدث قديم فان قالوا بل حدث كل حادث بنفسه من غير أن يحدثه أحد كان هذا ظاهر النساذ يعلم بضرورة العقل انه في غاية المنكارة ونهاية السفسطة مع لزوم ما فروا منه فانهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث. وقد اثبتوا فاعلا محدثاً لكن جعلوا كل حادث هو يحدث نفسه ويفعلها فجعلوا ما ليس بشيء يجعل الشيء وجعلوا المعدم يحدث الموجود فلزمهم ما فروا منه من اثبات فاعل مع ما لزمهم من الكفر العظيم وغاية الجهل وغاية فساد العقل وان قالوا بل كل محدث يحدثه محدث ولم يحدث محدث قيل لهم هذا أيضاً ممتنع في صريح العقل فان التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل واتفاق العقلاء فانه كلما كثر ما يقدر انه حادث كان أحوج الى القديم فليس في تقدير حوادث لا تنتهي ما يوجب استغناءها عن القديم بل اذا كان المحدث الواحد لا بد له من محدث غيره فمجموع الحوادث أولى بالافتقار الى محدث لها خارج عنها كلها فان المحدث لمجموعها يمتنع أن يكون واحداً منها فانه يلزم أن يحدث نفسه ويمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع فان الشيء لا يحدث نفسه والمجموع هي الآحاد الحادثة وهيئتها الاجتماعية وتلك الهيئة محتاجة الى المجموع الذي هو كل واحد واحد والمجموع ليس الا آحاد واجتماعها وكل ذلك مفتقر الى محدث مباين لها فلا بد للحوادث من قديم ليس بمحدث ثم يقال لهم اذا قدر تسلسل الفاعلين وان ما كان محدثاً له محدث وهلم جرا فهذا فيه أثبات ما فررتهم منه وهو أن هذا المحدث فعل هذا وهذا فعل هذا لكن أثبتتم ما لا ينتهي من ذلك في آن واحد فركبتهم ما فررتهم منه مع لزوم هذه الجهالات التي تقتضى غاية فساد العقل والكفر بالسمع واذا كان المحذور يلزمهم على تقدير أن يكون

الحادث أحدث نفسه أو أحدث كل حادث حادثاً آخر مع فساد هذين تبين أنه لا ينفعه انكار القديم وان قال بل أقر بالمحدث القديم قيل فقد أقررت بفعل القديم للمحدث وإذا ثبت أن القديم فعل المحدث وأنت لاتعلم فاعلا الا جلب منفعة أو دفع مضرة قيل له فما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن كونه يفعل بارادته وقيل لمثبت الارادة ما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن حكمته فقد بين أن من نفى الحكمة فلا بد أن ينقض قوله ويلزمه مع التناقض نفي الصانع وهو مع نفي الصانع تناقضه أشد ، والمحدور الذي فر منه ألزم فلم يفتن عنه فراره من اثبات الحكمة الا زيادة الجهل والشر وهكذا يقال لمن نفى حبه ورضاه وبغضه وسخطه وهذا مقام شريف من تدبره وتصوره تبين له أنه لابد من الاقرار بما جاء به الرسول وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول وأن من خالفه فهو ممن لا يسمع ولا يعقل وهو أسوأ حالا ممن فر من الملك العادل الذي يلزمه بطعام امرأته وأولاده والزكاة الشرعية الى بلاد ملكها ظالم ألزمه باخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه مع قلة الكسب في بلاده وبمنزلة من فر من معايشة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه ما يلزم واحداً منهم من الامور المشتركة اذ كانوا مقيمين أو مسافرين أن يخرج مثلاً يخرج الواحد منهم فكره هذا وفر الى بلد فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم والا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم فمن فر من حكم الله ورسوله أمراً وخبراً أو ارتد عن الاسلام أو بعض شرائعه خوفاً من محذور في عقله أو عمله أو دينه أو دنياه كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شراً في اتباع الرسول قال تعالى (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّم وقل لهم في أنفسهم قسولاً بليغاً وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ☆

فصل

ويقال لهم لم فررتم من اثبات المحبة والحكمة والارادة والفعل

فان قالوا لان ذلك لا يعقل الا في حق من يلتذ ويتألم وينتفع ويتضرر والله منزّه عن ذلك قيل للفلاسفة فأنتم تثبتون انه مستلذ مبتهج فهذا غير محذور عنكم وان قلتم لان ذلك يستلزم لذة حادثة قيل لكم في حلول الحوادث قولان وليس معكم في النفي الا ما يدل على نفي الصفات مطلقاً كدليل التركيب وقد عرف فساد من وجوه
وقيل للجهمية والمعتزلة ان أردتم ان ذلك يقتضى حاجته الى العباد وانهم يضرونه أو ينفعونه فهذا ليس بلازم ولهذا كان الله منزهاً عن ذلك كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الالهى « يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » فالله أجل من أن يحتاج الى عباده لينفعوه أو يخاف منهم أن يضروه واذا كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره فمن له العزة جميعاً وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك وكذلك الحكيم المخلوق اذا كان لا يفعل بنفسه ما يضرها فالخالق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً فكيف اذا كان ممتنعاً قال تعالى [ان الذين يسارعون في الكفر لن يضروا الله شيئاً وهم عذاب مهين] وقال تعالى [وظللتنا عليهم الغمام وأزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فقد بين أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فان ممالك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه اذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك وقد يكون ذلك ظلماً له والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وان كان الكافر على ربه ظهيراً فظاهرتة على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربتة عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة واما النفع فهو سبحانه غنى عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به اذا لم يفعلوه لم يضروه بذلك كما قال تعالى [والله على الناس حجج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غنى عن العالمين] وقل (ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن

كفر فان ربي غنى كريم) وقال [ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تذرؤا زرة وزر أخرى] ^١ وان أردتم انه سبحانه لا يريد ولا يفعل ما يفرح به ويسر به ويجعل عباده المؤمنين يفعلون ما يفرح به فن أين لكم هذا وان سمي هذا لذة فالالفاظ المجملة التي قد يفهم منها معنى فاسد اذا لم يرد في كلام الشارع لم تكن محتاجين الى اطلاقها كلفظ العشق وان أريد به المحبة التامة وقد أطلق بعضهم على الله أنه يعشق ويعشق وأراد به أنه يحب ويحب محبة تامة فالمعنى صحيح والمعنى فيه نزاع واللذة يفهم منها لذة الاكل والشرب والجماع كما يفهم من العشق المحبة الفاسدة والتصور الفاسد ونحو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه فان الذين قالوا لا يجوز وصفه بأنه يشق منهم من قال لان العشق هو الافراط في المحبة والله تعالى لا افراط في حبه ومنهم من قال لان العشق لا يكون الا مع فساد التصور للعشوق والافع صحة التصور لا يحصل افراط في الحب وهذا المعنى لا يمدح فاعله فان من تصور في الله ما هو منزّه عنه فهو مذموم على تصوره ولو ازم تصوره ومنهم من قال لان الشرع لم يرد بهذا اللفظ وفيه إيهام وإيهام فلا يطلق وهذا أقرب. وآخرون ينكرون محبة الله وأن يحب ويجب كالمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الاشعرية وغيرهم فهؤلاء يكون الكلام معهم في كونه يحب ويحب كما نطق به الكتاب والسنة في مثل قوله (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) لا في لفظ العشق كذلك لحفظ اللذة فيه إيهام وإيهام والشرع لم يرد باطلاقه ولكن استفاض عن النبي ﷺ ان الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته بعد ان فقدتها وأيس منها في مفازة مهلكة ويئس من الحياة والنجاة من تلك الارض ومن وجود مركبه ومطعمه ومشربه ثم وجد ذلك بعد اليأس قال النبي ﷺ «فكيف تجدون فرحه بدابته قالوا عظيما يا رسول الله قال له أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته» (١) وقد نطق الكتاب والسنة بانه يحب المتقين والمحسين والصابرين والتوابين والمتطهرين والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وأنه يرضى عن المؤمنين فاذا كنتم نفيت حقيقة الحب والرضى لان ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب قيل لكم ان كان

(١) هذا الحديث ذكره بمعناه على سبيل الحكاية لمعناه لا بلفظه تنبه

هذا لازماً فلازم الحق حق وان لم يكن لازماً بطل نفيكم والفرح في الانسان هولذة تحصل في قلبه بحصول محبوه به وقد جاء أيضاً وصفه تعالى بأنه يسر في الاثر والكتب المتقدمة وهو مثل لفظ الفرح واما الضحك فكثير في الأحاديث ولفظ البشاشة جاء أيضاً انه يتبشش للدخول الى المسجد كما ما يتبشش اهل الغائب بغائبهم اذا قدم وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثير فيقال لمن نفى ذلك لم نفيته ولم نفيته هذا المعنى وهو وصف كمال لا نقص فيه ومن يتصف به اكمل ممن لا يتصف به وانما النقص فيه أن يحتاج فيه الى غيره والله تعالى لا يحتاج الى أحد في شيء بل هو فعال لما يريد لكن القدرية قد يشكل هذا على قولهم فان العباد عندهم مستقلون باحداث فعلهم ولكن هذا مثل اجابة دعائهم واثابتهم على افعالهم ونحو ذلك مما فيه ان افعالهم تقتضى امورا يفعلها هو وهم لا يفرون من كونه يجب عليه أشياء وانه يفعل ما يجب عليه فيكون العبد قد جعله مريداً لما لم يكن مريداً له وحينئذ فاذا كان العباد يجعلونه مريداً عندهم فالقول في لوازم الارادة كالقول فيها وهذا اما ان يدل على فساد قولهم في القدر وهو الصواب واما ان يقولوا ان مثل ذلك جائز على الله وجائز ان يجعله العبد مريداً بدون مشيئته لذلك وبدون أن يكون هو الذي شاء ذلك من العبد فيلزمهم في لوازمها ما يلزمهم فيها وأما على قول المثبتة فكلما يحدث فهو بمشيئته وقدرته فما جعله أحد مريداً فاعلا بل هو الذي يحدث كل شيء ويجعل بعض الاشياء سبباً لبعضه فان قال نافي المحبة والفرح والحكمة ونحو ذلك هذا يستلزم حاجته الى المخلوق ظهر فساد قوله وان قيل ان ذلك ان كان وصف كمال فقد كان فاقداً له وان كان نقصاً فهو منزّه عن النقص قيل له هو كمال حين اقتضت الحكمة حدوثه وحدوثه قبل ذلك قديكون نقصاً في الحكمة أو يكون متمتعاً غير ممكن كما يقال في نظائر ذلك وتام البسط في هذا الاصل المذكور في غير هذا الموضع. والمقصود هنا التنبيه على لوازم ذلك فان نفاة ذلك نفوا ان يكون في الممكن فعل ينزه عنه فليس عندهم فعل يحسن منه وفعل ينزه عنه بل عنده تقسيم الافعال افعال الرب والعبد الى حسن وقيح لا يكون عندهم الا بالشرع وذلك لا يرجع الى صفة في الفعل بل الشارع عندهم يرجع مثلاً على مثل والحسن والقيح انما يعقل اذا ز الحسن ملائماً للفاعل وهو الذي يلتذ به والقيح ينافيه وهو الذي يتألم به والحسن

والقبح في أفعال العباد بهذا الاعتبار متفق على جوازهم وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب وهذا في الحقيقة يرجع إلى الإلم واللذة فلهذا سلم الرازي في آخر عمره ما ذكره في كتاب (١) أن الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد دون الرب إذا كان معناها يؤول إلى اللذة والإلم والمعتزلة اثبتوا حسناً وقبحاً عقليين في فعل القادر مطلقاً سواء كان قديماً أو محدثاً وقال الحسن ما للقادر فعله والقبيح ما ليس له فعله وقالوا إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزماً للذة والإلم كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر ولا تعود إليه ولا يستلزم اللذة فادعوا ما هو خلاف الموجود والمعقول ولهذا تسلط عليهم النفاة فكان حججهم عليهم أن يثبتوا أن هذا أمر لا يعقل إلا مع اللذة والإلم ثم يقولون وذلك في حق الله محال فحججهم مبنية على مقدمتين أن الحسن والقبح والحكمة مستلزم للذة والإلم وذلك في حق الله محال والمعتزلة منعوا المقدمة الأولى فغلبوا معهم والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق وهي مناسبة لأصول المعتزلة لكونهم ينفون الصفات فنفي الفعل القائم به أولى على أصلهم ونفي مقتضى ذلك أولى على أصلهم وهذه المقدمة التي اشتركوا فيها تقتضي نفي كونه مريداً ونفي كونه فاعلاً ونفي حدوث شيء من الحوادث كما أن نفي الصفات يقتضي نفي قائم بنفسه موصوف بالصفات فنفي اتصافه بالصفات يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفة ونفي فعله واحداً يقتضي أن لا يكون في الوجود شيء حادث فكان مانفوه مستلزماً نهاية السفسطة وجحد الحقائق ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفية يازمهم تعطيل الأمر والنهي وإن لا ينفي إلا القدر العام وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الصفات وإن لا يكون موجوداً أحدها واجب قديم خالق والآخر ممكن أو محدث أو مخلوق وهكذا التزمه طائفة من محققيهم وهم القائلون بوحدة الوجود وهم يقولون بكون العبد أولاً يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية ثم يشهد طاعة بالامعية ثم لا طاعة ولا معصية بل الوجود واحد فالذين اثبتوا الحسن والقبح في الأفعال وإن لها صفات تقتضي ذلك قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم قال أبو الخطاب هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين لكن تناقضوا فلم يثبتوا لازم ذلك فتسلط عليهم النفاة والنفاء لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر قالوا لا فرق

(١) هنا بياض في الأصل مقدار كلمتين

في ما يخلق الله وما يأمره به بين فعل وفعل ، وليس في نفس الامر حسن ولا قبيح ولا صفات توجب ذلك ، واستثنوا ما يوجب اللذة والالم ، لكن اعتقدوا ما اعتقدته المعتزلة ان هذا لا يجوز اثباته في حق الرب ، وأما في حق العبد فظنوا أن الافعال لا تقتضي الالذة وألما في الدنيا ، وأما كونها مشتملة على صفات تقتضي لذة وألماً في الآخرة فذلك عندهم باطل ولم يتمكنهم أن يقولوا أن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقاً وينهى عما فيه ألم مطلقاً وكون الفعل يقتضي ما يوجب اللذة هو عندهم من باب التولد وهم لا يقولون به بل قدرة العبد عندهم لا تتعلق الا بفعل في محلها ، مع أنها عند شيخهم غير مؤثرة في المقدور ، ولا يقول ان العبد فاعل في الحقيقة بل كاسب ، ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقاً معقولاً بل حقيقة قولهم قول جهم ان العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب والله عندهم فاعل فعل العبد وفعله هو نفس مفعوله فصار الرب عندهم فاعلاً لكل ما يوجد من أفعال العباد ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح وأن يتصف بها على قولهم أنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره . وقد تناقضوا في هذا الموضع فجعلوه متكلاً بكلام يقوم بغيره وجعلوه عادلاً ومحسناً بعدل واحسان يقوم بغيره كما قد بسط في غير هذا الموضع وحينئذ فما بقي يتمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الاجناس أى يقولوا هذا يحسن من الرب فعله وهذا ينزه عنه بل يجوز عندهم أن بفعل كل ممكن مقدور والظلم عندهم هو فعل مانع المرء عنه أو التصرف في ملك الغير وكلاهما متمتع في حق الله ، فاما أن يكون هناك أمر ممكن مقدور وهو منزّه عنه فهذا عندهم لا يجوز . فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن ولا ينزهونه عن فعل لكونه قبيحاً أو نقصاً أو مذموماً ونحو ذلك ، بل يعلم ما يقع وما لا يقع بالخبر أى بجبر الرسول كما علم بجبره المأمور والمحظور والوعد والوعيد والثواب والعقاب أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم ، لكن قالوا قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه من غير فرق لافي الوجود ولا في العلم بين ما علموا انتفاءه وما لم يعلموه اذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين والسبب ، فالارادة القديمة عندهم ترجح مثلاً على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علماً ضرورياً بالفرق بين المتماثلين بلا

(م ١٣ - - النبوات)

سبب فلهذا قالوا ان الشرع لا يأمر وينهى لحكمة، ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا علل الشرع امارات كما قالوا ان افعال العباد اماراة على السعادة والشقاء فقط من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كآبي حامد ومن تبعه قالوا عرفنا بالاستقراء أن المسأور به تقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم، والمنهى عنه تقترن به المفسدة، فاذا وجد الأمر والنهى علم وجود قرينه الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة ولا ينهى عنه لتلك المفسدة وجورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة، لكن الآمدي قال ان ذلك جائز غير واجب، فلم يجعله واجبا ولا ممتعا.

فصل

وهذا الأصل دخل في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه في خلق الرب لما يخلقه ورزقه واعطائه ومنعه وسائر ما يفعله تبارك وتعالى ودخل في أمره ونهيه وجميع ما يأمر به وينهى عنه ودخل في المعاد فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والأنبياء والمرسلين بالعذاب الابدی وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعم الابدی، لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا ويجوز عندهم أن يعذب من لاله ذنب أصلا بالعذاب الابدی، بل هذا واقع عندهم يقول بأن أطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم فانهم كلهم يجوزون تعذيبهم إذ كان عندهم يجوز تعذيب كل حي العذاب المؤبد لا ذنب ولا غرض ولا حكمة، لكن هل يقع هذا في أطفال المشركين منهم من جزم بوقوعه كالقاضي أبي يعلى ومن وافقه ومنهم من توقف لعدم الدليل السمعي عنده لا مانع عقلي كالقاضي أبي بكر ونحوه، وليس عندهم من أفعال الرب ما ينزهونه عنه أو ما تقتضي الحكمة وجوده بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن ويجوز أن لا يفعل شيئا من الخير، لكن إذا أخبر أنه يفعل شيئا أو أنه لا يفعل علم أنه واقع أو غير واقع بالخبر ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له ومن هو أبر الناس وأفضلهم وأغنيا مؤبدا لا يعذبه أحداً من العالمين ويجوز أن ينعم شر الخلق من شياطين الانس والجن نعميا في أعلى درجات الجنة لا ينعم مثله لمخلوق، لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون

الجنة والكفار يدخلون النار علم ما يقع مع انه لو وقع ضده لم يكن بينهما فرق عندهم هم مع عبي الخبر فكثير منهم وافقه أما في جنس الفساق مطلقا فيجوزون أن يدخل جميعهم الجنة ويجوزون أن يدخل جميعهم النار، ويجوزون أن يدخل بعضهم كما يقوله من يقوله ممن وافق الشيعة والاشعرية كالقاضي أبي بكر لان القرآن عنده لم يدل على شيء والاخبار أخبار آحاد بزعمه فلا يحتج بها في ذلك

وأما جمهور المنتسبين الى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فيقطعون بان الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم كما قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذا فيه الاخبار بانه يغفر ما دون الشرك وانه يغفره لمن يشاء لا لكل أحد لكن هل الجزاء والنواب والعقاب مبنى على الموازنة بالحكمة والعدل كما أخبر الله بوزن الاعمال أو يغفر ويعذب بلا سبب ولا حكمة ولا اعتبار الموازنة فيه هؤلاء قولان فمن جوز ذلك فانه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو من أبر الناس واكثرهم طاعات وحسنات على سيئة صغيرة عذابا أعظم من عذاب أفسق الفاسقين، ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين واعظمتهم كبار كل ذنب ويدخله الجنة ابتداء مع تعذيب ذلك في النار على صغيرة. ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء انهم لا ينزهون الرب على السفه والظلم بل يصفونه بالأفعال التي يوصف بها المجانين والسفهاء فان المجنون والسفيه قد يعطى مالا عظيما لمن ليس هو له باهل وقد يعاقب عقوبة عظيمة من هو أهل للاكرام والاحسان والرب تعالى أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وخير الراحمين والحكمة وضع الاشياء مواضعها والظلم وضع الشيء في غير موضعه. ومن تدبر حكمته في مخلوقاته ومشروعاته رأى ما يبهر العقول فانه مثلا خلق العين واللسان ونحوهما من الاعضاء لمنفعة وخلق الرجل والظفر ونحو ذلك لمنفعة، فلا تقتضى الحكمة أن يستعمل العين واللسان حيث يستعمل اليد والرجل والظفر ولا أن يستعمل الرجل واليد حيث يستعمل العين واللسان وهذا من حكمته موجود في أعضاء الانسان وسائر الحيوان والنبات وسائر المخلوقات فكيف يجوز في حكمته وعدله ورحمته في من هو دائما يفعل ما يرضيه من الطاعات والعبادات والحسنات وقد نظر نظرة منها عنها ان يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به أحر

الفساق وأن يكون أفر الفساق في أعلى عليين وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لكن لا يشاء الا ما يناسب حكمته ورحمته وعدله كما لا يشاء ويريد الا ما علم أنه سيكون فلو قيل هل يجوز ان يشاء ما علم أنه لا يكون لم يحرج ذلك باتفاقهم لماقتضة علمه والعلم يطابق المعلوم فكيف يشاء ما يناقض حكمته ورحمته وعدله وبسط هذه الامور له مواضع متعددة

والمقصود أن هؤلاء لما احتاجوا الى اثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي وما يجوز عليه وفي الآيات التي بها يعلم صدقه فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء لا يشترطون في النبي الا أن يعلم ما أرسل به لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقا يلزمه جواز ان يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ماهي وجوزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر ان يكون الرسول فاعلا للكبار الا انه لا بد أن يكون عالما بمرسله لكن ما علم بالخبر ان الرسول لا يتصف به علم من جهة الخبر فقط لا لان الله منزّه عن ارسال ظالم أو مرتكب للفواحش أو مكاس أو مخنث أو غير ذلك فانه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل لكن بالخبر وهم في السمعيات عمدتهم الاجماع واما الاحتجاج بالكتاب والسنة فاكثروا ما يدكرونه تبعا للعقل أو الاجماع والعقل والاجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنة فلم يعتمد القاضي أبو بكر وأمثاله في تنزيه الانبياء لا على دليل عقلي ولا سمعي من الكتاب والسنة فان العقل عنده لا يمنع أن يرسل الله من شاء اذ كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه وانما اعتمد على الاجماع فما أجمع المسلمون عليه انه لا يكون في النبي شيء من ذلك كما ظنه اجماعا كعادته وعادات أمثاله في نقل اجماعات لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة ولا ثلاثة من التابعين ولا أربعة من الفقهاء المشهورين كدعواه الاجماع على أن الصلاة في الدار المنصوبة مجزئة مع قوله أن العقل يحيل أن يكون مأمورا به فيدعى الاجماع على براءة المأمور من فعل ما أمر به لكونه فعل مائى عنه ولاهل الكلام والرأى من دعوى الاجماع التي ليست صحيحة بل قد يكون فيها نزاع معروف وقد يكون اجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الاجماع ما يطول ذكره هنا. وقد ذكرنا قطعة من الاجماع الفروعية التي حكاها طائفة من أعيان العلماء العالمين بالاختلاف مع انها متتقة وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه وقد يكون

غيرهم حكى الاجماع على نقيض قولهم وربما كان من السلف كقول الشافعي ما أعلم أحداً قبل شهادة العبد وقبله من الصحابة أنس بن مالك. يقول ما أعلم أحداً رد شهادة العبد وكدعوى ابن حزم الاجماع على ابطال القياس وأكثر الاصوليين يذكرون الاجماع على اثبات القياس ويهبط هذا له موضع آخر.

فصل

ولما أرادوا اثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام وإن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب مع تجويزهم عليه فعل كل شيء فهموا معاً (١) فقالوا لو جاز ذلك لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة وما لزم منه نفى القدرة كان ممتنعاً فهذا هو المشهور عن الأشعري وعليه اعتمد القاضي أبو بكر وابن فورك والقاضي أبو يعلى وغيرهم وهو مبني على مقدمات أحدها أن النبوة لا تثبت إلا بما ذكره من المعجزات وأن الرب لا يقدر على اعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة وأن اعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق ممكن (فلو قيل) لهم لانسلم أن هذا ممكن على قولكم فانكم اذا جوزتم عليه فعل كل شيء واردة كل شيء لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب ولم يكن ارسال رسول يصدقه بالمعجزات ممكناً على أصلكم ولم يكن لكم حجة على جواز ارسال الرسول وتصديقه بالمعجزات اذا كان لا طريق عندهم الا خلق المعجز وهذا انما يكون دليلاً اذا علم انه انما خلقه لتصديق الرسول وانتم عندهم لا يفعل شيئاً لشيء ويجوز عليه فعل كل شيء وسلك طائفة منهم طريقاً آخر وهي طريقة أبي المعالي واتباعه وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضروري وضربوا له مثلاً بالملك وهذا صحيح اذا منعت أصولهم فان هذه تعلم اذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئاً لحكمة فاما من لا يفعل شيئاً لشيء فكيف يعلم انه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لالشيء آخر ولم لا يجوز أن يخلقها لالشيء على أصلهم وقالوا أيضاً ما ذكره الأشعري المعجز علم الصدق ودليله فيستحيل وجوده بدون الصدق فيمتنع وجوده على يد الكاذب

وهذا كلام صحيح لكن كونه علم الصدق مناقض لأصولهم فإنه إنما يكون علم الصادق إذا كان الرب منزها عن أن يفعله على يد الكاذب أو علم بالاضطرار أنه إنما فعله لتصديق الصادق أو أنه لا يفعله على يد كاذب وإذا علم بالاضطرار تنزهه عن بعض الأفعال بطل أصلهم ❦

فصل

والمعتزلة قبلهم ظنوا أن مجرد كون الفعل خارقاً للعادة هو الآلية على صدق الرسول فلا يجوز ظهور خارق الالهي والتزموا طرداً لهذا انكار أن يكون للسحر تأثير خارج عن العادة مثل أن يموت ويمرض بلا مباشرة شيء وأنكروا الكهانة وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات وأنكروا كرامات الأولياء فأتى هؤلاء فاثبتوا ما أثبتته الفقهاء وأهل الحديث من السحر والكهانة والكرامات ؛ لكن قيل لهم فيزوابين هذا وبين المعجزات فقالوا لا فرق في نفس الجنس وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالأنبياء لكن جنس خرق العادة واحد، فهذا إذا اقترن بدعوى النبوة وسلم عن المعارضة عند تحدى الرسول بالمثل فهو دليل فهي عندهم لم تدل لكونها في نفسها وجنسها دليلاً، بل إذا استدل بها المدعى للنبوة كانت دليلاً والا لم تكن دليلاً، ومن شرط الدليل سلامته عن المعارضة وهي عندهم غاية الفرق فإذا قال المدعى للنبوة أثبتوا بمثل هذه الآلية فمعجزوا كان هذا هو المعجز المختص بالنبى والافيجوز عندهم أن تكون معجزات الرسول من جنس ما للسحرة والكهان من الخوارق إذا استدل بها الرسول فالحجة عندهم مجموع الدعوى والخارق لا الخارق وحده والاعتبار بالسلامة عن المعارض بل قد لا يشترطون أن يكون خارقاً للعادة لكن يشترطون أن لا يعارض وعجز الناس عن المعارضة مع أنه معتاد لا خارق للعادة فالاعتبار عندهم بشيئين باقتراحه بالدعوى وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا بمثله فلا يقدر أن يقولوا وخوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح ولا يدل على النبوة لأنه لم يدعها قالوا ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق مع كذبهم يكن بد من أن الله يعجزه عنها فلا يخلقها على يده أو يقبض له من يعارضه فتبطل حجته وإذا قيل لهم لم قلتم أن الله لا بد أن يفعل هذا وهذا

وعندكم يجوز عليه كل شيء ولا يجب عليه فعل شيء ولا يجب منه فعل شيء قالوا لانه لو لم يمنعه من ذلك أو يعارضه بآخر لكان قد أتى بمثل ما يأتي به النبي الصادق فتبطل دلالة آيات الانبياء (فاذا قيل لهم) وعلى أصلكم يجوز أنه يبطل دلالتها وعندكم يجوز عليه فعل كل شيء أجابوا بالوجهين المتقدمين أما لزوم أنه ليس بقادر أو أن الدلالة معلومة بالاضطرار وقد عرف ضعفهما ثم هنا يلزمهم شيء آخر وهو أنه لم قلتم أن المعجز الذي يدل به على صدق الانبياء ما ذكرتموه من مجرد كونه خارقاً مع الدعوى وعدم المعارضة فإن هذا يقال أنه باطل من وجوه ٢٦

أحدها انه اذا كان ما يأتي به النبي يأتي به الساحر والكاهن لكان أولئك يعارضون وهذا لا يعارض فالاعتبار اذن بعدم المعارضة فقولوا كل من ادعى النبوة وقال معجزتي أن لا يدعيها غيري فهو صادق أو لا يقدر غيري على دعواها فهو صادق أو افعل امرا معتادا من الاكل والشرب واللباس ومعجزتي ان لا يفعله غيري أو لا يقدر غيري على فعله فهو صادق فالترموها هذا وقالوا المنع من المعتاد كاحداث غير المعتاد وعلى هذا فلو قال الرسول معجزتي اني اركب الحمار أو الفرس أو آكل هذا الطعام أو لبس هذا الثوب أو اعدو الى ذلك المكان وامثال ذلك وغيره لا يقدر على ذلك كان هذا آية دعواه وهذا لا ضابط له فان ما يعجز عنه قوم دون قوم لا ينضبط ولكن هذا يفسد قول من فسرهما بنحرق العادة فان العادات تختلف وقد ذكروا هذا وقالوا المعجزة عند كل قوم ما كان خرقا لعادتهم وقالوا يشترط أن تكون خارقة لعادة من دعاهم وان كان معتادا لغيرهم وقالوا اذا كان المدعى كذابا فان الله يقيض له من يعارضه من اهل تلك الصناعة او يمنعه من القدرة عليها وهذا وجه ثان يدل على فساد ما اصلوه هم والمعتزلة الوجه الثالث ان المعارضة بالمثل ان يأتي بحجة مثل حجة النبي وحجته عندهم مجموع دعوى النبوة والاثبات بالخارق فيلزم على هذا ان تكون المعارضة بان يدعى غيره النبوة ويأتي بالخارق وعلى هذا فليست معارضة الرسول بان يأتي بالقرآن أو عشر سور أو سورة بل ان يدعى احدهم النبوة ويفعل ذلك وهذا خلاف العقل والنقل ولو قال الرسول لتريش لا يقدر احد منكم ان يدعى النبوة ويأتي بمثل القرآن وهذا هو الآية والا فمجرد تلاوة القرآن ليس آية بل قد يقرأ المتعلم له فلا تكون آية لانه لم يدع النبوة

ولو ادعاهما لكان الله ينسبه إياه أو يقبض له من يمارضه كما ذكرتم لكانت قریش وسائر
العلماء يعلمون ان هذا باطل ❦

الرابع انه اذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة فقولوا ما قاله غيركم وهو ان آية سلامة
ما يقوله من التناقض وان كل من ادعى النبوة وكان كاذبا فلا بد ان يتناقض أو
يقبض الله له من يقول مثل ما قال واما السلامة من التناقض من غير دعوى النبوة
فليست دليلا فهذا خير من قولكم فانه قد علم ان كل ما جاء من عند غير الله فانه
لا بد ان يختلف ويتناقض وما جاء من عند الله لا يتناقض كما قال تعالى (ولو كان من
عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) واما دعوى الضرورة فمن ادعى الضرورة في شيء
دون شيء مع تماثلها وعدم الفرق بينهما في نفس الامر كانت دعواه مردودة بل كذبا
فان وجود العلم الضروري بشيء دون شيء لا بد ان يكون لفرق اما في المعلوم واما في
العالم والا فاذا قدر تساوى المعلومات وتساوى حال العالم بهما لم يعلم بالضرورة احد
المتماثلين دون الآخر ❦

الخامس : انه لا بد ان تكون الآية التي للنبي امرا مختصا بالانبياء فان الدليل
مستلزم للمدلول عليه فآية النبي هي دليل صدقه وعلامة صدقه وبرهان صدقه
فلا توجد قطالا مستلزما لصدقه وقد ادعوا ان آيات صدقهم تكون منفكة عن
صدقهم تكون لساحر وكاهن ورجل صالح ولمدعى الالهية لكن لا تكون لمن يكذب
في دعوى النبوة فحوزوا وجود الدليل مع عدم المدلول عليه الا اذا ادعى المدلول عليه
كاذب واستدلوا على ذلك بان الساعة تحرق عندها خوارق ولا تدل على صدق احد
ولو ادعى مدعى النبوة مع تلك الخوارق لدلت قالوا فعلم ان جنس ما هو معجز يوجد
بدون صدق النبي لكن مع دعوى النبوة لا يوجد الا مع الصدق والآية عندهم الدعوى
والخارق والصدق هو المدلول عليه فلا يكون ذلك كذلك الا مع هذا واما وجود الخارق
مجردا عن الدعوى فليس بدليل ولا فرق عندهم بين خارق وخارق وخارق معتباد
عند قوم دون قوم وليس لهم ضابط في العادات (ولسائل) ان يقول جميع ما يفعله الله من
الآيات في العالم فهو دليل على صدق الانبياء ومستلزم له وان كانت الآيات معتادة
لجنس الانبياء او لجنس الصالحين الذين يتبعون الانبياء فهي مستلزما لصدق مدعى النبوة

فانها اذا لم تكن الانبي او من يتبعه لزم ان يكون من احد القسمين والكاذب في دعوى النبوة ليس واحدا منها فالتابع للانبياء الصالح لا يكذب في دعوى النبوة قط ولا يدعيها الا وهو صادق كالانبياء المتبعين لشرع موسى فاذا كان آية نبي احياء الله الموتي لم يمتنع ان يحيي الله الموتي نبي آخر او ان يتبع الانبياء كما قد احيى الميت لغير واحد من الانبياء ومن تبعهم وكان ذلك آية على نبوة محمد ﷺ ونبوة من قبله اذا كان احياء الموتي مختصا بالانبياء واتباعهم وكذلك ما يفعله الله من الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل كنزريق فرعون واهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية واهلاك قوم صالح بالصيحة وامثال ذلك فان هذا جنس لم يعذب به الا من كذب الرسل فهو دليل على صدق الرسل وقد يمت الله بعض الناس بانواع معاناة من البأس كالطواعين ونحوها لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل اما ما عذب الله به مكذبي الرسل فمختص بهم ولهذا كان من آيات الله كما قال (واتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا) وكذلك ما يحدثه من اشراط الساعة كظهور الدجال وأجوج وظهور الدابة وطلوع الشمس من مغربها بل والنفخ في الصور وغير ذلك هو من آيات الانبياء فانهم اخبروا به قبل ان يكون فكذبهم المكذبون فاذا ظهر بعد مئين او الوف من السنين كما اخبروا به كان هذا من آيات صدقهم ولم يكن هذا الا نبي او لمن يخبر عن نبي والخبر عن النبي هو خبر النبي ولهذا كان وجود ما اخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوته اذا ظهر الخبر به كما كان اخبر فيما مضى عرف صدقه فيما اخبر به اذ كان هذا وهذا لا يمكن ان يخبر به الا نبي او من اخذ عن نبي وهو لم يأخذ عن احد من الانبياء شيئا فدل على نبوته ولهذا يحتاج الله له في القرآن بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع .

واخبار الكهان فيها كذب كثير والكاهن قد عرف انه يكذب كثيرا مع فجوره قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثم يلقون السمع او أكثرهم كاذبون) والكهانة جنس معروف ومعروف ان الكاهن يتلقى عن الشيطان ولا بد من كذبهم وفجورهم والنبي لا يكذب قط ولا يكون الا برا تقيا فالفرق بينها

ثابت في نفس صفاتها وافعالها وآياتها لا يقول عاقل ان مجرد ما يفعله الكاهن هو دليل ان اقترن بصادق وليس بدليل اذا لم يقترن بصادق وانه متى ادعاه كاذب لم يظهر على يده وهذا ايضا باطل ^١ ويظهر بالوجه السادس وهو انه قد ادعى جماعة من الكذابين النبوة وأتوا بخوارق من جنس خوارق الكهان والسحرة ولم يعارضهم احد في ذلك المكاف والزمان وكانوا كاذبين فبطل قولهم ان الكذاب اذا اتى بمثل خوارق السحرة والكهان فلا بد ان يمنعه الله ذلك الخارق او يقيض له من يعارضه وهذا كالا سود العيسى الذي ادعى النبوة باليمن في حياة النبي ﷺ واستولى على اليمن و كان معه شيطان سحيق ومحيق وكان يخبر بأشياء غائبة من جنس أخبار الكهان وما عارضه أحد وعرف كذبه بوجوده متعددة وظهر من كذبه وفجوره ما ذكره الله بقوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أئيم) وكذلك مسيلمة الكذاب وكذلك الحارث الدمشقي ومكحول الحلبي وبابا الرومي لعنة الله عليهم وغير هؤلاء كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان ^٢

السابع : أن آيات الانبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالاثبات بمثلها بل هي دليل على نبوته وان خلت عن هذين القيدتين وهذا كاخبار من تقدم بنبوة محمد فانه دليل على صدقه وان كان هو لم يعلم بما أخبروا به ولا يستدل به وأيضا فما كان يظهره الله على يديه من الآيات مثل تكثير الطعام والشراب مرار كنبع الماء من بين أصابعه غير مرة وتكثير الطعام القليل حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجا اليه وغير ذلك كله من دلائل النبوة ولم يكن يظهرها للاستدلال بها ولا يتحدى بمثلها بل لحاجة المسلمين اليها وكذلك لقاء الخليل في النار انما كان بعد نبوته ودعائه لهم الى التوحيد ^٣

الثامن: ان الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلا الى علم فهو دليل وان لم يستدل به أحد فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل به النبي أو لم يستدل وما لا يدل اذا لم يستدل به لا يدل اذا استدل به ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلا اذا استدل به مدع لدلالته ^٤

التاسع أن يقال آيات الانبياء لا تكون الا خارقة للعادة ولا تكون مما يقدر

أحد على معارضتها فاختصاصها بالنبي وسلامتها عن المعارضة شرط فيها بل وفي كل دليل فانه لا يكون دليلاً حتى يكون مختصاً بالمدلول عليه ولا يكون مختصاً الا اذا سلم عن المعارضة فلم يوجد مع عدم المدلول عليه مثله والا اذا وجد هو أو مثله بدون المدلول لم يكن مختصاً فلا يكون دليلاً لكن كما أنه لا يكفي مجرد كونه خارقاً لعادة أولئك القوم دون غيرهم فلا يكفي أيضاً عدم معارضة أولئك القوم بل لابد أن يكون مما لم يعتده غير الانبياء فيكون خارقاً لعادة غير الانبياء متى عرف أنه يوجد لغير الانبياء بطلت دلالاته ومتى عارض غير النبي النبي بمثل ما أتى به بطل الاختصاص وما ذكره المعتزلة وغيرهم كابن حزم من أن آيات الانبياء مختصة بهم كلام صحيح لكن كرامات الا ولياء هي من دلائل النبوة فانها لا توجد الا لمن اتبع النبي الصادق فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبي من الغيب وأما ما يأتي به السحرة والكهان من العجائب فتلك جنس معتاد لغير الانبياء وأتباعهم بل الجنس معروف بالكذب والفجور فهو خارق بالنسبة الى غير أهله وكل صناعة فهي خارقة عند غير أهلها ولا تكون آية وآيات الانبياء هي خارقة لغير الانبياء وان كانت معتادة للانبياء

العاشر : ان آيات الانبياء خارجة عن مقدور من أرسل الانبياء اليه وهم الجن والانس فلا تقدر الانس والجن أن يأتوا بمثل معجز الانبياء كما قال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وأما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك فان الملائكة انما تنزل على الانبياء لا تنزل على السحرة والكهان كما أن الشياطين لا تنزل على الانبياء والملائكة لا تكذب على الله فاذا كانت الآيات من أفعال الملائكة مثل أخبارهم للنبي عن الله بالغيب ومثل نصرهم له على عدوه واهلاكهم له نصر أو هلاكاً خارجين عن العادة كما فعلته الملائكة يوم بدر وغيره وكما فعلت بقوم لوط وكما فعلت بمريم والمسيح ونحو ذلك وكما تيانهم لسليمان بعرش بلقيس فقد روى أن الملائكة جاءت به وهي أقدر من الجن لم يكن هذا خارجاً عما اعتاده الانبياء بل هذا ليس لغير الانبياء فلا يقول أن غير الانبياء اعتادوه فنقضت عادتهم بل هذا لم يعتده الا الانبياء وهو مناقض لجنس عادات الادميين بمعنى انه الا يوجد فيما اعتاده بنو آدم في جميع الاصناف غير الانبياء كما اعتادوا

العجائب من السحر والكهانة والصناعات العجيبة وما يستعينون عليه بالجن والانس والقوى الطبيعية مثل الطلاسم وغيرها فكل هذا معتاد معروف لغير الانبياء وهؤلاء جعلوا الطلاسم من جنس المعجزات وقالوا لو أتى بها نبي لكانت آية له وإذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز وان ادعاها كاذب سلبه الله علمها أو قيص له من يعارضه وهذا قول قبيح فانه لو جعل شيء من معجزات الانبياء وآياتهم من جنس ما يأتي به ساحر أو كاهن أو مطلق أو مخدوم من الجن لاستوى الجنسان ولم يكن فرق بين الانبياء وبين هؤلاء ولم يتميز بذلك النبي من غيره وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبي وخصائص آياته كما أن المتفلسفة أبعد منهم عن الايمان فجعلوا للنبوة ثلاث خصائص حصول العلم بلا تعلم وقوة نفسه المؤثرة في هيولى العالم وتخيل السمع والبصر وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس ولم يفرقوا بين النبي والساحر الابان هذا بر وهذا فاجر والقاضي أبو بكر وأمثاله يجعلون هذا الفرق سمعيا والفرق الذي لابد منه عندهم الاستدلال بها والتحدى بالمثل وكل من هؤلاء وهؤلاء ادخلوا مع الانبياء من ليس بنبي ولم يعرفوا خصائص الانبياء ولا خصائص آياتهم فلزمهم جعل من ليس بنبي نبيا أو جعل النبي ليس بنبي اذ كان ما ذكره في النبوة مشترك بين الانبياء وغيرهم فمن ظن انه يكون لغير الانبياء قدح في الانبياء ان يكون هذا هو دليلهم بوجود مثل ما جاءوا به لغير النبي ومن ظن أنه لا يكون الا لنبي اذا رأى من فعله من متنبئ كاذب وساحر وكاهن ظن أنه نبي والايمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والايمان والكفر ولم يميز بين الخطأ والصواب ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين مثل أبي حامد والرازي والآمدي وأمثالهم هذا ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها فلا يستدلون بها على الامور العلمية الخبرية وهي خاصة النبي وهو الاخبار عن الغيب والانباء به فلا يستدلون بكلام الله ورسوله على الانباء بالغيب التي يقطع بها بل عمدتهم ما يدعونهم من

العقليات المتناقضة ولهذا يقررون بالحيرة في آخر عمرهم كما قال الرازي ❦

نهاية اقدم العقول عقل واكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسامنا وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جهنما فيه قيل وقال
لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى غليلا ولا تروى
غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب)
(الرحمن على العرش استوى) واقرأ في النفي (ليس كمنه شيء) (ولا يحيطون به علما) ومن
جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي

الوجه الحادى نشر ان آيات الانبياء مما يعلم العقلاء انها مختصة بهم ليست مما تكون
لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلاً لغير الانبياء وسواء في آياتهم التي كانت في حياة
قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين اتباعهم وبين مكذبهم بنجاة هؤلاء وهلاك
هؤلاء ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم وذلك مثل تعريق الله
لجميع أهل الأرض الا لنوح ومن ركب معه في السفينة فهذا لم يكن قط في العالم نظيره
وكذلك اهلاك قوم عاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلاً في البلاد مع كثرتهم وقوتهم
وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلاً في البلاد ثم اهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة
سبع ليل وثمانية أيام حسوماً حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجا هود
ومن اتبعه فهذا لم يوجد نظيره في العالم وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن
في السهل والجبل وبساتين اهلكوا كلهم بصيحة واحدة فهذا لم يوجد نظيره في العالم
وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت الى السماء ثم قُذبت بهم واتبعوا بحجارة
من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله الا امرأته أصابها ما أصابهم فهذا لم يوجد
نظيره في العالم وكذلك قوم فرعون وموسى جعان عظيمان ينفرق لهم البحر كل فرق
كالطود العظيم فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين فاذا سلك الآخرون انطبق عليهم
الماء فهذا لم يوجد نظيره في العالم فهذه آيات تعرف العقلاء عموماً انها ليست من جنس
ما يوت به بنو آدم وقد يحصل لبعض الناس طاعون وبعضهم جذب ونحو ذلك وهذا
مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر بل كل حادث من آيات الله تعالى
ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد وكذلك الكعبة قلعتها بيت من حجارة
بواد غير ذى زرع ليس عندها أحد يحفظها من عدو ولا عندها بساتين وأمور يرغب
الناس فيها فليس عندها رغبة ولا رهبة ومع هذا فتمسد حفظها بالهوية والعظمة فكل

من يأتيها يأتيها خاضعاً ذليلاً متواضعاً في غاية التواضع وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها
 الناس من أقطار الأرض حجة وشوقاً من غير باعث دنيوى وهي على هذه الحال من
 ألوف من السنين وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية [١] غيرها والملوك يبنون القصور
 العظيمة فتبقى مدة ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها وكذلك
 سائر العبادات قد تتغير حاله على طول الزمان وقد يستولى العدو عليه كما استولى على
 بيت المقدس والكعبة لها خاصة ليست لغيرها وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم فأنهم يظنون
 أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك وأن ما تبنى وتبقى فقه بنى بطالع سعيد فحاروا
 في طالع الكعبة إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح
 والعظمة والدوام والقهر والغلبة وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها
 قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل
 عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) قصدها جيش
 عظيم ومعهم الفيل فهرب أهلها منهم فبرك الفيل وامتنع من السير إلى جهتها وإذا
 وجهوه إلى غير جهتها توجه ثم جاءهم من البحر طير أبابيل أى جماعات في تفرقة
 فوجاً بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم
 فآيات الانبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول
 عليه لا يوجد مع عدمه لا يتحقق الدليل الا مع تحقق المدلول كما أن الحادث لا بد له
 من محدث فيمتنع وجود حادث بلا محدث ولا يكون المحدث الا قادراً فيمتنع وجود
 الاحداث من غير قادر والفعل لا يكون الا من عالم ونحو ذلك فكذلك ما دل على
 صدق النبي يمتنع وجوده الا مع كون النبي صادقاً ولم يجعلوا آيات الانبياء تدل دلالة
 عقلية مستلزمة للمدلول ولا تدل بجنسها ونفسها بل قال بعضهم قد تدل وقد لا تدل
 وقال آخرون تدل مع الدعوى ولا تدل مع عدم الدعوى وهذا يبطل كونها دليلاً
 وآخرون أرادوا تحقيق ذلك فقالوا تدل دلالة وضعية من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم
 تدل أن قصد الدلالة ولا تدل بدون ذلك فهي تدل مع الوضع دون غيره فيقال لهم وما
 يدل على قصد المتكلم هو أيضاً دليل مطرد يمتنع وجوده بدون المدلول ودلالته تعلم بالعقل

[١] بنية على وزن فعيلة كناية عن الكعبة يقول العرب لا ورب هذه البنية

جميع الأدلة تعلم بالمقد دلائلها على اندلول فان ذلك اللفظ أما يدل إذا علم أن المتكلم أراد بهذا المعنى وهذا قد يعلم ضرورة وقد يعلم نظراً فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة كما يعلم أحوال الإنسان بالضرورة فيفرق بين حمرة الخجل وصفرة الوجع وبين حمرة المحموم وصفرة المريض بالضرورة وقد يعلم نظراً واستدلالاً كما يعلم أن عادته إذا قال كذا أن يريد كذا وأنه لا ينقض عادته إلا إذا بين ما يدل على انتقاضها فيعلم هذا كما يعلم سائر العاديات مثل طلوع الشمس كل يوم والهلال كل شهر وارتفاع الشمس في الصيف وانخفاضها في الشتاء ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء واتباعهم وبين مكذبيهم قال تعالى (قد دخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين قلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) وقال تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فان هذه المعجائب والآيات التي للأنبياء تارة تعلم بمجرد الاخبار المتواترة وان لم نشاهد شيئاً من آثارها وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث كما قال تعالى (وعادا وثمود وقديين لكم من مساكنهم) وقال تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وقال تعالى (وانكم لتعمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى (ان في ذلك لايات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان في ذلك لاية للمؤمنين وان كان اصحاب الأيكة لظالمين فاتتقنا منهم وانهما لبامام مبين) أى لطريق موضح متبين لمن مر به آثارهم وهذه الاخبار كانت منتشرة متواترة في العالم وقد علم الناس انها آيات للأنبياء وعقوبة لمكذبيهم ولهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار كما قال مؤمن آل فرعون (يا قوم انى خاف مثل يوم الاخرة مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) وقال شعب (ويا قوم لايجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدى به وتتلى قوله (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) (وفأتوا بعشر سور مثله) (وبسورة)

مثله [وادعوا من استطعتم من دون الله] ويتلى قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فنفس اخبار الرسول بهذا في أول الامر وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقا يعجز الثقاتين عن معارضته وهذا لا يكون لغير الانبياء ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف والعرب والعجم وليس في الامم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال انه مثله وهذا يعرفه كل أحد وما من كلام تكلم به الناس وان كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى الا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكمة والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك وما وجد من ذلك شيء الا ووجد ما يشبهه ويقاربه والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم انه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته فلفظه آية ونظمه آية ، واخباره بالغيوب آية ، وأمره ونهيه آية ، ووعدده ووعيده آية ، وجلالاته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، واذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم . واذا قيل ان التوراة والانجيل والزبور لم يوجد لها نظير أيضاً لم يضرنا ذلك فانا قلنا ان آيات الانبياء لا تكون لغيرهم وان كانت لجنس الانبياء كالاخبار بغيب الله فهذه آية يشتركون فيها وكذلك احياء الموتي قد كان آية لغير واحد من الانبياء غير المسيح كما كان ذلك لموسى وغيره . وليس المقصود هنا ذكر تفضيل بعض الانبياء على بعض بل المقصود أن جنس الانبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء انها لم توجد لغيرهم فيعلمون أنها ليست لغيرهم لا عادة ولا خرق عادة بل اذا عبر عنها بأنها خرق عادة وبأنها من العجائب فالامر العجيب هو الخارج عن نظائره وخارق العادة ما خرج عن الامر المعتاد فالمراد بذلك أنها خارجة عن الامر المعتاد لغير الانبياء وأنها من العجائب الخارجة عن النظائر فلا يوجد نظيرها لغير الانبياء واذا وجد نظيرها سواء كان أعظم منها أو دونها لنبي فذلك تأكيد لها انها من خصائص الانبياء فان الانبياء يصدق بعضهم بعضاً فآية كل نبي آية لجميع الانبياء كما أن آيات أتباعهم آيات لهم أيضاً وهذا أيضاً من آيات الانبياء وهو تصديق بعضهم لبعض فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة

التي تكون لغير الانبياء كالسحرة والكهنة وأهل الطبائع والصناعات الا من يخالف بعضهم بعضاً فيما يدعوا اليه ويأمر به ويعادى بعضهم بعضاً وكذلك أتباعهم اذا كانوا من أهل الاستقامة فما أتى به الاول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم فما أتى به موسى والمسيح وغيرها من الآيات فهي آيات لنبوة محمد لاخبارهم بنبوته فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه وما أتى به محمد من الآيات فهو دليل على اثبات جنس الانبياء مطلقاً وعلى نبوة كل من سقى في القرآن خصوصاً اذا كان هذا مما أخبر به محمد ﷺ عن الله ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله وحينئذ فاذا قدر أن التوراة أو الانجيل أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والاخبار عن الغيوب والامر والنهي ونحو ذلك لم يناع في ذلك بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم وعلى نبوة من أخبروا بنبوته ومن قال انها ليست بمعجزة فان أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم كالقرآن فهذا ممكن وهذا يرجع الى أهل اللغة العبرانية . وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الاخبار عن الغيوب أو الامر والنهي فهذا لا ريب فيه ومما يدل على أن كتب الانبياء معجزة أن فيها الاخبار بنبوة محمد ﷺ قبل أن يبعث بمدة طويلة وهذا لا يمكن علمه بدون اعلام الله لهم وهذا بخلاف من أخبر بنبوته من الكهان والهواتفان هذا انما كان عند قرب منبعثه لما ظهرت دلائل ذلك واسترقته الجن من الملائكة فتحدثت به وسمعت الجن من أتباع الانبياء فالنبي الثاني اذا كان قد أخبر بما هو موجود في كتاب النبي الاول وقد وصل اليه من جهة لم يكن آية له فان العلماء يشاركونه في هذا . وأما اذا أخبر بقدر زائد لم يوجد في خبر الاول أو كان ممن لم يصل اليه خبر نبى غيره كان ذلك آية له كما يوجد في نبوة أشعيا وداود وغيرها من صفات النبي ما لا يوجد مثله في توراة موسى فهذه الكتب معجزة لما فيها من أخبار الغيب الذي لا يعلمه الا نبي وكذلك فيها من الامر والنهي والوعد والوعيد ما لا يأتي به الا نبي أو تابع نبى وما أتى أتباع الانبياء من جهة كونهم أتباعاً لهم مثل أمرهم بما أمروا به ونهيهم عما نهوا عنه ووعدهم بما وعدوا به ووعيدهم بما يوعدون به فانه من خصائص الانبياء والكذاب المدعى للنبوة (م ١٥ — النبوات)

لا يأمر بجميع ما أمرت به الانبياء وينهى عن كل ما نهوا عنه فان ذلك يفسد مقصوده وهو كاذب فاجر شيطان من أعظم شياطين الانس والذي يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الانبياء ونهوا عما نهوا عنه لان ذلك يناقض مقصودهم بل وان أمروا ببعض في ابتداء الامر من يخدعونه ويربطونه فلا بد أن يناقضوا فيما أمروا بما نهت عنه الانبياء ولا يوجبوا ما أمرت به الانبياء كما جرى مثل ذلك لمن ادعى النبوة من الكذابين ولمن أظهر موافقة الانبياء وهو في الباطن من المنافقين كما لاحد الباطنية الذين يظهرون الاسلام والتشيع ابتداء ثم انهم يستحلون الشرك والفواحش والظلم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعة فن أظهر خلاف ما أبطن وكان مطاعاً في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره فكيف بمن ادعى النبوة وأظهر انه صادق على الله وهو في الباطن كاذب على الله بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس يظهر حاله لمن خبره في مدة فان الجسد مطيع للقلب والقلب هو الملك المدبر له كما قال **عليه السلام** «ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب» فاذا كان القلب كاذباً على الله فاجراً كان ذلك أعظم الفساد فلا بد أن يظهر الفساد على الجوارح ، وذلك الفساد يناقض حال الصادق على الله وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وذكر أن آيات الانبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، وأن النبي الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس ، وبينهما من الفروق ما لا يحصى الا الله . فكيف يشبه هذا بهذا بل لهذا من دلائل صدقه ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن احصاؤه وكل من خص دلائل الصدق بشئ معين فقد غلط . بل آيات الانبياء هي من آيات الله الدالة على أمره ونهيه ووعدده ووعيدة . وآيات الله كثيرة متنوعة كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى . والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الامثال في ذلك وهو يسميها آيات وبراہین . وقد ذكرنا الفرق بين الآيات والمقاييس الكلية التي لا تدل الا على أمر كلي في غير هذا الموضع .

(الوجه الثاني عشر) أن ما يأتي به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات

والحيل وكل من ليس من أتباع الانبياء لا يكون الا من مقدور الانس والجن فما
يقدّر عليه الانس من ذلك هو وأنواعه والحيل فيه كثير . وما يقدر عليه الجن هو من
جنس مقدور الانس وانما يختلفون في الطريق . فان الساحر قد يقدر على أن يقتل
إنساناً بالسحر أو يمرضه أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجتمع أو
لا يمشي أو لا يتكلم ونحو ذلك ؛ وهذا كله مما يقدر الانس على مثله لكن بطرق
أخرى والجن يطبّرون في الهواء وعلى الماء ويحملون الاجسام الثقيلة كما قال العفريت
تسليمان (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) وهذا الجنس يكون لمن هو دون
الانس والجن من الحيوان كالطيور والحيتان والانس يقدر على جنسه ولهذا لم يكن
هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغير الانبياء فكثير من الناس تحمسه الجن بل شياطين
الجن وتطير به في الهواء وتذهب به الى مكان بعيد كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس
من اليمن الى مكان بعيد . ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً وليسوا صالحين بل فيهم
كفار ومنافقون وفساق وجهال لا يعرفون الشريعة والشياطين تحمّلهم وتطير بهم من
مكان الى مكان وتحملهم الى عرفات فيشهدون عرفات من غير احرام ولا تلبية ولا
طواف بالبيت وهذا الفعل حرام . والجهال يحسبون انه من كرامات الصالحين فتقطعه
الجن بمن يحب ذلك مكرراً به وخديعة أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال
بالشريعة وان كان له زهد وعبادة . وكذلك الجن كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من
أموال الناس من طعام وشراب ونفقة وماء وغير ذلك وهو من جنس ما يسرقه الانسى
ويأتى به الى الانسى لكن الجن تأتى بالطعام والشراب في مكان العدم ولهذا لم يكن مثل
هذا آية لنبي وانما كان النبي ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه وهذا
لا يقدر عليه لا انس ولا جن وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً وهذا لا يقدر عليه
لا الجن ولا الانس ولم يأت النبي ﷺ قط بطعام من الغيب ولا شراب وانما كان
هذا قد يحصل لبعض أصحابه كما أتى خبيب بن عدى وهو أسير بمكة بقطف من نخب
وهذا الجنس ليس من خصائص الانبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية وكانت تؤتى
بطعام فان هذا قد يكون من حلال فيكون كرامة يأتى به اما ملك واما جنى مسلم
وقد يكون حراماً فليس كل ما كان من آيات الانبياء يكون كرامة للصالحين وهؤلاء

يسوون بين هذا وهذا ويقولون الفرق هو دعوى النبوة والتحدى بالمثل وهذا غلط فان آيات الانبياء التي دلت على نبوتهم هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم مثل الاثبات بالقرآن ومثل الاخبار بأحوال الانبياء المتقدمين وأهمم والاخبار بما يكون يوم القيامة واشراط الساعة ومثل اخراج الناقة من الارض ومثل قلب العصا حية وشق البحر ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثله لغيره لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق كما يعاون الانس بعضهم بعضاً فاما طاعة مثل طاعة سليمان فهذا لم يكن لغير سليمان ومحمد ﷺ أعطى أفضل مما أعطى سليمان فانه أرسل الى الجن وأمروا أن يؤمنوا به ويطيعوه فهو يدعوهم الى عبادة الله وطاعته لا يأمرهم بمحذاته وقضاء حوائجه كما كان سليمان يأمرهم ولا يقهرهم باليد كما كان سليمان يقهرهم بل يفعل فيهم كما يفعل في الانس فيجاهدكم الجن المؤمنون وقيمون الحدود على منافقهم فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبي الملك كما كان سليمان يتصرف فيهم والصالحون من أمته المتبعون له يتبعونه فيما كان يأمر به الانس والجن وآخرون دون هؤلاء قد يستخدمون بعض الجن في مباحات كما قد يستخدمون بعض الانس وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم لا سيما ان كان بسبب غير مباح وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة من الظلم والفواحش فيقتلون نفوساً بغير حق ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة كما يحضرون لهم امرأة أو صبية أو يجذبونه اليه وآخرون يستخدمونهم في الكفر فهذه الامور ليست من كرامات الصالحين فان كرامات الصالحين هو ما كان سببه الايمان والتقوى لا ما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان وأيضاً فالصالحون سابقوهم لا يستخدمونهم الا في طاعة الله ورسوله ومن هو دون هؤلاء لا يستخدمهم الا في مباح وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام وان كانوا إنما خدموه لطاعته لله كما لو خدم الانس رجلاً صالحاً لطاعته لله ثم استخدمهم فيما لا يجوز فهذا بمنزلة من أنعم عليه بطاعته نعمة فصر فيها الى معصية الله فهو آثم بذلك وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة ثم قد يسلب الطاعة فيصير فاسقاً ومنهم من يتدعن دين الاسلام فقطاعة الجن للانسان ليست أعظم من طاعة الانس بل الانس

أجل وأعظم وأفضل وطاعتهم أنفع وإذا كان المطاع من الانس قد يطاع في طاعة الله فيكون محموداً مثاباً وقد يطاع في معصية الله فيكون مذموماً آثماً فكذلك المطاع من الجن الذي يطيعه الناس والمطاع من الانس قد يكون مطاعاً لصلاحه ودينه وقد يكون مطاعاً للملكه وقوته وقد يكون مطاعاً لنفعه لمن يخدمه بالمعاوضة فكذلك المطاع من الجن قد يطاع لصلاحه ودينه وقد يطاع لقوة وملك محمود أو مذموم ثم الملك اذا سار بالعدل حمد وان سار بالظلم فعاقبته مذمومة وقد يهلكه أعوانه فكذلك المطاع من الجن اذا ظلمهم أو ظلم الانس بهم أو غيرهم كانت عاقبته مذمومة وقد تقتله الجن أو تسلط عليه من الانس من يقتله وكل هذا واقع نعرف من ذلك من الوقائع ما يطول وصفه كما نعرف من ذلك من وقائع الانس ما يطول وصفه وليس آيات الانبياء في شيء من هذا الجنس ونبيننا صلى الله عليه وسلم لما أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى انما أسرى به ليرى من آيات ربه الكبرى وهذا هو الذي كان من خصائصه أن مسراه كان هذا كما قال تعالى [أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى] وقال تعالى [وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس] قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فهذا الذي كان من خصائصه ومن أعلام نبوته واما مجرد قطع تلك المسافة فهذا يكون لمن تجمعه الجن وقد قال العفريت لسليمان [أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك] وحمل العرش من انقصر من الين الى الشام أبلغ من ذلك وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بين المسجدين في ليلة ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الذي عنده علم من الكتاب ومن سليمان فكان الذي خصه الله به أفضل من ذلك وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته فالخاصة أن الاسراء لان ليريه من آياته الكبرى كما رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى: فهذا ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره والجن وان قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرון على اصعاده الى السماء واراته آيات ربه الكبرى فكان ما آتاه الله محمداً خارجاً عن قدرة الجن والانس وانما كان الذي حجب في معراجهم جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكان

المقصود من الاسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى ثم يحبر به الناس فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال [وما جعلنا الرؤية التي أريناك إلا فتنة للناس] أى محنة وابتلاء للناس لتمييز المؤمن عن الكافر وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به قال تعالى [ونحوفهم فايزيدهم الا طغياناً كبيراً] والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الاسراء وأنكروا أن يكون أسرى به الى المسجد الأقصى فلما سألوهم عن صفته فوصفه لهم وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك وصدقه من رآه منهم كان ذلك دليلاً على صدقه في السرى فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه وأخبر الله تعالى بالمسرى الى المسجد الأقصى لانهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك . وذكر انه رأى من آيات ربه الكبرى ولم يعين ما رآه وهو جبريل الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته وما يبين أن الذي أناه بالقرآن ملك لا شيطان كما قال في سورة اذا الشمس كورت [انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين] ثم قال [وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين] *

فصل

وما يبين ضعف طريقة هؤلاء أنهم قالوا المعجزات لا تدل بحجتها على النبوة بل يوجد مثل المعجز من كل وجه ولا يدل على النبوة كاشراط الساعة وكما يوجد للسحرة والكهان والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الانبياء فيما زعمه هؤلاء قالوا لكن الفرق أن هذا يدعى النبوة ويحتج بها ويتحداهم بالمثل فلا يقدر أحد على معارضته وأولئك لو ادعوا النبوة لمنعم الله منها وان كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها أو لقيض لهم من يعارضهم ولو عارضوا بها نبياً لمنعم الله اياها ليسلم دليل النبوة قالوا والمعجز انما يدل دلالة وضعية بالجعل والقصد كدلالة الالفاظ والعقد والخط والعلامات التي يجعلها الناس بينهم فيقال لهم هذه الامور كلها انما تدل اذا تقدم علم المدلول بها أن الدال

جهاها علامة كما يوكل الرجل وكيلا ويحمل بينه وبينه علامة اما وضع يده على ترقوته
واما وضع خصره واما وضع يده على رأسه فمن جاء بهذه العلامة علم أن موكله أرسله
فاما اذا لم يتقدم ذلك لم تكن دلالة جلية وضعية اصطلاحية وآيات الانبياء لم تتقدم
قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد قالوا هي تشبه ما اذا قال الرجل لموكله والرسول
لمرسله انك أرسلتني الى هؤلاء القوم فان كنت أرسلتني فقم واقعد ليعلموا انك أرسلتني
فاذا قام وقعد عقب طلب الرسول علم الحاضرون انه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله وأن
كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لامور أخرى فيقال لهم هنا لما علم الحاضرون انتقل
داع يدعوهم الا قصد التصديق علموا أنه قصد تصديقه ولهذا لو جوزوا قيامه لحاجة
عرضت أو حية أو عقرب وقعت في ثيابه أو لغير ذلك لم يجعلوا ذلك دليلا والسبب
والتقسيم مما يعلم به الدليل وإن لم يقصده الدليل حتى أن الرجل المشهور اذا خرج
في غير وقت خروجه المعتاد فقد يعرف كثير من الناس لاي شيء خرج لعلهم بانتفاء
غيره وأن خروجه له مناسب وإن لم يكن هنا أحد طلب الاستدلال فخرج الانسان
عن عادته قد يكون لاسباب فاذا اقترن بسبب صالح وعلم انتفاء غيره علم أنه لذلك
السبب وهذا انما يكون ممن يفعل لداع يدعوهم والرب تعالى عندهم لا يفعل لداع يدعوهم
فلزمهم اما ابطال أصلهم واما ابطال هذه الدلالة وأيضا فيقال لهم بل الدليل دل جنسه
وهو هذا الفعل الذي لم يفعل الا لهذا الطلب ومتى وجد هذا كان جنسه دليلا وليست
الدعوى جزءا من الدليل بل طلب الاعلام بهذا الفعل مع الفعل هو الدليل وهذا لو
قال فافعل ما يدل على صدقي وقام وقعد لم يدل على صدقه بخلاف ما اذا قال فقم
واقعد ولو قال فاطهر ما يدل على صدقي فلا بد أن يظهر ما يدل جنسه أنه دليل
نقول أو خط أو غير ذلك أو خلعة تختص بمثل ذلك ففرق بين أن يطلب فعلا معينا
أو دليلا مطلقا وهو اذا طلب فعلا معينا كقيام أو وضع يد على الرأس أو صلاة
ركعتين أو غير ذلك من الافعال دل على صدقه وإن كان ذلك معتادا له أن يفعله
فليس من شرط دلالاته أن يخرج عن عادته لكن شرط دلالاته ان يعلم أنه فعله لاجل
الاعلام بحيث لا يكون هناك سبب داع غير الاعلام وحينئذ فهو دل جنسه وكذلك
يقال الرب اذا خرق العادة لمدعى الرسالة عقب مطالبته بآية علم أن الله لم يخلق تلك

الادلة على صدقه فهذا يدل وهذا انما يتم مع كون الرب يفعل شيئاً لاجل شئ آخر
وحيث قد يكون من شرط الدليل مظالبة الطالب بدليل لا أن نفس الدعوى هي
جزء الدليل وفرق بين طلبه من الرب آية أو طلبهم منه آية وبين الدعوى فإظهار
ما يظهره الرب عقب طلبهم أو طلبه قد يقال فيه ان الطلب جزء الدليل وأنه لو أظهره
بدون الطلب لم يدل وأما نفس دعوى النبوة فليست جزءاً وعلى هذا فإذا قدر أنه
يفعل ذلك عند طلبه أو طلب غيره آية دل على صدقه لكن هذا يكون اذا علم أنه لم
يفعله الا لاعلام أولئك بصدقه وهذا لا يكون الا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره
ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة
بطل كونه دليلاً ولو كانت الدعوى جزءاً من الدليل لكانت المعارضة لا تكون الا مع
دعوى النبوة فلو أتوا بمثل القرآن من غير دعوى النبوة لم يكونوا عارضوه وهذا
خلاف ما في القرآن وخلاف ما أجمع المسلمون بل العقلاء والله أعلم وهم يسمون ما يكون
بقصد الدال كالكلام دليلاً وضعياً فالاقوال والافعال التي يقصد بها الدلالة كالعقد
وما يجعله الرجل علامة ونحو ذلك يسمونه دليلاً وضعياً ويسمون ما يدل مطلقاً دليلاً
عقلياً والاحجود أن يقال جميع الادلة عقلية بمعنى أن العقل اذا تصورهما علم أنها تدل
فان الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضياً الى العلم بالمدلول عليه وانما يكون
النظر الصحيح لمن يعقل دلالة الدليل فمن لم يعقل كون الدليل مستلزماً للمدلول لم
يستدل به ومن عقل ذلك استدل به فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هي في
المستدل لكن كونه عقلياً يرجع الى أن المستدل علمه بعقله وهذا صفة في المستدل لافيه
أو الاحجود أن يقال الدليل قد يدل بمجرد وقدر يدل بقصد الدال على دلالاته فالاول
لا يحتاج الى قصد الدلالة كما تقول النحاة ان الاصوات تدل بالطبع وتدل بالوضع
فالذى يدل بالطبع كالنخضة والسعال والبكاء ونحو ذلك من الاصوات وهذا ليس
كلاماً وحيث قد يدل بقصد الدال أحق بالدلالة ودلالاته أكل وهذا كانت دلالة
الكلام على مقصود المتكلم وهي دلالة سمعية أكل من جميع أنواع الادلة على مراده
وهو البيان الذي علمه الله الانسان وامتن بذلك على عباده فمنها ما يدل بمجرد ومنها
ما يدل بقصد الدال فإذا انضم اليه ما يعرف أنه قصد الدلالة دل فالدليل هنا في

الحقيقة قصد الدال للدلالة وهي دلالة لا تنتقض اذا لم يجوز عليه الكذب وانما الذى دل به على قصده هو دل بجملة دليلا لم يدل بمجردة فهو دليل بالاختيار لا بمجردة بالأقوال والافعال التى يقصد بها الدلالة تدل باختيار الدال بها لا بمجردها ودلالاتها تعلم بالعقل وقد يقتصر من العقل الى أكثر مما يقتصر اليه العقلى المجرد لانها تحتاج الى ان يعلم قصد الدال ولكن ما يحصل بها من الدلالة اوضح واكثر كالكلام وعلى هذا فاذا اريد تقسيمها الى عقلى ووضعى اى الى عقلى مجرد والى وضعى يحتاج مع العقل الى قصد من الدال فهو تقسيم صحيح، فالدال يعلم بمجرد العقل وهذا لا يحتاج مع العقل الى السمع أو غيره وحينئذ فاذا قيل فى السمعيات انها ليست عقلية اى لا يكفي فيها مجرد العقل بل لابد من انضمام السمع اليه وكذلك ذكر الرازى وغيره ان السمع المحض لا يدل لابد من العقل وهذا صحيح فان العقل شرط فى جميع العلوم التى تختص بالعقل والله اعلم ومما يلزم أولئك ان ما كان يظهر على يد النبي ﷺ فى كل وقت من الاوقات ليست دليلا على نبوته لانه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس بالاثبات بمثله بل لم ينقل عنه التحدى الا فى القرآن خاصة ولا نقل التحدى عن غيره من الانبياء مثل موسى والمسيح وصالح ولكن السحرة لما عارضوا موسى اطل معارضتهم وهذا الذى قالوه يوجب ان لا تكون كرامات الاولياء من جملة المعجزات وقد ذكر غير واحد من العلماء ان كرامات الاولياء معجزات لنبهم وهي من آيات نبوته وهذا هو الصواب لقصة أبى مسلم الخولاني وغيره مما جرى لهذه الامة من الايات ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين وعلى يد موسى واتباعه لانه جعل التحدى بالمثل جزءا من دليله وآيته فلا يكون دليلا حتى يتحداهم بالمثل بل قد علم ان نفس استدلال المستدل بالدليل يوجب اختصاصه بالمدلول عليه وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة فقد علم انه يقول انها مستازمة للمدلول عليه لا يوجد مع عدمه فلا يمكن أحدا أن يعارضها فيأتى بمثلا مع عدم المدلول عليه وهو لاء جعلوا من جملة الدليل دعوى النبوة والاحتجاج به والتحدى بالمثل ثلاثة أشياء وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل ودعوى النبوة هو الذى تقام عليه اليانة والذى تقام عليه الحجة ليس هو جزءا من الحجة

والدعوى تسمى مدلولاً عليها ونفس المدعى يسمى مدلولاً عليه وثبوت المدعى يسمى مدلولاً عليه والعلم بثبوته يسمى مدلولاً عليه فهنا دعوى النبوة وهنا النبوة المدعاة قبل ان يعلم ثبوتها وهنا ثبوتها في نفس الامر وهنا علم الناس بثبوتها وكذلك سائر الدعاوى فمن ادعى تحريم التبيذ المتنازع فيه فهنا دعواه التحريم ونفس التحريم هل هو ثابت أم متنفذ وثبوت التحريم في نفس الامر والعلم بالتحريم وكذلك من ادعى حقاً عند الحاكم فهنا دعواه الحق وهنا نفس المدعى وهو استحقاقه ذلك الحق وهنا ثبوت هذا الاستحقاق في نفس الامر وهنا العلم باستحقاقه فالينة والحجة يجب ان يقارن المدلول عليه الذي هو المدعى وثبوته في نفس الامر سواء ادعاء مدعى أولم يدعه وسواء علمه عالم أولم يعلمه فان الدليل مستلزم للمدلول عليه مستلزم لحرمة التبيذ واستحقاق الحق وثبوت الحرمة في نفس الامر مستلزم للحرمة واما مجرد الحرمة المتصورة فليست مستلزماً لوجودها في نفس الامر بل قد يتصور في الازهان ما لا يوجد في الاعيان والله أعلم

فصل

وقد ذكر القاضي أبوبكر أن من المثبتة المجيزين للكرامات من أجاب عن حجة النفاة بان قال الأدلة على ضربين عقلية ووضعية فالعقلية يدل لنفسه وجنسه والوضعية يدل مع المواطأة ولا يدل مثله مع عدمها كمقد العشرة وضعف أبوبكر هذا بان قال لهم ان يقولوا اذا كانت المعجزات تجري مجرى القول فحيث قصدت دلت وعنده ان الامر ليس كذلك قلت بل هذا القائل أحسن لانها تدل اذا قصدت بها الدلالة مثل قيام الامر وقعوده اذا طلب ذلك منه ومثل العلامة التي تكون للشخص اذا جعلها علامة فحيث قصد الدلالة به دل لكن لازم هذا ان لا يكون الا اذا طلب الاستدلال بها لانفس الدعوى ثم انه ذكر ان الخارق للعادة لا بد ان يكون خارقاً للعادة جميع المرسل اليهم ثم يجوز ان يكون مما اعتاده كثير منهم بمرط ان يمنعهم عن المعارضة فيكون ذلك خرق عادة ثم قال في الكرامات لا يجوز ان تكثر حتى تصير عادة لان من حق المعجز على قولنا وقولهم ان يكون خارقاً للعادة فلا يجوز ادامة ظهوره فيصير عادة بل يقع نادراً وقد جوزوا في السحر والكهانة ان يكون عادة لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة فكانت الكرامات اولى بذلك

هي عادة للصالحين واذا ادعى النبوة صادق منع من المعارضة فهذا اضطراب آخر
وادعى اجماع الامة على انها لا تظهر على فاسق ولولا الاجماع لجوز ذلك لانه لا ينقض
دليل النبوة فصارت تدل على الولاية بالاجماع على انها لا تظهر الا على يد نبي أو ولي
فبهذا الاجماع يعلم ان من ظهرت على يده ولي لله اذا لم يدع النبوة وهذا تناقض
من وجهين احدهما انهم قد قالوا انها لا تدل على الولاية لان الولي من مات على الايمان
وهذا غير معلوم . الثاني انه يقال اذا جوزت ان يظهر على يد الساحر والكاهن
ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات وقلت يجب ان لا يستثنى
من السحر شيء لا يفعل عنده الا ما ورد الاجماع والتوقيف على انه لا يكون بضرب
من السحر ولا يفعل عنده كفلق البحر ونحوه فيكون الفرق بين السحر وغيره انما
يعلم بهذا الاجماع ان ثبت والا فمضدك يجوز ان يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على
يد النبي اذا لم يدع النبوة ولا يحتاج بذلك اذا ادعى النبوة وعارضه معارض بالمثل
فكيف تقول مع هذا ان الخوارق تدل على الولاية بالاجماع وانت تجوز ظهورها على
ايدي الكفار من السحرة والكهان فان قال السحر والكهانة كانا قبل الرسول فلما
جاء بطلا قيل انت قد اثبت ان نفسه سحر بعد النبوة وان السحر كان على عهد الصحابة
وقتلوا الساحر وذكرت اجماع الفقهاء على ان السحر يكون من المسلمين واهل الكتاب
والساحر ليس بولي لله والسحر عندك هو من جنس الكرامات الجميع خارق للمادة
لم يستدل به على النبوة فكيف تقول مع هذا ان الخوارق لا تكون الا لنبي او ولي
وانت اثبتتها للكفار وهذا كله من جهة انه اخذ جنس الخوارق مشتركا فجوز ان
يكون للنبي وغير النبي مع قوله ان الخارق لا بد ان يكون خارقا لمادة جميع المرسل
اليهم ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة وحينئذ فاشتراط كونه خارقا ومختصا
بمقدور الرب باطل وهو قد حكي ان الاجماع على ان المعجز لا بد ان يكون خارقا
للمادة فقال: اعلموا رحمكم الله ان الكل من سائر الامم قد شرطوا في صفة المعجز ان
يكون خارقا للمادة ثم قال في فصول الكرامات

فصل

ويقال لهم ان من الناس من لا يشترط في الآيات المعجزة ان تكون خارقا للعادة وهذا كما ذكر اجماع الناس على انه لا يدل على صدق النبي الا المعجزات فقال في الاستدلال على انها لو لم تدل لزم عجز القديم اذ لا دليل بقول كل احداثيت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم الا ظهور المعجزة فهذا اجماع لا خلاف فيه فلو ظهرت على يد المتنبى لبطلت دلالة النبوة ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة اقوال في غير هذا الكتاب . وايضا فلا استدلال بالاجماع انما يكون بعد ثبوت النبوة فلا يحتاج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الاجماع وهؤلاء انما اوقعهم في هذه المناقضات ان القدرة يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه ويقولون لا يجوز ان يفعل كذا ولا ان يفعل كذا كقولهم لا يجوز ان يضل هذا فانا لو جوزنا عليه الاضلال لجاز ان يظهر المعجزات على ايدي الكذابين فان غايه ذلك انه اضلال واذا جاز ذلك لم يبق دليل على صدق الانبياء ولم يفرق بين الصادق والكاذب فعارضهم هؤلاء بان قالوا يجوز ان يفعل كل ممكن مقدور ليس يجب ان ينزه عن فعل من الافعال وليس في الممكنات ما هو قبيح او ظلم او سوء بل كل ذلك حسن وعدل فله ان يفعله فقيس لهم فحوزوا اظهار المعجزات على ايدي الكذابين ففتقوا لهم فتقا فقالوا هذا يلزم منه عجز الرب عن ان ينصب دليلا يدل على صدق النبي وان كان يمكنه ان يعرف صدقهم بالضرورة فذاك يوجب ان يعرفوا نفسه بالضرورة وهو يرفع التكليف والتحقيق ان اظهار المعجزات الدالة على صدق الانبياء على يد الكاذب لا يجوز لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه كما قاله الاشعري وقيل لان ذلك يتتبع في حكمة الرب وعدله وهذا اصح فانه قادر على ذلك لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق وهذا كما انه قادر على سلب العقول ولو فعل ذلك لبطلت العلوم وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة وقادر على ان لا يعرف بذلك ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب لكنه لا يفعل هذا المقدور ونحن نعلم بالاضطرار انه لا يفعل ذلك وانه لا يبعث انبياء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم

فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك وهو يسوى بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب بل قد علمنا من سنته انه لا يسوى في دلائل الصدق الكذب بين المحدث الصادق والكاذب والشاهد الصادق والكاذب وبين الذى يعامل الناس بالصدق والكاذب وبين الذى يظهر الاسلام صادقا والذى يظهره نفاقا وكذبا بل يميز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة كما يميز بين العادل وبين الظالم وبين الامين وبين الخائن فان هذا مفتضى سنته التى لا تبدل وحكمته التى هو منزّه عن نقيضها وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات وتفريقه بين المختلفات فكيف يسوى بين افضل الناس واكلمهم صدقا وبين اكذب الناس وشرهم كذبا فيما يعود الى فساد العالم في العقول والاديان والابضاع والاموال والدنيا والآخرة وقول القدر اذا جاز عليه اضلال من أضله جاز عليه اضلال بعض الناس يقال له اولاً ليس اظهار المعجزة على ايدى الكذابين من باب الاضلال بل لو ظهرت على يده لكنت لا تدل على الصدق فلم يكن دليلاً يفرق به بين الصدق والكذب وعدم الدليل يوجب عدم العلم بذلك الدليل لا يوجب اعتقاد نقيضه ولو كان لا يظهرها الا على يد كاذب لكنت انما تدل على الكذب فالاشتراك بين الصنفين يرفع دلائلها واختصاص احدهما بها يوجب دلائلها على المختص ويقال ثانياً تجوز اضلال طائفة معينة بمعنى انه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم واستدلالهم وقصدهم الحق وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده وانها تكذب الصادق ليس هو مثل اضلال العالم كله ورفع ما يعرف به الحق من الباطل بل مثال هذا مثل من قال اذا جاز ان يعنى طائفة من الناس جاز ان يعنى جميع الناس فلا يرى أحد شيئاً واذا جاز ان يصم بعض الناس جاز ان يصم جميعهم فلا يسمع احد شيئاً واذا جاز ان يزمن بعض الناس او يضل يديه جاز ازمان جميع الناس واشلال ايديهم حتى لا يقدر احد في العالم على شيء ولا يبطش بيده واذا جاز ان يحجن بعض الناس جاز ان يحجن جميعهم حتى لا يبقى في الارض الا محجنون لا عاقل واذا جاز ان يميت بعض الناس جاز ان يميتهم كلهم في ساعة واحدة مع بقاء العالم عن ما هو عليه وان يقال اذا جاز ان يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز ان يضل عن قبول كل حق حتى لا يصدق احداً في شيء ولا يقبل شيئاً مما يقال له فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينام

وان كل من اضل جازان يفعل به هذا كله وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما ومن سوى بين هذا وهذا كان مصابا في عقله وآيات الانبياء هي من هذا الباب فلو لم يميز بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به من اطاعهم سعد في الدنيا والآخرة ومن كذبهم شقى في الدنيا والآخرة وآخرين كذابين يبلغون عنه ما لم يقله ويأمرون بما نهى عنه وينهون عما امر به ومن اتبهم شقى في الدنيا والآخرة ولم يجعل لاحد سبيلا الى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء وهذا أعظم من ان يقال انه خلق أطعمة نافعة وسموما قاتلة ولم يميز بينهما بل كل ما اكله الناس جاز ان يكون من هذا وهذا ومعلوم ان من جوز مثل هذا على الله فهو مصاب في عقله ثم ان الله جعل الاشياء متلازمة وكل ملزوم هو دليل على لازمه فالصدق له لوازم كثيرة فان من كان يصدق ويتحرى الصدق كان من لوازمه انه لا يعتمد الكذب ولا يخبر بخبرين متناقضين عمدا ولا يبطن خلاف ما يظهر ولا يأتي هؤلاء بوجه هؤلاء بوجه ولا يخون امانته ولا يجحد حقا هو عليه الى امثال هذه الامور التي يمتنع ان تكون لازمة للصدق فاذا انتفت انتفى الصدق واذا وجدت كانت مستلزمة لصدقه والكاذب بالعكس لوازمه بخلاف ذلك وهذا لان الانسان حتى ناطق والنطق من لوازمه الظاهرة لبي جثسه ومن لوازم النطق الخبر فانه الزم له من الامر والطلب حتى قد قيل ان جميع انواع الكلام يعود الى الخبر فلزم ان يكون من لوازم الانسان اخباره وظهور اخباره وكثرته وان هذا لا بد من وجوده حيث كان وحينئذ فاذا كان كذابا عرف الناس كذبه لكثرة ما يظهر منه من الخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من احوال نفسه وغيره ومما رآه وسمعه وقيل له في الشهادة والغيب ولهذا كل من كان كاذبا ظهر عليه كذبه بعد مدة سواء كان مدعيا للنبوة او كان كاذبا في العلم ونقله او في الشهادة او في غير ذلك وان كان مطلقا كان ظهور كذبه اكثر لما فيه من الفساد وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر ويروى وفقير مختال ولهذا كثير من اهل الدول كانوا يتواصون بالكذب وكتمان امورهم ثم يظهر كالقراطة ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذب والكتمان من غير تواطىء لما جعل الله في النفوس من الداعي الى الصدق والبيان

يجعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا ولم يعرف قط في بني آدم انه اشتبه صادق بكاذب الامدة قليلة ثم يظهر الامر وليس هذا كالضلال في امور خفية ومشتبهة على اكثر الناس فان التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامة بعد مدة ولا يطول اشتباه ذلك عليهم وانما يشبه الامر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب بل أخطأ أصحابه فآخذ عنهم تقليدا لهم واما مع كون أصحابه يتصدون الكذب فهذا لا يخفى على عامة الناس *

فصل

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الانبياء وغيرها وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى في الاول ان النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد ان يكذب كما قال (هل انبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم). الثاني من جهة ما يأمر به هذا ويفعله ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله فان الانبياء لا يأمرون الا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده واعمالهم البر والتقوى ومخافتهم يأمرون بالشرك والظلم ويعظمون الدنيا وفي أعمالهم الاثم والعدوان. الثالث ان السحر والكهانة ونحوها امور معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقه لعادتهم وآيات الانبياء لا تكون الا لهم ولما اتبعهم. الرابع ان الكهانة والسحر يناله الانسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا محرب عند الناس بخلاف النبوة فانه لا ينالها احدا بكتسابه. الخامس ان النبوة لو قدر انها تنال بالكسب فانما تنال بالاعمال الصالحة والصدق والعدل والتوحيد لا تحصل مع الكذب على من دون الله فضلا عن ان تحصل مع الكذب على الله فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به. السادس ان ما يأتي به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدورا للجن والانس وهم مأمورون بطاعة الرسل وآيات الرسل لا يقدر عليها الا جن ولا انس بل هي خارقة لعادة كل من ارسل النبي اليه (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم بمؤمض ظهيرا). السابع ان هذه يمكن ان تعارض بمثابا وآيات الانبياء لا يمكن احدا ان

يعارضها بمثلها . الثامن ان تلك ليست خارقة لعادات بنى آدم بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الانبياء وأما آيات الانبياء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدقهم . التاسع ان هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم كاتزل القرآن وتكليم موسى وتلك تقدر عليها الجن والشياطين . العاشر انه اذا كان من الايات ما يقدر عليه الملائكة فان الملائكة لا تكذب على الله ولا تقول لبشر ان الله ارسلك ولم يرسله وانما يفعل ذلك الشياطين والكرامات متادة في الصالحين منا ومن قبلنا ليست خارقة لعادة الصالحين وآيات الانبياء خارقة لعادة الصالحين وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ومعجزات الانبياء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس حتى يأذن الله فيها قل انما الايات عند الله قل ان الله قادر على ان ينزل آية . الحادى عشر ان النبى قد تقدمه انبياء فهو لا يأمر الا بحسن ما امرت به الرسل قبله فله نظراء يعتبر بهم وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم . الثانى عشر ان النبى لا يأمر الا بمصالح العباد في المعاش والمعاد فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيأمر بالتوحيد والاخلاص والصدق وينهى عن الشرك والكذب والظلم فالعقوب والفطرتوافقه كاتوافقه الانبياء قبله فيصدق صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به والله اعلم .

فصل

ومن تدبر هذا وغيره تبين له ان جميع ما ابتدعه المتكلمون وغيرهم مما يخالف الكتاب والسنة فانه باطل ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة لا يعرف ما الذى يوافق الكتاب والسنة وما الذى يخالفه كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكلام في أصول الدين وفي الرأى والتصوف وغير ذلك فكثير منهم قد اتبع طائفة يظنون أن ما يقولونه هو الحق وكلهم على خطأ وضلال ولقد أحسن الامام أحمد في قوله في خطبته وان كانت مأثورة عن تقدم الحمد لله الذى جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الاذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكمن قتل لابلis قد أحيوه وكمن ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف

العالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا الوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم كما قال مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وتصديق ما ذكره أنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم بل لكل طائفة أصول دين لهم فهي أصول دينهم الذي هم عليه ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله وأُتِلَ به كتابه وما هم عليه من الدين ليس كله موافقاً لارَسُول ولا كله مخالفاً له بل بعضه موافق وبعضه مخالف بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة لارَسُول من بعض وبعضها أظهر مخالفة ولكن الظهور أمر نسبي فن عرف السنة ظهرت له مخالفة من خالفها فقد تظاهر مخالفة بعضهم للسنة لبعض الناس لعلمه بالسنة دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو وقد تكون السنة في ذلك معلومة عند جمهور الأمة فتظهر مخالفة من خالفها كما تظاهر لاجمهور مخالفة الرافضة للسنة وعند الجمهور هم المخالفون للسنة فيقولون أنت سني أو رافضي وكذلك الحوارج لما كانوا أهل سيف وقتال ظهرت مخالفتهم للجماعة حين كانوا يقاتلون الناس وأما اليوم فلا يعرفهم أكثر الناس وبدع القدرية والمرجئة ونحوهم لا تظاهر مخالفتها بظهور هذين وهاتان البدعتان ظهرت لما قتل عثمان في الفتنة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وظهرت الحوارج بمفارقة أهل الجماعة واستحلال دمائهم وأموالهم حتى قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متبعاً في ذلك لأمر النبي ﷺ قال الامام أحمد بن حنبل صح الحديث في الحوارج من عشرة أوجه وهذه قدر رواها صاحب مسلم بن الحجاج في صحيحه وروى البخاري قطعة منها وانفقت الصحابة على قتال الحوارج حتى أن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقة كسعد وغيره

(م ١٧ — النبوات)

من السابقين ولهذا لم يبايعوا لاحداً في الجماعة قال عند الموت ما أسي على شيء الا على اني لم أقاتل الطائفة الباغية مع علي يريد بذلك قتال الخوارج والافهوا لم يبايع لالعلي ولا غيره ولم يبايع معاوية الا بعد ان اجتمع الناس عليه فكيف يقاتل احدي الطائفتين وانما اراد المارقة التي قال فيها النبي ﷺ تمرق مارقة على حين فرقة من الناس يقتلهم أدنى الطائفتين الى الحق وهذا حدث به أبو سعيد فلما بلغ ابن عمر قول النبي ﷺ في الخوارج وأمره بقتالهم تحسر على ترك قتالهم فكان قتالهم ثابتاً بالسنة الصحيحة الصريحة وباتفاق الصحابة بخلاف فتنة الجمل وصفين فان اكثر السابقين الاولين كرهوا القتال في هذا وهذا وكثير من الصحابة قاتلوا إما من هذا الجانب وإما من هذا الجانب فكانت الصحابة في ذلك على ثلاثة أقوال لكن الذي دلت عليه السنة الصحيحة أن علي بن أبي طالب كان أولى بالحق وان ترك القتال بالكلية كان خيراً وأولى ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «تمرق مارقة على حين فرقة من الاسلام يقتلهم أولى الطائفتين بالحق وقد ثبت عنه أنه جعل القاعد فيها خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي» وانه أتى علي من صالح ولم يثن علي من قاتل ففي البخاري وغيره عن أبي بكر أن النبي ﷺ قال عن الحسن أن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين فأتى علي الحسن في اصلاح الله به بين الفئتين وفي صحيح مسلم وبعض نسخ البخاري ان النبي ﷺ قال لعمار «تقتلك الفئة الباغية» وفي الصحيحين أيضاً أنه قال «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» قال معاذ وهم بالشام وفي صحيح مسلم عنه أنه قال «لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم» قال احمد بن حنبل وغيره أهل المغرب أهل الشام أي انها أول المغرب فان التعريب والتشريق أمر نسبي فلكل بلد غرب وشرق وهو ﷺ تكلم بمدينته فما تغرب عنها فهو غرب وما تشرق عنها فهو شرق وهي مسامطة أول الشام من ناحية الفرات كما ان مكة مسامطة لحران وسميساط ونحوها وتصويب قتالهم ان كان بعد اصلاح فلم يقع الاصلاح وان كان عند بغيتهم في الاقتتال وان لم يكن اصلاح فهو لاء البغاة لم تكن في اصحاب علي من يقاتلهم بل تركوا قتالهم اما عجز او امان فريطا فترك الاصلاح المأمور به وعلى هذا قوتلوا ابتداء قتالا غير مأمور به ولما صار قتالهم مأمورا به لم يقاتلوا القتال بأمر به بل نكل أصحاب علي عن القتال اما عجزا واما تفريطا والبغاة المأمور بقتالهم

الذين بغوا بعد الاقتال وامتنعوا من الاصلاح المأمور به فصاروا بغاة مقاتلين والبغاة اذا ابتدأوا
 بالقتال جاز قتالهم بالاتفاق كما يجوز قتال الغواة قطاع الطريق اذا قاتلوا باتفاق
 الناس فأما الباغي من غير قتال فليس في النص ان الله أمر بقتاله بل الكفار انما يقتلون
 بشرط الحراب كما ذهب اليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة كما هو مبسوط
 في موضعه والصديق قاتل المرتدين الذين ارتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه
 وهم أنواع منهم من آمن بمنبئ كذاب ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الاسلام التي
 أقربها مع الرسول ومنهم من ترك الاسلام بالسكينة ولهذا تسمى هذه وأهلها من
 الحروب بين المسلمين فتناً كما سماها النبي ﷺ والملاحم ما كان بين المسلمين والكفار
 وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا أن الخوارج ظهرُوا في الفتنة وكفروا عثمان
 وعلياً ومن والاهما وباينوا المسلمين في الدار وسموا دارهم دار الهجرة وكانوا كما وصفهم
 النبي ﷺ يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الاوثان وكانوا أعظم الناس صلاة
 وصياماً وقراءة كما قال النبي ﷺ « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم
 وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق
 السهم من الرمية » ومروقيهم منه خروجهم باستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم . فانه قد
 ثبت عنه في الصحيح أنه قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من
 هجر ما نهى الله عنه » وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم فخرجوا منه ولم يحكم على
 وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين بل جعلوهم مسلمين . وسعد بن أبي وقاص
 وهو أفضل من كان قد بقي بعد علي وهو من أهل الشورى واعتزل في الفتنة فلم
 يقاتل لا مع علي ولا مع معاوية ولكنه ممن تكلم في الخوارج وتأول فيهم قوله (وما يضل
 به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل
 ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) وحدث أيضاً طوائف الشيعة الالهية
 الغلاة فرفع الى على منهم طائفة ادعوا فيه الالهية فأمرهم بالرجوع فأصروا فأمرهم
 ثلاثاً ثم أمر بأخاديد من نار فخذت وألقاهم فيها فرأى قتلهم بالنار . وأما ابن عباس
 فقال لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار لنهى رسول الله ﷺ أن يعذب بعذاب الله ولم ضربت
 أعناقهم لقوله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » رواه البخاري وأكثر الفقهاء

على قول ابن عباس . وروى أنه بلغه أن ابن السوداء يسب أبا بكر وعمر فطلب قتله فهرب منه فاما قتله على السب أو لانه كان متهماً بالزندقة . وقيل انه هو الذى ابتدع بدعة الرافضة وأنه كان قصده افساد دين الاسلام وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين والذين يسبون أبا بكر وعمر فيهم زندق كالاسماعيلية والنصيرية فهؤلاء يستحقون القتل بالاتفاق وفيهم من يعتقد بنبوته النبي ﷺ كالامامية فهؤلاء في قتلهم نزاع وتفصيل. هذا كور في غير هذا الموضع . وتواتر عن علي بن أبي طالب أنه قال « خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » وهذا متفق عليه بين قدماء الشيعة وكلهم كانوا يفضلون أبا بكر وعمر . وانما كان النزاع في علي وعثمان حين صار لهذا شيعة ولهذا شيعة وأما أبو بكر وعمر فلم يكن أحد يتشيع لهما بل جميع الامة كانت متفقة عليهما حتى الخوارج فانهم يتولونهما وانما يتبرءون من علي وعثمان . وروى أن معاوية قال لابن عباس أنت على ملة علي أم عثمان قال لا على ملة علي ولا عثمان أنا على ملة رسول الله ﷺ . وكان كل من الشيعتين يذم الآخر بما برأه الله منه فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في علي بالباطل وبعض شيعة علي يتكلمون في عثمان بالباطل والشيعتان مع سائر الامة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر . قيل لشريك بن عبدالله القاضي أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر فقال كل شيعة على علي هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر أفكنا نكذبه والله ما كان كذاباً . وقد روى البخارى في صحيحه من حديث محمد ابن الحنفية أنه قال له يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ؟ فقال يابني أو ما تعرف ؟ قال لا ! قال أبو بكر قال ثم من قال ثم عمر وهو مروى من حديث الهمدانيين شيعة علي عن أبيه . وروى عن علي أنه قال ::

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وقد روى عنه أنه قال « لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر الا جلده حد . المفترى » وقد ثبت عن علي رضى الله عنه بالاحاديث الثابتة بل المتواترة أنه قتل الغالية كالذين يعتقدون الهية بعد أن استتابهم ثلاثاً كسائر المرتدين وأنه كان يبالغ في عقوبة من يسب أبا بكر وعمر وأنه كان يقول انهما خير هذه الامة بعد نبيها وهذا مبسوط في مواضع . والمقصود هنا أن هاتين البدعتين حدثتا في ذلك الوقت ثم في

آخر عصر الصحابة حدثت القدرية وتكلم فيهم من بقي من الصحابة كابن عمر وابن عباس ووائل بن الاسقع وغيرهم . وحدثت أيضاً بدعة المرجئة في الايمان والآثار عن الصحابة ثابتة بمخالفتهم وانهم قالوا الايمان يزيد وينقص كما ثبت ذلك عن الصحابة كما هو مذکور في موضعه . وأما الجهمية نفاة الاسماء والصفات فانما حدثوا في أواخر الدولة الأموية وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين وسبعين فرقة منهم يوسف بن أسباط وعبدالله بن المبارك قالوا أصول البدع أربعة : الخوارج ، الشيعة ، والقدرية ، والمرجئة . فقليل لهم الجهمية فقالوا ليس هؤلاء من أمة محمد . ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد وغيرهم هل هم من الثنتين وسبعين على قولين ذكرهما عن أصحاب أحمد أبو عبدالله بن حامد في كتابه في الأصول والتحقيق ان التجهم المحض وهو نفي الاسماء والصفات كما يحكى عن جهم والغالية من الملاحدة ونحوهم من نفي اسماء الله الحسنی كفر بين مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول وأما نفي الصفات مع اثبات الاسماء كقول المعتزلة فهو دون هذا لكنه عظيم أيضاً وأما من أثبت الصفات المعلومه بالعقل والسمع وانما نازع في قيام الامور الاختيارية به كابن كلاب ومن اتبعه فهؤلاء ليسوا جهمية بل وافقوا جهماً في بعض قوله وان كانوا خالفوه في بعضه وهؤلاء من أقرب الطوائف الى السلف وأهل السنة والحديث وكذلك السالمية والكرامية ونحو هؤلاء يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة فيثبتون الاسماء والصفات والقضاء والقدر في الجملة ليسوا من الجهمية والمعتزلة النفاة للصفات وهم أيضاً يخالفون الخوارج والشيعة فيقولون باثبات خلافة الاربعة وتقديم أبي بكر وعمر ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار لكن الكرامية والكلابية وأكثر الاشعرية مرجئة وأقربهم السكلابية يقولون الايمان هو التصديق بالقلب والقول باللسان والاعمال ليست منه كما يحكى هذا عن كثير من خقهاء الكوفة مثل أبي حنيفة وأصحابه . وأما الاشعرى فالعروف عنه وعن أصحابه انهم يوافقون جهماً في قوله في الايمان وأنه مجرد تصديق القلب أو معرفة القلب لكن قد يظهرون مع ذلك قول أهل الحديث ويتأولونه ويقولون بالاستثناء على الموافاة فليسوا موافقين لجهم من كل وجه وان كانوا أقرب الطوائف اليه في الايمان وفي التقدير أيضاً فانه رأس الخيرية يقول ليس لأبعد فعل البتة والانعري يوافقه على أن

العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثره في الفعل ولكن يقول هو كاسب وجههم لا يثبت له شيئاً لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس انه لا يعقل فرق بين الفعل الذي نفاء والكسب الذي أثبتته وقالوا عجائب الكلام ثلاثة طفرة النظام وأحوال أبي هاشم وكسب الاشعري وأنشدوا :

مما يقال ولا حقيقة عنده ^{من} معقولة تدنو الى الافهام
الكسب عند الاشعري والحال ^{من} ل عند البهشمي وطفرة النظام

وأما الكرامية فلمهم في الايمان قول ما سبقهم اليه أحد قالوا هو الاقرار باللسان وان لم يعتقد بقلبه وقالوا المنافق هو مؤمن ولكنه مخذل في النار وبعض الناس يحكي عنهم أن المنافق في الجنة وهذا غلط عليهم بل هم يجعلونه مؤمناً مع كونه مخذلاً في النار فينازعون في الاسم لا في الحكم . وقد بسط القول على منشا الغلط حيث ظنوا أن الايمان لا يكون الا شيئاً متائلاً عند جميع الناس اذا ذهب بعضه ذهب سائرهم ثم قالت الخوارج والمعتزلة وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات فاسم المؤمن مثل اسم البر والتقوى وهو المستحق للثواب فاذا ترك بعض ذلك زال عنه اسم الايمان والاسلام ثم قالت الخوارج ومن لم يستحق هذا ولا هذا فهو كافر وقالت المعتزلة بل ينزل منزلة بين المنزلتين فنسميه فاسقاً لا مسلماً ولا كافراً ونقول انه مخذل في النار وهذا هو الذي امتازت به المعتزلة والا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم فهم وافقوا الخوارج في حكمه ونازعوه ونازعوا غيرهم في الاسم وقالت الجهمية والمرجئة بل الاعمال ليست من الايمان لكنه شيئان أو ثلاثة يتفق فيها جميع الناس التصديق بالقلب والقول باللسان أو المحبة والخضوع مع ذلك . وقالت الجهمية والاشعرية والكرامية بل ليس الا شيئاً واحداً يتماثل فيه الناس . وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم ظنهم أن الايمان يتماثل فيه الناس وأنه اذا ذهب بعضه ذهب كله وكلا الامرين غلط فان الناس لا يتماثلون لا فيما وجب منه ولا فيما يقع منهم بل الايمان الذي وجب على بعض الناس قد لا يكون مثل الذي يجب على غيره كما كان الايمان بمكة لم يكن الواجب منه كالواجب بالمدينة ولا كان في آخر الامر كما كان في أوله ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الايمان ما يجب على أهل القوة والقدرة في العقول والابدان بل أهل العلم بالقرآن والسنة ومعاني

ذلك يجب عليهم من تفصيل الايمان ما لا يجب على من لم يعرف ما عرفوا وأهل الجهاد يجب عليهم من الايمان في تفصيل الجهاد ما لا يجب على غيرهم وكذلك ولاية الامر وأهل الاموال يجب على كل من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه وأخبر به ما لا يجب على غيره والاقرار بذلك من الايمان ومعلوم أنه وان كان الناس كلهم يشتركون في الاقرار بالخالق وتصديق الرسول جملة فالتفصيل لا يحصل بالجملة ومن عرف ذلك مفصلاً لم يكن ما أمر به ووجب عليه مثل من لم يعرف ذلك . وأيضاً فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به من اليقين والمعرفة والتوحيد وحب الله وخشية الله والتوكل على الله والصبر لحكم الله وغير ذلك مما هو من ايمان القلوب ولا في لوازم ذلك التي تظهر على الابدان واذا قدر أن بعض ذلك زال لم يزل سائر بل يزيد الايمان تارة وينقص تارة كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمر بن حبيب الخطمي وغيره انهم قالوا الايمان يزيد وينقص كما قد بسط في غير هذا الموضع اذ المقصود هنا أن طوائف أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسول في أصول دينه لا فيما اشتركوا فيه ولا فيما انفرد به بعضهم فانهم وان اشتركوا في مقالات فليس اجماعهم حجة ولا هم معصومون من الاجتماع على خطأ وقد زعم طائفة ان اجماع المتكلمين في انسائل الكلامية كاجماع الفقهاء وهذا عاظم بل السلف قد استفاض عنهم ذم المتكلمين وذم أهل الكلام مطلقاً ونفس ما اشتركوا فيه من اثبات الصانع بطريقة الاعراض وأنها لازمة للجسم أو متعاقبة عليه فلا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لا متنازع حوادث لا أول لها وأن الله يمتنع أن يقال انه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته أو يمتنع أن يقال انه لم يزل فعلاً وانه صار فاعلاً أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن بلا حدوث حادث وما يتبع هذا هو أصل مبتدع في الاسلام أول ما عرف انه قاله الجهم بن صفوان مقدم الجهمية وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة ولهذا طرداه فقالا بامتناع الحوادث في المستقبل وقال الجهم بفساد الجنة والنار . وقال أبو الهذيل بانقطاع حركاتهما كما قد بسط فروع هذا الاصل الذي اشتركوا فيه ثم افترقوا بعد ذلك في فروعهم فأثبتهم كانوا يقولون كلام الله القرآن وغيره مخلوق وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به لان ذلك عرض عندهم لا يقوم

ألا يجسم والجسم حدث فقالوا القرآن وغيره من كلام الله مخلوق وكذلك سائر ما يوصف به الرب فجاء بعدهم مثل ابن كلاب وابن كرام والاشعري وغيرهم من شاركيهم في أصل قولهم لكن قالوا بثبوت الصفات لله وانها قديمة لكن منهم من قال لا تسمى أعراضاً لأن العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية كما يقوله الاشعري وغيره ومنهم من قال تسمى أعراضاً وهي قديمة وليس كل عرض حادثاً كابن كرام وغيره ثم افترقوا في القرآن وغيره من كلام الله فقال ابن كلاب ومن اتبعه هو صفة من الصفات قديمة كسائر الصفات ثم قال ولا يجوز أن يكون صوتاً لأنه لا يبقى ولا معاني متعددة فانها ان كان لها عدد مقدر فليس قدر بأولى من قدر وان كانت غير متناهية لزم ثبوت معان في آن واحد لانهاية لها وهذا ممتنع فقال انه معنى واحد هو معنى آية الكرسي وآية الدين والتوراة والانجيل . وقال جمهور العقلاء أن تصور هذا القول تصوراً تاماً يوجب العلم بفساده . وقال طائفة بل كلامه قديم العين وهو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية مع أنها مترتبة في نفسها وأن تلك الحروف والأصوات باقية أزلاً وأبداً . وجمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة وهاتان الطائفتان تقولان انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته . وقال آخرون كالهشامية والكرامية بل هو متكلم بمشيئته وقدرته وكلامه قائم بذاته ولا يمتنع قيام الحوادث لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً فان ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وهو ممتنع فهذه الاربعة في القرآن وكلام الله هي أقوال المشركين في امتناع دوام كون الرب فعالاً بمشيئته أو متكلماً بمشيئته . وأما أئمة السنة والحديث كعبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرها فقالوا لم يزل الرب متكلماً اذا شاء وكيف شاء فذكروا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه لم يزل كذلك وهذا يناقض الأصل الذي اشترك فيه المتكلمون من الجهمية والمعتزلة ومن تلقى عنهم فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف لا فيما اتفقوا عليه ولا فيما تنازعوا فيه ولهذا يوجد في عامة أصول الدين لسلك منهم قول وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة كأقوالهم في كلام الله وأقوالهم في ارادته ومشيئته وفي علمه وفي قدرته وفي غير ذلك من صفاته وان كان بعضهم أقرب الى السنة والسلف من بعض ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم فكثير من أهل العلم والدين المنتسبين الى

السنة والجماعة من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن أو غيرها اذ كان لا يعرف الا ذلك القول أو ما هو أبعد عن السنة منه اذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك اذ كانوا لا يعرفون السنة وأقوال الصحابة وما دل عليه الكتاب والسنة لا يعرفون الا قولهم وقول من يخالفهم من أهل الكلام ويظنون انه ليس للامة الا هذان القولان أو الثلاثة وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الاجماع وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة بل يعتمدون على القياس العقلي الذي هو أصل كلامهم وعلى الاجماع وأصل كلامهم العقلي باطل والاجماع الذي يظنونه انما هو اجماعهم واجماع نظرائهم من أهل الكلام ليس هو اجماع أمة محمد ولا علمائها والله تعالى انما جعل العصمة للمؤمنين من أمة محمد فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول فان الرسول بين الدين كله وهم معصومون أن يخطئوا كلهم ويضلوا عما جاء به محمد بل هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا يبقى معروف الا أمروا به ولا منكر الا نهوا عنه وهم أمة وسط عدل خيار شهداء الله في الارض فلا يشهدون الا بحق فاجماعهم هو على علم موزون عن الرسول جاء من عند الله وذلك لا يكون الا حقاً وأما من كان اجماعهم على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم فيجوز أن يكون اجماعهم خطأ اذ ليسوا هم المؤمنين ولا أمة محمد وانما هم فرقة منهم واذا قيل المعتبر من أمة محمد بعلمائها قيل اذا انفقت علمائها على شيء فالباقون مسلمون لهم ما اتفقوا عليه لا ينازعونهم فيه فصار هذا اجماعاً من المؤمنين ومن نازعهم بعلم فهذا لا يثبت الاجماع دونه كائناً من كان وأما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه فذاك وجوده كعدمه . وقول من قال الاعتبار بالمجتهدين دون غيرهم وأنه لا يعتبر بخلاف أهل الحديث أو أهل الاصول ونحوهم كلام لا حقيقة له فان المجتهدين ان أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الاحكام بأدلتها فليس في الامة من هو كذلك بل أفضل الامة كان يتعلم ممن هو دونه شيئاً من السنة ليس عنده وإن عني به من يقدر على معرفة الاستدلال على الاحكام في الجملة فهذا موجود في كثير من أهل الحديث والاصول والكلام وإن كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع أو بأدلتها الخاصة أو بنقل الاقوال فيها فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان

الأدلة كالأحاديث والفرق بين صحيحها وضعيفها ودلالات الالفاظ عليها والتمييز بين ما هو دليل شرعى وما ليس بدليل وبالجملّة العصمة انما هي للمؤمنين لامة محمد لا لبعضهم لكن اذا اتفق علماءهم على شئ فسأئهم موافقون للعلماء واذا تنازعوا ولو كان المنازع واحداً وجب رد ما تنازعوا فيه الى الله والرسول ﷺ وما أحد شذيقول فاسد عن الجمهور الا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله وان كان القائل كثيراً كقول سعيد في أن المطلقة ثلاثاً تباح بالعقد . فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه مع دلالة القرآن أيضاً وكذلك غيره . وأما القول الذى يدل عليه الكتاب والسنة فلا يكون شاذاً وأن القائل به أقل من القائل بذلك القول فلا عبرة بكثرة القائل اتفاق الناس . ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة لا يحتجون بالاجماع الا علامة وقد يبحث معه نشابه أو سيفه أو شيئاً من السلاح المختص به أو يركبه دابته المختصة به ونحو ذلك مما يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه وان كانت تلك الافعال يفعل مع أمثاله وقد يفعل لغير الرسول ممن يقصد إكرامه وتشريفه لكن هي خارقة لعادته بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس ولا يفعله الا مع من ميزه بولاية أو رسالة أو وكالة والولاية والوكالة تتضمن الرسالة فكل من هؤلاء هو في معنى رسوله الى من ولاء انى قد وليته والى من أرسله بأنى أرسلته فهذه عادة معروفة في العلامات والدلائل التى يبين بها المرسل أن هذا رسولى وجنس خرق العادة لا يستلزم الاكرام بل تحرق عادته بالاهانة تارة وبالاكرام أخرى فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به بل لعقوبة قوم وآيات الرب تعالى قد تكون تخويفاً لعباده كما قال (وما نرسل بالآيات الا تخويفاً) وقد يهلك بها كما أهلك أمما مكذبين واذا قص قصصهم قال ان في ذلك لآيات وكان اهلاكم خرقا للعادة دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذبيهم للرسول وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه ويعاقب فاعله يمثل تلك العقوبة فهذه خرق عادات لاهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب تجرى مجرى قوله عاقبتهم لانهم كذبوا رسولى وعصوه ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله وعقوبته اياهم يقول (فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما يقول في موضع آخر (ان في ذلك لآيات وان

كنا لمبتلين وان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وتركنا فيهم آية للذين يخافون العذاب الاليم) واذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله كانت أبلغ في الدلالة وكانت متادة في هذا النوع وهؤلاء تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه وهو انفضة خرق العادة وقالوا العادات تنقسم الى عامة وخاصة فمنها ما يشترك فيه جميع الناس في جميع الأعصار كالأكل والشرب واتقاء الحر والبرد والخاص منها ما يكون كعادة الملائكة فقط أو للجن فقط أو للانسان دون غيرهم قالوا ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدى وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم وحجة عليهم دون ما سواهم . ومنها ما يكون عادة لبعض البشر نحو اعتياد بعضهم صناعة أو تجارة أو رياضة في ركوب الخيل والعمل بالسلاح لكن هذه كلها مقدورات للبشر قالوا وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق بل لا تكون الا بما ينفرد الله بالقدرة عليه فاذا قالوا هذا ظن الظان أنهم اشترطوا أمراً عظيماً ولم يشترطوا شيئاً فانهم قالوا في جنس الأفعال التي لا تقدر الناس الا على السير منها كحمل الجبال ونقلها أن المعجزة هنا اقدارهم على الفعل لا نفس الفعل ورجحوا هذا على قول من يقول نفس الفعل آية لان جنس الفعل مقدور وليس هذا بفرق طائل فانه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه فاذا كان اقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة وهؤلاء عندهم أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شيء ولا يكون مقدورها الا في محلها فهم في الحقيقة لم يثبتوا قدرة فكل ما في الوجود هو مقدور لله عندهم ولهذا عدل أبو المعالي ومن اتبعه كالرازي عن هذا الفرق فلم يشترطوا أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه اذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك وقالوا ان ما يحصل على يد الساحر والكاهن وعامل الطلسمات وعند الطبيعة الغريبة هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه ويكون آية للنبي وهذا معتاد لغير الانبياء فلم يبق لقولهم خرق للعادة معنى معقول بل قالوا واللفظ للقاضي أبي بكر الواجب على هذا الاصل أن يكون خرق العادة الذي يفعله الله مما يخرج جميع القبيل (١) الذين تحداهم الرسول بمثله ويحتج به على نبوته فان أرسل ملكا الى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق

(١) القبيل معناه الجماعة ومنه قوله تعالى (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)

لعادتهم وان أرسل بشراً أرسله بما يخرق عادة البشر وان أرسل جنياً أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن فيقال السحر والكهانة معتاد للبشر وأنتم تقولون يجوز أن يكون ما يأتي به الساحر والكاهن آية بشرط أن لا يمكن معارضته فلم يبق لكونه خارقاً للعادة معنى يعقل عندهم ولهذا قال محققوهم أنه لا يشترط في الآيات أن تكون خارقة للعادة كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع كما تقدم . وإنما الشرط أنها لا تعارض وأن تقترب بدعوى النبوة هذان الشرطان هما الاعتباران وقد بينا في غير موضع أن كلا من الشرطين باطل والاول (١) يقتضى أن يكون المدلول عليه جزءاً من الدليل وآيات النبوة أنواع متعددة منها ما يكون قبل وجوده ومنها ما يكون بعد موته ومنها ما يكون في غيبته . والمقصود هنا كان هو الكلام على المثال الذى ذكره وأن ما ضرب من الامثلة على الوجه الصحيح فانه والله الحمد يدل على صدق الرسول وعلى فساد أصولهم ولكن هم ضربوا مثالا اذا اعتبر على الوجه الصحيح كان حجة والله الحمد على صدق النبي وعلى فساد ما ذكره في المعجزات حيث قالوا هي الفعل الخارق للعادة المقترب بدعوى النبوة والاستدلال به وتحدى النبي من دعاهم أن يأتوا بمثله وشرط بعضهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدره عليه وهذه الاربعة هي التي شرط القاضي أبو بكر ومن سلك مسلكه كابن اللبان وابن شاذان والقاضي أبي يعلى وغيرهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدره عليه على أحد القولين أو منه ومن الجنس الآخر اذا وقع على وجه يخرق العادة وطريق متعذر على غيرهم مثله على القول الآخر قالوا وهذا لفظ القاضي أبى بكر ❦

والثاني أن يكون ذلك الشيء الذى يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزاً ❦

والثالث أن يكون غير النبي ممنوعاً من اظهار ذلك على يده على الوجه الذى ظهر عليه ودعا الى معارضته مع كونه خارقاً للعادة ❦

والرابع أن يكون واقعاً مفعولاً عند تحدى الرسول بمثله وادعائه آية لنبوته وتقريره بالعجز عنه من خالفه وكذبه قالوا فهذه هي الشرائط والاصاف التي تختص بها المعجزات

فيقال لهم الشرط الاول قد عرف أنه لا حقيقة له ولهذا أعرض عنه أكثرهم. والثاني أيضا لا حقيقة له فانهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها ولهذا ذهب من ذهب من محققهم الى الغاء هذا الشرط فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر بل ما اعتاده السحرة والكهان وأهل الطلاسم عندهم يجوز أن يكون آية اذا لم يعارض وما اعتاده أهل صناعة أو علم أو شجاعة ليس هو عندهم آية وان لم يعارض فالامور العجيبة التي خص الله بالاقدار عليها بعض الناس لم يجعلوها خرق عادة والامور المحرمة أو هي كفر كالسحر والكهانة والطلسمات جعلوها خرق عادة وجعلوها آية بشرط أن لا يعارض وهو الشرط الثالث وهو في الحقيقة خاصة المعجزة عندهم لكن كون غير الرسول ممنوعاً منه ان اعتبروا أنه ممنوع مطلقاً فهذا لا يعلم وان اعتبروا أنه ممنوع من المرسل اليهم فهذا لا يكفي بل يمكن كل ساحر وكاهن أن يدعى النبوة ويقول اني كذا قالوا لوفعل هذا لكان الله يمنعه فعل ذلك أو يقيض له من يعارضه قلنا من أين لكم ذلك ومن أين يعلم الناس ذلك ويعلمون أن كل كاذب فلا بد أن يمنع من فعل الامر الذي اعتاده هو وغيره قبل ذلك أو أن يعارض والواقع خلاف ذلك فما أكثر من ادعى النبوة أو الاستغناء عن الانبياء وأن طريقه فوق طريق الانبياء وأن الرب يخاطبه بلا رسالة وأتى بخوارق من جنس ما تأتى السحرة والكهان ولم يكن فيمن دعاه من يعارضه وأما الرابع وهو أن يكون عند تحدى الرسول فيه يحتززون عن الكرامات وهو شرط باطل بل آيات الانبياء آيات وان لم ينطقوا بالتحدى بالمثل وهي دلائل على النبوة وصدق الخبر بها والدليل مغاير للمدلول عليه ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل لكن اذا قالوا الدليل هو دعاء الرسول لزمه أن يريهم آية وخلق تلك الآية عقب سؤاله وان كان ذلك قد يخلفه بغير سؤاله لحكمة أخرى فهذا متوجه فالدليل هو مجموع طلب العلامة مع فعل ما جعله علامة كما أن العباد اذا دعوا الله فاجابهم كان مافعله اجابة لدعائهم ودليلا على أن الله سمع دعاءهم واجابهم كما أنهم اذا استسقوه فسقاهم واستنصروهم فنصرهم وان كان قد يفعل ذلك بلا دعاء فلا يكون هناك دليل على اجابة دعاء فهو دليل على اجابة الدعاء اذا وقع عقب الدعاء ولا يكون دليلا اذا وقع على غير هذا الوجه وكذلك الرسول اذا قال لمرسله اعطني علامة

فاعطاء ماشرفه به كان دليلا على رسالته وان كان قد يفعل ذلك لحكمة اخرى لكن فعل ذلك عقب سؤاله آية نبوته هو الذى يختص به وكذلك اذا علم أنه فعليه اكراما له مع دعواه النبوة علم انه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه فعلم أنه صادق لان مافعله به مختص بالصادقين الابرار دون الكاذبين عليه الفجار وعلى هذا فكرامات الاولياء هي من آيات الانبياء فانها مختصة بمن شهد لهم برسالة وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهو دليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم بل غيرهم اذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة لاقتراحه بدعوى النبوة ولا الاحتجاج به ولا التحدى بالمثل ولا تقرير من يخالفه بل كل هذه الامور قد تقع في بعض الآيات لكن لا يجب ان مالا يقع معه لا يكون آية بل هذا ابطال لاكثر آيات الانبياء لخلوها عن هذا الشرط ثم هو شرط بلا حجة فان الدليل على المدلول عليه هو ما استلزم وجوده وهذا لا يكون الا عند عدم المعارض المساوى أو الراجح وما كان كذلك فهو دليل سواء قال المستدل به اتوا بمثله واتم لا تقدر على الاتيان بمثله وقرعهم وعجزهم أو لم يقل ذلك فهو اذا كان في نفسه مما لا يقدر على الاتيان بمثله سواء ذكر المستدل هذا أو لم يذكره لا يذكره يصير دليلا ولا بعدم ذكره تنفي دلالته وهؤلاء قالوا لا يكون دليلا الا اذا ذكره المستدل وهذا باطل وكذلك الدليل هو دليل سواء استدل به مستدل أو لم يستدل وهؤلاء قالوا لا يكون دليل النبوة دليلا الا اذا استدل به النبي حين ادعى النبوة فجعل نفس دعواه واستدلاله والمطالبة بالمعارضة وتقرعهم بالعجز عنها كلها جزءا من الدليل وهذا غلط عظيم بل السكوت عن هذه الامور أبلغ في الدلالة والنطق بها لا يقوى الدليل والله تعالى لم يقل فليأتوا بحديث مثله الا حين قالوا افتراء لم يجعل هذا القول شرطا في الدليل بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل وهم انما شرطوا ذلك لان كرامات الاولياء عندهم متى اقترن بها دعوى النبوة كانت آية للنبوة وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلا على النبوة عندهم لكن قالوا

الساحر والكاهن لو ادعى النبوة لكان يتمتع من ذلك أو يعارض بمثله وأما
بالصالح فلا يدعى فكان أصلهم أن ما يأتي به النبي والساحر والكاهن والولي من
جنس واحد لا يتميز بعضه عن بعض بوصف لكن خاصة النبي اقتران الدعوى والاستدلال
بالاتحادى بالمثل بما يأتي به فلم يجعلوا آيات الانبياء خاصة تتميز بها عن السحر
والكهانة وعمما يكون لا حاد المؤمنين ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم المؤمنين ولا على
السحرة والكهان من جهة الايات التي يدل الله بها العباد على صدقه وهذا اقتراء
عظيم على الانبياء وعلى آياتهم وتسوية بين أفضل الخلق وشرار الخلق بل تسوية
بين ما يدل على النبوة وما يدل على نقيضها فان ما يأتي به السحرة والكهان لا يكون
إلا لكذاب فاجر عدو لله فهو مناقض للنبوة فلم يفرقوا بين ما يدل على النبوة وعلى نقيضها
وبين ما لا يدل عليها ولا على نقيضها فان آيات الانبياء تدل على النبوة وعجائب السحرة والكهان
تدل على نقيض النبوة وان صاحبها ليس ببر ولا عدل ولا ولي لله فضلا عن أن يكون نبيا
بل يتمتع أن يكون الساحر والكاهن نيا بل هو من أعداء الله والانبياء أفضل خلق
بالله وإيمان المؤمنين وصلاحيهم لا يناقض النبوة ولا يستلزمها فهو لاء سوا بين الاجناس
الثلاثة فكانوا بمنزلة من سوى بين عبادة الرحمن وعبادة الشيطان والاولئان فاف
الكهان والسحرة يأمررون بالشرك وعبادة الاولئان وما فيه طاعة للشيطان والانبياء
لا يأمررون الا بعبادة الله وحده وينهون عن عبادة ما سوى الله وطاعة الشياطين فسوى
هؤلاء بين هذا وهذا ولم يبق الفرق الا مجرد تلفظ المدعى بأني نبي فان تلفظ به كان
نبيا وان لم يتلفظ به لم يكن نبيا فالكذاب المتنبى اذا أتى بما يأتي الساحر والكاهن وقال
انا نبي كان نبيا وقولهم انه اذا فعل ذلك منع منه وعورض دعوى مجردة فهي لا تقبل
لو لم يعلم بطلانها فكيف وقد علم بطلانها وان كثيرا ادعوا ذلك ولم يعارضهم ممن دعوه
أحد ولا منعوا من ذلك فلزم على قول هؤلاء التسوية بين النبي الصادق والمتنبى الكاذب
وقد قال تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم
مشوى للكافرين والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون) ولم يفرق هؤلاء
بين هؤلاء وهؤلاء ولا بين آيات هؤلاء وآيات هؤلاء وقال تعالى (وما قدروا الله
حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا
 أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق
 الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون
 به وهم على صلاتهم يحافظون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقال اوحى الى ولم يوح اليه شيء
 ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة
 باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله
 غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة
 وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء
 لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (فنسأل الله العظيم أن يهدينا الى صراط
 المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين
 عبدوه وحده لا شريك له وآمنوا بما أرسل به رسوله وبما جاءوا به من الآيات
 وفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغى والرشاد وطريق أولياء الله المتقين
 وأعداء الله الضالين والمغضوب عليهم فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به واطاعهم
 فيما أمروا به ولا حول ولا قوة الا بالله ٥

وهؤلاء يجوزون أن يأمر الله بكل شيء وأن ينهى عن كل شيء فلا يبقى
 عندهم فرق بين النبي الصادق والمتنبى الكاذب لا من جهة نفسه فانهم لا يشترطون
 فيه الا مجرد كونه في الباطن مقراً بالصانع وهذا موجود في عامة الخلق ولا من جهة آياته ولا
 من جهة ما يأمر به والفلاسفة من هذا الوجه أجود قولا في الانبياء فانهم يشترطون في انبي
 اختصاصه بالعلم من غير تعلم وبالقدرة على التأثير الغريب والتخييل ويفرق بين الساحر
 والنبي بأن النبي يقصد العدل ويأمر به بخلاف الساحر ولهذا عدل الغزالي في النبوة
 عن طريق أولئك المتكلمين الى طريق الفلاسفة فاستدل بما يفعله ويأمر به على نبوته
 وهى طريق صحيحة لكن انما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة وأولئك خير من
 الفلاسفة من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد صدقوه فيما أخبر به من أمور الانبياء
 وغيرهم وكان عندهم معصوماً من الكذب فيما يبلغه عن الله فانتفعوا بالشرع والسمعيات
 وبما صار فيهم من الاسلام ما تميزوا به على أولئك فان أولئك لا ينتفعون بأخبار

الانبياء اذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل فهم يكذبون عندهم للمصاحبة ولكن آخرون سلكوا مسلك التأويل وقالوا أنهم لا يكذبون ولكن أسرفوا فيه ففى الجملة ظهور الفلاسفة والملاحدة والباطنية على هؤلاء تارة ومقاومتهم لهم تارة لا بد له من أسباب في حكمة الرب وعدله ومن أعظم أسبابه تفريط أولئك وجهلهم بما جاء به الانبياء فالنبوة التي ينتسبون الى نصرها لم يعرفوها ولم يعرفوا دليها ولا قدروها قدرها وهذا يظهر من جهات متعددة ولا حول ولا قوة الا بالله

فصل

قد ذكرنا في غير موضع ان أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ قديسيها الله في القرآن أحسن بيان وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع وبين وقوعه بالادلة السمعية والعقلية فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله وهى أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق. وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على اثبات الصانع وصدق الرسول وامكان المعاد أو وقوعه وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع وكل ما خالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً فان الذي بعث الله به محمدًا وغيره من الانبياء هو حق وصدق وتدل عليه الادلة العقلية فهوتثبت بالسمع والعقل والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير [وقال تعالى لمكذبى الرسل] أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور] ذكر ذلك بعد قوله [وان يكذبوا فكذب الله]

كذبت قبهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة وهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد [ثم قال (أفلم يسيروا في الارض) الآية ثم قال [وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير] فذكر أهلك من أهلك وأملأه لمن أملأ لئلا يغتر المغتر فيقول نحن لم يهلكنا وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ٤

والمقصود هنا ان ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل وهو حق في نفسه كالحكم الذي يحكم به فانه يحكم بالعدل وهو الشرع فالعدل هو الشرع والشرع هو العدل ولهذا يأمر نبيه ان يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله والذي أنزل الله هو القسط والقسط هو الذي أنزل الله وكذلك الحق والصدق هو ما أخبر به الرسل وما أخبر به فهو الحق والصدق والسلف والائمة ذموا أهل الكلام المتدعين الذين خالفوا الكتاب والسنة ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه الا باطلا فالكلام الذي ذمه السلف يذم لانه باطل ولأنه يخالف الشرع ولكن لفظ الكلام لما كان مجعلا لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الكلام الذي ذموه وغيره فمن الناس من يظن انهم انما أنكروا كلام القدرية فقط كما ذكره البيهقي وابن عساكر في تفسير كلام الشافعي ونحوه ليخرجوا أصحابهم عن الذم وليس كذلك بل الشافعي انكر كلام الجهمية كلام حفص الفرد وأمثاله وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات والقرآن والرؤية لا في القدر وكذلك احمد بن حنبل خصومه من أهل الكلام هم الجهمية الذين ناظروه في القرآن مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله ولم يكونوا قدرية ولا كان النزاع في مسائل القدر ولهذا يصرح أحمد وأمثاله من السلف بدم الجهمية بل يكفرونهم أعظم من سائر الطوائف. وقال عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وغيرهما أصول أهل الأهواء اربع الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية ف قيل لهم الجهمية فقالوا الجهمية ليسوا من أمة محمد ولهذا ذكر أبو عبد الله ابن حامد عن أصحاب أحمد في الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقة وحين أحدها أنهم ليسوا منهم لخروجهم عن الاسلام وطائفة تظن أن الكلام الذي ذمه السلف هو مطلق النظر

والاحتجاج والمناظرة ويزعم من يزعم من هؤلاء أن قوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن [و] جادلهم بالتي هي أحسن) منسوخ بآية السيف وهؤلاء أيضا غالطون فان الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار حتى (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقال عن قوم إبراهيم (وحاجبه قومه) الى قوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وذكر محاجة إبراهيم للكفار والقرآن فيه من مناظرة الكفار والاحتجاج عليهم ما فيه شفاء وكفاية (١) وقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم) وقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) ليس في القرآن ما ينسخها ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف وكل ما كان متضمنا لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات للسيف والجهاد والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان ومن لا يجوز قتاله بالسيف وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبهة مع من يطلب الاستهداء والبيان وبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا أن المتدعين الذين ابتدعوا كلاما وأصولا تخالف الكتاب وهي أيضا مخالفة للميزان وهو العدل فهي مخالفة للسمع والعقل كما ابتدعوا في اثبات الصانع إثباته بحدوث الاجسام وأثبتوا حدوث الاجسام بأنها مستلزمة للاعراض لا تنفك عنها قالوا وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لا متنازع حوادث لا أول لها فهؤلاء اذا حقق عليهم ما قالوه لم يوجدوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة ولا أثبتوا المعاد وهذه هي أصول الدين والايان بل كلامهم في الخلق والبعث المبدأ والمعاد وفي اثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلا ولا نقلا وهم معترفون بذلك كما قال الرازي لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غيلا ولا تروى غيلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في النفي (ليس كمثل شيء ولا يحيطون به علما) واقرأ في الاثبات (الرحمن على العرش استوى اليه يصعد الكلم الطيب أو أمتهم من

(١) وقد نشرنا رسالة للامام ابن الحنبلي سماها استخراج الجدل من القرآن الحكمي ضمن الجزء الثالث في مجموعة الرسائل المنيرية فعليك بها فانها مفيدة جدا.

في السماء) ثم قال ومن حرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرها يقولون ما يشبه هذا وهو كما قالوا فان الرازي قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة ومع هذا فليس في كتبه اثبات الصانع كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين جميع ما ذكره في اثبات الصانع وأنه ليس فيه ذلك وليس فيه أيضاً اثبات النبوة فان النبوة مبناها على أن الله قادر وأنه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل وليس في كتبه اثبات أن الله قادر ولا يريد بل كلامه فيه تقرير حجاج من نفى قدرته وإرادته دون الجانب الآخر كما قد بينا ذلك في الكلام على ما ذكره في مسألة القدرة والإرادة مع أنه والله الحمد الأدلة الدالة على اثبات الصانع واثبات قدرته ومشيتته تفوق الإحصاء لكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وسبب ذلك اعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المتدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة فصاروا يسفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعات كما قد بين هذا في مواضع وأيضاً فاذا عرف أن الله قادر كما قد عرفه غيره فليس عنده في النبوة الا طريق أصحابه الاشعرية الذين سلكوا مسلك الجهمية في أفعال الله تعالى أو طريق الفلاسفة ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية وهم يميلون الى الاعتزال مع تشيع الزيدية يقولون نحن لا تكلم في الشافعي فانه امام لكن هؤلاء صاروا جهمية يعنى القدر فلاسفة والشافعي لم يكن جهمياً ولا فاسقاً وهؤلاء لم يعرفوا آيات الانبياء والفرق بينها وبين غيرها لكن ادعوا أن ما يأتي به لكهان والسحرة وغيرهم قد يكون من آيات الانبياء لكن بشرط أن لا يقدر أحد من المرسل اليهم على معارضته وهذه خاصة المعجز عندهم وهذا فاسد من وجوه كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع وأما كلامه في المعاد فابعد من هذا وهذا كما قد بين أيضاً وكذلك كلام من تقدمه من الجهمية وأتباعهم من الاشعرية وغيرهم ومن المعتزلة فانك لا تجد في كلامهم الذي ابتدعوه لا اثبات الربوبية ولا النبوة ولا المعاد والاشعري نفسه وأتباعه ليس في كتبهم اثبات الربوبية ولا المعاد وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم من اتباع الفقهاء كالفقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني وغيرهم والمعتزلة كذلك أيضاً وكذلك الكرامية وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف كأبي الحسين.

الضبري ونحوه من المعتزلة وكابن الهيثم من الكرامية وكابن الحسن نفسه والقاضي
أبي بكر وأبي المعالي الجويني وأبي اسحاق الاسفرايني وأبي بكر ابن فورك وأبي القاسم
القشيري وأبي الحسن التميمي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني غفر الله لهم
ورحمهم أجمعين

وتأمل ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني
وكتاب مقالات الاسلاميين للاشعري وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن وقد ذكر
فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث وأنه يختارها وهي أقرب ما ذكره من
المقالات إلى السنة والحديث لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث ونفس
مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها ولا هو خير بها فالكاتب المصنف في مقالات
الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول ومادل عليه القرآن لافي
المقالات المجردة ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة فان جميع هؤلاء دخلوا في الكلام
المذموم الذي عابه السلف وذموه ولكن بعضهم أقرب إلى السنة من بعض وقد يكون
هذا أقرب في بعض وهذا أقرب في مواضع وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على
القرآن والحديث بخلاف الفقهاء فانهم في كثير مما يقولونه انما يعتمدون على القرآن
والحديث فلماذا كانوا أكثر متابعة لكن ما تكلم فيه أولئك أجل ولهذا يعظمون من
وجهه ويذمون من وجهه فان لهم حسنات وفضائل وسعيامشكورا وخطايا بعد الاجتهاد مغفورو
الاشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني ولهذا ذكر عشر طوائف وذكر مقالات لم
يذكرها الشهرستاني وهو أعلم بمقالات أهل السنة وأقرب اليها وأوسع علما من الشهرستاني
والشهرستاني أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالي ولهذا ذكر لهم في القرآن
أربع مقالات وعدد طوائف من أهل القبلة والغزالي حصر أهل العلم الالهى في أربعة
أصناف في الفلاسفة والباطنية والمتكلمين والصوفية فلم يعرف مقالات أهل الحديث
والسنة ولا مقالات الفقهاء ولا مقالات أئمة الصوفية ولكن ذكر عنهم العمل وذكر عن
بعضهم اعتقادا يخالفهم فيه أئمتهم والقشيري أعلم بأقوال الصوفية ومع هذا لم يذكر
أقوال أئمتهم وأبو طالب أعلم منها بأقوال الصوفية ومع هذا فلم يعرف مقالة الاكابر
كالفيل بن عياض ونحوه وأبو الوليد ابن رشد الحفيد حصر أهل العلم الالهى في

ثلاثة في الحشوية والباطنية والاشعرية والباطنية عنده يدخل فيهم باطنية الصوفية وباطنية الفلاسفة ومن هنا دخل ابن سبعين وابن عربي فأخذوا مذاهب الفلاسفة وادخلوها في التصوف وأبو حامد يدخل في بعض هذا فإن ابن سينا تكلم في مقالات العارفين بتصوف فاسد ثم أن هؤلاء مع هذا لما لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم بل ولا نقل ذلك عن النبي ﷺ صار منهم من يقول كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب واتهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة ويقولون أيضاً أن الرسول لم يعلمهم هذا لئلا يشتغلوا به عن الجهاد فإنه كان محتاجاً إليهم في الجهاد وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهل الزهد والتصوف إذا دخلوا في عبادات منهي عنها ومذمومة في الشرع قالوا كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد وأهل السيف قد يظن من يظن منهم أن لهم من الجهاد وقاتل الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة وإن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم ومن أهل الكلام من يقول بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم لكن لم يتكلموا بذلك لعدم حاجتهم إليه فهؤلاء جمعوا بين أمرين بين أن ابتدعوا أقوالاً باطلة ظنوا أنها هي أصول الدين لا يكون عالماً بالدين الآمن وافقهم عليها واتهم علموا وبينوا من الحق ما لم يبينه الرسول والصحابة وإذا تدبر الحير حقيقة ما هم عليه تبين له أنه ليس عند القوم فيما ابتدعوه لا علم ولا دين لا شرع ولا عقل وآخرون لما رأوا ابتداع هؤلاء وإن الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم ظنوا أنهم كانوا كالعامّة الذين لا يعرفون الأدلة والحجج واتهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن مما تشابه على من تشابه عليه وتوهموا أنه إذا كان الوقف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) كان المراد أنه لا يفهم معناه إلا الله لا الرسول ولا الصحابة فصاروا ينسبون الصحابة بل والرسول إلى عدم العلم بالسمع والعقل وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون وظنوا أن هذه طريقة السلف وهي الجهل البسيط التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع وهذا وصف أهل النار لا وصف أفضل الخلق بعد الأنبياء . قال ابن مسعود رضى الله عنه من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الامة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا له

حقهم وتمسكوا بهديهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم ﷺ وقال أيضاً ان الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابعثه برسالة ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد بعد قلبه فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فاذا رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ﷺ وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ انه قال « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد قال تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فرضى عن السابقين مطلقاً ورضى عن اتبعهم باحسان وذلك متناول لكل من اتبعهم الى يوم القيامة كما ذكر ذلك أهل العلم . قال ابن أبي حاتم قرئ على يونس بن عبد الاعلى انا ابن وهب حدثني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (والذين اتبعوهم باحسان) قال من بقى من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة وبسط هذا له موضع آخر ﷺ

والمقصود هنا ان الهدى والبيان والادلة والبراهين في القرآن فان الله تعالى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق وارسله بالايات والينات وهي الادلة البينة الدالة على الحق وكذلك سائر الرسل ومن الممتنع ان يرسل الله رسولا يأمر الناس بتصديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه وكذلك من قال انى رسول الله فن الممتنع ان يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له وحجة على الناس هذا لا يظن باجهل الخلق فكيف بأفضل الناس وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « ما من نبي من الانبياء الا وقد أوتي من الايات ما امن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحياً او حاء الله الى فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » قال تعالى (ان الذين يكتُمون اما أترلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلغهم الله ويلعنهم اللاعنون) فالينات جمع بينة وهي الادلة والبراهين التي هي بينة في نفسها وبها يتبين غيرها يقال بين الامر اى تبين في نفسه ويقال بين غيره فالبين اسم لما ظهر في نفسه ولما اظهر غيره وكذلك المبين كقوله فاحشة مينة أى متبينة فهذا شأن الأدلة فان مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبدئية وبها يتبين غيرها فيستدل على الحق بالخطى والهدى مصدر هداة هدى والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس

ويحتاجون اليه وهو ضد الضلالة فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده وهو سبحانه بين في كنهه ما يهدي الناس فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق عرفهم ان الله هو المقصود المعبود وحده وانه لا يجوز عبادة غيره وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به والبيانات فيها بيان الادلة والبراهين على ذلك فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولاً مجرداً عن دليله ليؤخذ تقليداً واتباعاً للظن بل هو مبين بالآيات والبيانات وهي الادلة اليقينية والبراهين القطعية وكان عند اهل الكتاب من البيئات الدالة على نبوة محمد وصحة ما جاء به أمور متعددة لبشارات كنهم وغير ذلك فكانوا يكتُمونه قال تعالى (ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله فانه كان عندهم شهادة من الله تشهد بما جاء به محمد وبمثلها فكتموها) وقال تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) فاترله هادياً للناس وبينات من الهدى والفرقان فهو يهدي الناس الى صراط مستقيم يهديهم الى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الارض بما فيه من الخبر والامر وهو بينات دلالات وبراهين من الهدى من الادلة الهادية المينة للحق ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب والمأمور والمحظور والحلال والحرام وذلك ان الدليل لا يتم الا بالجواب عن المعارض فالادلة تشبه كثيراً بما يعارضها فلا بد من الفرق بين الدليل الدال على الحق وبين ما عارضه ليتبين ان الذي عارضه باطل فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق لكن لا بد مع ذلك من الفرقان وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه والفرق بين خبر الرب والخبر الذي يخالفه فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات ومن لم يحصل له الفرقان كان في استتباء وحيرة والهدى التام لا يكون الا مع الفرقان فلهذا قال اولاً هدى للناس ثم قال وبينات من الهدى والفرقان فالبيانات الادلة على ما تقدم من الهدى وهي بينات من الهدى الذي هو دليل على ان الاول هدى ومن الفرقان الذي يفرق بين البيئات والشبهات والحجج الصحيحة والفاسدة فالهدى مثل ان يؤمر بسلوك الطريق الى الله كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله والبيئات ما يدل وبين ان ذلك هو الطريق وان سالكه سالك للطريق لاضال والفرقان ان

يفرق بين ذاك الطريق وغيره وبين الدليل الذى يسلكه ويدل الناس عليه وبين غيرهم ممن يدعى الدلالة وهو جاهل مضل وهذا وامثاله مما يبين ان في القرآن الادلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الاخبار والاوامر كثير وقد بسط هذا في غير هذا الموضع. والمقصود هنا الكلام على النبوة فان المتكلمين المتبدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات كالالهييات والاعاد وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة ولم يثبتوا ما يدل عليها فليس عندهم لا هدى ولا بينات والله سبحانه انزل في كتبه البينات والهدى فن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى اليه ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات فالتصور الصحيح اهتداء والدليل الذى يبين التصديق بذلك التصور بينات والله تعالى انزل الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التشبه وهى طريقة الرسل جاءوا باثبات مفصل ونفى محمل واعدائهم جاءوا بنفى مفصل واثبات محمل فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس واطهر لهم بل كان الحق في نقيضه للزم ان يكون عدم الرسول خيرا من وجوده اذا كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علما ولا هدى بل ذكر أقوالا تدل على الباطل وطلب منهم ان يتعلموا الهدى بعقولهم ونظروا فيما جاء به فاما ان يتأولوه ويحرفوا الكلم عن مواضعه واما ان يعوضوه فذكرنا هذا ونحوه مما يبين ان الهدى مأخوذ عن الرسول وانه قد بين الامة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات وغيرها فكان الجواب خطابا مع من يقر بنبوته ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة وذكر أن الشبهات العقلية التى تعارض خبر الرسول باطلة وذكر في ذلك ما هو موجود في هذا الجواب ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب ويتكلم على حجج النفاة ويبين بطلانها ويتكلم على ما أثبتوه من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس هذا موضعه وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون ان الرسل خاطبوا خطابا قصدوا به

(م. ٣٠ - النبوات)

التخيل الى العامة ما ينفعهم لا أنهم قصدوا الاخبار بالحقائق وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم اذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذبين للرسول يقولون انهم كذبوا لما رأوه مصلحة بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول الا الحق باطناً وظاهراً ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية وان كانت مستفادة من تعليم الرسول وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر شمس الدين الاصهاني فطلب منى شرحها فشرحها وذكرت فيها من الدلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين وبعدها جاء كتاب من النصارى يتضمن الاحتجاج لدينهم بالعقل والسمع واحتجوا بما ذكروه من القرآن فأوجب ذلك أن يرد عليهم ويبين فساد ما احتجوا به من الأدلة السمعية من القرآن ومن كلام الانبياء المتقدمين وما احتجوا به من العقل وأنهم مخالفون للانبياء وللعقل خالفوا المسيح ومن قبله وحرفوا كلامهم كما خالفوا العقل وبين ما يحتجون به من نصوص الانبياء وأنها هي وغيرها من نصوص الانبياء التي عندهم حجة عليهم لا لهم وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره وقلوب كثير من الناس يحول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل وهم وان أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق اذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم معارض لما جاءت به الانبياء وهم لم يعلموا ما جاءت به الانبياء ولم يأخذوا عنهم الدلائل والاصول والبيانات والبراهين واذا وجب أن يؤخذ عن الانبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم مع وجود ما يعارضه فلان يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى فانه بهذا يتبين ذلك والافتصاديق الخبر متوقف على دليل صحته أو على صدق الخبر به وتصديقه بدون أن يعلم نه في نفسه حق أو أن الخبر به صادق قول بلا علم والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أرسل بالبيانات والهدى بين الاحكام الخبرية والطلعية وأدلتها الدالة عليها بين المسائل والوسائل بين الدين ما يقال وما يعمل وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق. وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع. وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف والهدى هو هـ

الحلق الى الحق وتعريفهم ذلك وارشادهم اليه وهذا لا يكون الا بذكر الادلة والآيات الدالة على أن هذا هدى والا فجرد خبر لم يعلم انه حق ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى وهو سبحانه اذا ذكر الانبياء نبينا وغيره ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الادلة والبراهين اليينة المعلومه علما يقينيا اذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي الى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى أوليات وقد يقال هي معلومة بأنفسها فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات. وفي الصحيحين عنه ﷺ انه قال « ما من نبي من الانبياء الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وهو سبحانه اذا خاطب جنس الانس ذكر جنس الانبياء وأثبت جنس ما جاءوا به واذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم بآيات نبي بعده كما قال في سورة البقرة في خطابه لبنى اسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى وذكرهم بانعامه عليهم وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب والمقرين بنبوة موسى خاطبهم بآيات نبي بعده بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) ثم ذكر محمداً فقال (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بثما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح اليهم بالبينات بعد ما أرسل قبله الرسل وأنهم تارة يكذبون الرسل وتارة يقتلونهم وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات لانه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف من قبله . ولهذا لم يذكر ذلك عنهم . وقال في موسى انه آتاه الكتاب لانهم كانوا مقرين بنبوته ولكن حرفوا كتابه في المعنى باتفاق الناس وحرفوا اللفظ أحيانا وفي بعض المواضع وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه (والقي عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مديراً) ولم يعقب (يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات

الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين . وقال في سورة القصص [ياموسى اقبل
ولا تخف انك من الامنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم
اليك جناحك من الريح فدذك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوماً
فاسقين) وقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل نوح
وهود وصالح ولوط وشعيب ونصره لهم واهلاك أعدائهم ثم ذكر الانبياء عموماً فقال
(وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) الى
قوله (أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع
على قلوبهم فهم لا يسمعون تلك القرى نقص عليك ولقد جاءتهم رسالهم بالبينات فما
كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا
لاكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) فقد أخبر أن أهل القرى كلها الذين
أهلكهم جاءتهم رسالهم بالبينات ولكن شابه متأخروهم متقدميهم فما كان هؤلاء ليؤمنوا
بما كذب به أشباههم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وهذا كقوله تعالى (كذلك
ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) قال تعالى (ثم بعثنا من
بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظالموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)
فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته وقال في أثناء القصة انى رسول من رب العالمين
حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معى نبي
اسرائيل فأخبر انه جاء ببينة من الله أى بآية بينة من الله بدليل من الله وبرهان فى
آية منه وعلامة منه على صدقي وانى رسول منه فان قوله من ربكم متعلق بالرسول
وبالآية يقال فلان قد جاء بعلامة من فلان فالعلامة منه والرسول منه والآية منه كما
قال (فدانك برهانان من ربك) فدل على أن كل واحد من الرسول ومن آيات
الرسول هو من الله تعالى قال له فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من
الصادقين وذكر القصة ومعارضة السحرة له الى أن قال فأوحينا الى موسى أن الق
عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك
وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون

قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم أن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصابنكم أجمعين قالوا انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله كما قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين الى قوله فأغرقناهم في اليم بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين وليس المراد بالآيات هنا كتاباً منزلاً فان موسى لما ذهب الى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت وإنما انزلت التوراة بعد ان غرق فرعون وخلص بنى اسرائيل فاحتاجوا الى شريعة يعملون بها قال تعالى [ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ولكن تكذيبهم بآياته انكارهم ان تكون آية من الله وقولهم انها سحر كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله (وقالوا مهما تأتينا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين وكانوا عنها غافلين لم يذكروها ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى وانه مرسل من الله فالتكذيب ضد التصديق والغفلة عنها ضد النظر فيها ولهذا قيل النظر تحريد العقل عن الغفلات وقيل هو تحديق العقل نحو المرئى والاول هو النظر الطلبى وهو طلب ما يدل على الحق والثانى هو النظر الاستدلالى وهو النظر فى الدليل الذى يوصله الى الحق وهذا الثانى هو الذى يوجب العلم فذمهم على الغفلة عن آياته يتضمن النوعين النظر فيها والتأمل لها والتذكر لها ضد الغفلة عنها وهى آيات معينة فاذا جرد العقل عن الغفلة عنها وحدقه للنظر فيها حصل له العلم بها وقد يحصل العلم بها ولكن يمتنع عن اتباعها لهواه كما قال الله عن قوم فرعون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فان الحق اذا ظهر صار معلوماً بالضرورة والآيات والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها واتباع ما أوجبه العلم بها وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد وموسى وغيرهما فانهم علموا صدقهما علماً يقينياً لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة لكن اتباع الهوى صد قال تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال تعالى عن

قوم فرعون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ولهذا قال وكانوا عنها غافلين فعملوا إنها حق وغفلوا عنها كما يغفل الإنسان عما يعلمه ومنه الغفلة عن ذكر الله تعالى قال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) وقال تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا كما ذكرهم هناك وهناك وصفهم بالتكذيب بها مع الغفلة عنها وضد الغفلة التذكر والتذكر لا ياتيه سبحانه وتعالى يوجب العلم بها وحضورها في القلب وهو موجب لاتباعها إلا أن يمنعه هوى قال تعالى (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لسمعهم ولو أسمعهم لتسولوا وهم معرضون) فهو سبحانه لو علم فيهم خيراً وهو قصد الحق لأفهمهم لكنهم لا خير فيهم فلو أفهمهم لتولوا وهم معرضون . وقال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم باياتنا إذا هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون) وقد ذكر أن الآيات التي هي دلائل النبوة منه في غير موضع غير ما تقدم كقوله تعالى (فأنتباه فقولاً أنا رسول ربك فأرسل معاني أسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى أنا قد أوحى إلىنا أن العذاب على من كذب وتولى قال فن ربه يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهاداً ولسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله) إلى قوله عن السحرة (لن نؤثر على ما جاءنا من اليّنات) وقال تعالى [ورسولاً إلى بني إسرائيل إني قد جئتكم بآية من ربكم] وقال

تعالى [وقالوا لولا يأتينا بآية من ربّه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى] فلا يأت
التي هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول
وكما أن الآيات التي هي كلامه تتضمن اخباره لعباده وأمره لهم فيها الاعلام والالزام
فكذلك دلائل النبوة هي آيات منه تتضمن اخباره لعباده بأن هذا رسوله وأمره
لهم بطاعته ففيها الاعلام والالزام وكما أن آياته القولية زعم المكذبون أنها ليست كلامه
ولاً منه بل هي من قول البشر وزعموا أن الرسول افترأها أو من معه أو تعلمها من
غيره فكذلك الآيات الفعلية زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة منه
على أن الرسول رسوله بل مما يفعله الرسول فيكذب وهذه من فعل المخلوقين لكنها
عجيبة فهي سحر سحر بها الناس فلم [١] يكن من المكذبين من قال انها من الله ولكن
لم يخلقها لصدقك بها بل خلقها لا لشيء أو خلقها وإن كنت كاذباً فإنه قد يخلق مثل
هذه على أيدي الكذابين ليضل بها الناس فإن هذا وإن كان يقال انه قبيح فإنه لا يبيح
منه شيء كما أنه لم يكن في المكذبين من قال ان الكلام كلام الله لكنه كذب اذ الكذب
وإن كان قبيحاً من المخلوق فالخالق لا يقبح منه شيء وهذا لانه من المعلوم بالفطرة
الضرورية لجميع بني آدم أن الله لا يكذب ولا يفعل القبائح فلا يؤيد الكذاب بآيته
ليضل بها الناس لكن قالوا ليست آية من الله بل هي سحر من عندك وهم وإن كانوا
قد يعلمون أن الله خالق كل شيء ففرق بين ما يفعله البشر ويتوصلون اليه بالاكساب
وبين ما لا قدرة لهم على التوصل اليه بسبب من الاسباب وفرق بين ما قد علموا أنه
يخلقه لغير تصديق الرسل كالسحر فإنه لم يزل معروفاً في بني آدم فقد علموا أنه لا يخلقه
آية وعلامة لنبي اذ كان موجوداً لغير الانبياء معتاداً منهم وإن كان عجيباً خارجاً عن
العادة عند من لم يعرفه بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالآيات كقول فرعون
فأت بآية ان كنت من الصادقين وقول قوم صالح له انما أنت من المسحرين ما أنت
الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وكانت الانبياء تأتي بالآيات وهي آيات
بينات فيكذبون بها كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم كما قال فرعون انه ساحر ولما

[١] قوله [فلم يكن] أي فلم يوجد فكان هنا تامة بمعنى وجد وكذا هي في قوله

بعد كما لما أنه سحر من المكذبين

غلب السحرة وآمنوا واعترفوا بأن هذه آية من الله قال لهم فرعون انه لكبيركم الذى علمكم السحر وان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها وهذا كذب ظاهر فان موسى جاء من الشام ولم يجتمع بالسحرة انما فرعون جمعهم ولم يكن دين موسى دين السحرة ولا مقصوده مقصودهم بل هم وهو في غاية التعادى والتباين وكذلك سائر السحرة والكهنة مع الانبياء من أعظم الناس ذما لهم وأمرًا بقتلهم مع تصديق الانبياء بعضهم ببعض واليجاب بعضهم الايمان ببعض وهم يأمرون بقتل من يكذب نبيا ويأمرون بقتل السحرة ومن آمن بهم والسحرة يذم بعضهم بعضاً والانبياء يصدق بعضهم بعضاً وهؤلاء يأمرون بعبادة الله وحده والصدق والعدل ويتبرأون من الشرك وأهله وهؤلاء يحبون أهل الشرك ويوالونهم ويبغضون أهل التوحيد والعدل فهذان جنسان متعاديان كمتعادي الملائكة والشياطين كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرضوه وليتصرفوا ما هم مقترفون) فن جعل النبي ساحراً أو مجنوناً هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبياً وهذا من أعظم الفرية والتسوية بين الازداد المختلفة وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنوناً والمجنون عاقلاً أو يجعل الجاهل عالماً والجاهل جاهلاً فان الفرق بين النبي وبين الساحر والمجنون أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون والجاهل وموسى صلوات الله عليه أمر بتصديق من يأتي بعده من الانبياء الصادقين كما أمر بتكذيب الكذابين وأما السحرة فانه أمر بقتلهم وفي التوراة سأقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبيا مثلك اجعل كلامي على فم كلكم يسمعون وهذا يقتضى طاعة من يقوم بعده من الانبياء ثم من الناس من يعين هذا فاليهود يقولون هو يوشع والنصارى يقولون هو المسيح وبعض المسلمين يقولون هو محمد ﷺ يحتجون على ذلك بحجج كثيرة قد ذكرتها في غير هذا الموضع ومنهم من يقول بل هذا اسم جنس وهو عام في كل نبي يأتي بعده ليلا يكذبه كما فعلت اليهود وانكروا النسخ وهذا القول اقرب فيدخل في هذا المسيح ومحمد ومن قبلهما من انبياء بنى اسرائيل فان المقصود أمرهم بتصديق الانبياء وطاعتهم وان الله سبحانه ينزل على الانبياء كلامه فالذى يقولونه هو كلام الله ما سمعوا منه وبسط هذا له موضع

آخر وقد بسط القول في أن الناس يعلمون بالضرورة أن الآيات التي يأتي بها الانبياء آيات من الله وعلامة أعلم بها عباده أنه أرسلهم وأمرهم بطاعتهم والذين كذبوا بها كانوا يقولون ليست من الله بل هي سحراً أو كهانة أو نحو ذلك لا يقرون بأنها آية من الله ويقولون مع ذلك قد يخلقها الله لغير التصديق أو يخلقها ليضل بها الخلق أو نحو ذلك فان بسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها كما قد ذكر سبحانه هذا في مواضع كقوله (ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله) وقوله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ومن ذلك قوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة في دعوة ابراهيم وفي قوله تعالى [كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة] وفي قوله [واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به] وهنا لم يذكر يتلو عليهم آياته ويزكيهم لحكمة تختص بذلك وذكر هذا في آل عمران في قوله [لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وقد قال [واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة] وهذا شبه الموضع الثالث في البقرة . فأخبر في غير موضع عن الرسول انه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فان الآيات هي العلامات والدلالات فاذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والاقرار بوجوب طاعته وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته فالتزكية تكون بطاعة مره كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت آيات القرآن آيات وقيل انها آيات الله كقوله [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق] لانها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضاً على أن الرسول

[م — ٢١ — النبوات]

صادق اذ كانت مما لا يستطيع الانس والجن ان يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وأيضاً فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه متعددة ثم قال [ويعلمهم الكتاب والحكمة] وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى [وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون] وقال تعالى [واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا] ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل انها دلائل للرب وبين النذر وهو الاخبار عن المخوف كاخبار الانبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والانبياء جاؤا بالآيات والنذر وقال تعالى [وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر] وقال تعالى [وان يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير] ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الانبياء جاؤا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالاته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الامام احمد وغيرهم من اتباع الأئمة الأربعة فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك من شابههم مثل ابن درباس وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي وهو المشهور عن أهل الحديث والفقهاء الذين يذمون الكلام وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة ابن الحسين الحنبلي المتكلم وبين طائفة من أصحاب احمد وكذلك بين أبي الفرج ابن الجوزي وطائفة منهم أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع وقد ذكر الآمدى ثلاثة أقوال في طرق العلم قيل بالعقل فقط والسمع لا يحصل به كقول الرازي وقيل بالسمع فقط وهو الكتاب والسنة وقيل بكل منهما ورجح هذا وهو الصحيح والقول الثاني انها لا تجب الا بالشرع لكن

بحصل بالعقل وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل وغيرهم والقول الثالث أنها تحصل بالعقل وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل كالمعتزلة والكرامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدي وأبي الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه وقد صرح هؤلاء قبل المعتزلة وقبل أبي بكر الرازي وأبي الخطاب وغيرهم أن من لم يأت به رسول يستحق العقوبة في الآخرة لمخالفته موجب العقل وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن أعدل الأقوال أن الأفعال مشتملة على أوصاف تقتضي حسنها ووجوبها وتقتضي قبحها وتحريمها وإن ذلك قد يعلم بالعقل لكن الله لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع وذكرنا أن هذه الآية محتج بها الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب حتى قالوا يعذب أطفال الآخرة فاحتجوا بها على المعتزلة والآية حجة على الطائفتين كما قد بسط في غير هذا الموضع.

فصل

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الحجة على من أنكر قدرته وعلى من أنكر حكمته فأول ما أنزل الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فذكر أنه لا كرم وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الاحسان ومن كرمه أنه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه وإن يكتب ذلك بالقلم فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعاني والعلوم فإذا كان قد علمه هذه العلوم [١] فكيف يتمتع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يحبره به وبيان ذلك أنه قال في أول السورة [اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق] ومعلوم أن من رأى العلة قطعة من دم فقل له هذه العلة يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا لكان يتعجب من هذا غاية التعجب وينكره أعظم الإنكار

ومعلوم أن نقل الانسان من كونه علقه الى أن يصير انسانا عالما قادراً كاتباً أعظم من جعل مثل هذا الانسان يعلم ما أمر الله به وما أخبر به فن قدر على أن ينقله من الصغر الى أن يجعله عالماً قارئاً كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق بقدرته على الابتداء وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد فقال تعالى [ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الالهة الها واحداً ان هذا لشيء عجاب] فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى [أكان للناس عجباً ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم] وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل اليهم رجل منهم وقوله [أكان للناس عجباً ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس] دل على أنه منذر لجنس الناس وأنه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم وان كان أول ما أرسل اليهم وبلسانهم وقال تعالى [ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد] وقال تعالى [وان تعجب فمعجب قوهم إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا ببرهم وأولئك الاغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] وقال تعالى [بل عجب ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون] فالرسول كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الانبياء وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر فانهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً قال تعالى [قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أمواه الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون] وأما حكمته في ارسال بشر فقد ذكر أنه من جنسهم وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة وذكر أنهم لا يمكنهم الاخذ عن الملك وأنه لو نزل ملكاً لكان يجعله في صورة بشرياً أخذوا عنه ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة الا في صورة آدميين كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي وكما أتى مرة في صورة أعرابي ولما جاءوا ابراهيم

يا امرأته حاضرة كانوا في صورة بشر وبشروها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب
قال تعالى [وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً
رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً
رسولاً] وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيه فكما تقدم فانه إذا كان قادراً على أن
يهدي الانسان الذي كان علقه ومضغه الى أنواع العلوم بأنواع من الطرق انعاماً عليه
وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق
من أرسله اليه وهذا أعظم النعم عليه والاحسان اليه والتعريف بهذا دون تعريف
الانسان ما عرفه به من أنواع العلوم فانه إذا كان هديهم الى أن يعلم بعضهم صدق
رسول من أرسله اليه بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول وان كان لم تتقدم موافقة
وموافقة بين المرسل والمرسل اليهم فمن هدى عباده الى أن يرسلوا رسولا بعلمة
ويعلم المرسل اليه أنها علامة تدل على صدقه قطعاً فكيف لا يقدر هو أن يرسل
رسولاً ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله وهذا كمن جعل غيره
قديراً عليهما حكيماً فهو أولى أن يكون قديراً عليهما حكيماً فمن جعل الناس يعلمون صدق
رسول يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله فمن هدى العباد الى
هذا فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه وان لم يكن
قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه موافقة وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق
الرسول طريق الحكمة وطريق القدرة وطريق العلم والضرورة وطريق سنته وعادته
التي بها يعرف أيضاً ما يفعل وهو من جنس الموافقة وطريق العدل وطريق الرحمة
وكلها طرق صحيحة وكلما كان الناس الى الشيء أحوج كان الرب به أجود
وكذلك كلما كانوا الى بعض العلم أحوج كان به أجود فانه سبحانه
الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وهو الذي خلق
فسوى والذي قدر فهدي وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فكيف لا يقدر
أن يهدي عباده الى أن يعلموا أن هذا رسوله وان ما جاء به من الآيات آية من الله
وهي شهادة من الله له بصدقه وكيف تقتضي حكمته أن يسوى بين الصادق والكاذب
فيؤيد الكاذب من آيات الصادق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من

هذا وأن يرسل رسولا يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته ولا يجعل لهم طريقاً الى معرفة صدقه وهذا كتكليفهم بما لا يقدرّون عليه وما لا يقدرّون على أن يعلموه وهذا ممتنع في صفة الرب وهو منزّه عنه سبحانه فانه لا يكلف نفساً الا وسعها وقد علم من سنته وعادته أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما أيد به الصادق قطبيل لابد أن يفضحه ولا ينصرده بل لابد أن يهلكه واذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه بل هو ظالم سلطه على ظالم كما قال تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) بخلاف من قال أنه أرسله فهذا لا يؤيده تأييداً مستمراً الا مع الصدق لكن قد يمهل مدة ثم يهلكه كما فعل بمن كذب الرسل أنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فهل الكافرين أمهلهم رويداً ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الاصل انما قيل مضافاً الى الله فيقال رسول الله ثم عرف باللام فكانت اللام تعاقب الاضافة كقوله (فارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) وقوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منهم لو اذا) وكذلك اسم النبي يقال نبي الله كما قال (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) وقيل لهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) فتقولون يا محمد بل قولوا يانبي الله يارسول الله ورسول فعول بمعنى مفعول أي مرسل فرسول الله الذي أرسله الله فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول أي منبأ الله الذي نبأه الله وهذا أجود من أن يقال انه بمعنى فاعل أي منبئ فانه اذا نبأه الله فهو نبي الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه فالذي صار به النبي نبياً أن ينبئه الله وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره فانه اذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله فما نبأه الله حق وصدق ليس فيه كذب لا خطأ ولا عمداً وما يوحىه الشيطان هو من ايجائه ليس من أنبياء الله فالذي اصطفاه الله لانبائه وجماعه نبياً له كالذي اصطفاه الرسلته وجماعه رسولا له فكما أن رسول الله لا يكون رسولا لغيره فلا يقبل أمر غير الله فكذلك نبي الله لا يكون نبياً لغير الله فلا يقبل أنباء أحد الا أنباء الله واذا أخبر بما أنبأ الله وجب الايمان به فانه صادق مصدوق ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان وهذا بخلاف غير النبي فانه وان كان قد يلهم ويوحى اليه أشياء من الله ويكون حقاً فقد ياتى اليه الشيطان أشياء ويشبهه هذا فانه ليس نبياً لله

كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله بخلاف الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله) فبني الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيته النبيون فقال تعالى [قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون] وقال تعالى [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله] وقال تعالى [ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين] وليس كل من أوحى إليه الوحي العام يكون نبياً فإنه قد يوحى إلى غير الناس قال تعالى [وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون] وقال تعالى (وأوحى في كل سماء أمرها) وقال تعالى عن يوسف وهو صغير [فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون] وقال تعالى [وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه] وقال تعالى [واذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي] وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) يتناول وحي الانبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم » وقال عبادة بن الصامت رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إحاء الرب بل من إحاء الشيطان وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الانبياء فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحى الشيطان فإن الشياطين أعداؤهم وهم يوحون بخلاف وحي الانبياء قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) وقال تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وقد غلط في النبوة

طوائف غير الذين كذبوا بها اما ظاهر أو باطناً واما باطناً كالمناقق المحض بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الى الرسول وإلى من قبله وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق وإن لم يكونوا مكذابين للرسول من كل وجه بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام وليس في كلام أرسطو واتباعه كلام في النبوة والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبي ثلاث خصائص أحدها أن ينال العلم بلا تعلم ويسمى القوة القدسية وهي القوة الحدسية عنده. والثاني أن يتخيل في نفسه ما يعلمه فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم وذلك موجود في نفسه لا في الخارج فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه وكذلك المرور عندهم والثالث أن يكون له قوة يتصرف بها في هوى العالم باحداث أمور غريبة وهي عندهم آيات الانبياء وعندهم ليس في العالم حادث الا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبيعية كالنفس الفلكية والانسانية والاشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الاربعة والمولدات لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيء يفعل ولا يحدث شيئاً فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك فضلاً عن رب العالم والعقول التي يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال الى حال البتة لا بارادة ولا قول ولا عمل ولا غير ذلك وكذلك المبدأ الاول وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الانبياء إنما هو من فيض العقل الفعال ثم أنهم لما سمعوا كلام الانبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون الفاظ الانبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعاني بتلك الالفاظ المنقولة عن الانبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الالفاظ المأخوذة عن الانبياء فيظن من لم يعرف مراد الانبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الانبياء وضل بذلك طوائف وهذا موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفاً عندهم وربما حذر عنه ووقع في كلامه طائفة من هذا في الكتب المضمون بها علم غير

أهلها وفي غير ذلك حتى في كتابه الاحياء يقول الملك والممسكوت والجبروت ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذي أثبتته الفلاسفة ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلسفية الى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع وهو في التهاوت وغيره يكفرهم وفي المصنوع به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه وكذلك في الالهيات وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الانبياء توجد لعموم الناس بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل انكساب فانه قد يكون لاحدهم من العلم والعبادة ما يتميز به على غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراصة يكون أفضل من غيره وأما التخيل في نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون لكن هو يقول أن خاصة النبي أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام وهذا موجود لكثير من الناس قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للمرور وللماحر ولكن قالوا الساهر قصده فاسد والمرور ناقص العقل فجعلوا ما يحصل للانبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة وهذا قول الكفار في الانبياء كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة والخطاب هو من جنس ما يحصل للساهر والمجنون لكن الفرق بينه وبين الساهر أنه يأمر بالخير وذاك يأمر بالشر والمجنون ما له عقل وهذا القدر الذي فرقوا به موجود في عامة الناس فلم يكن عندهم للانبياء منزلة على السحرة والمجانين الا ما يشاركون فيه عموم المؤمنين وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة هي عندهم تحصل للساهر وغيره وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين وقد أخبروا بأمور عجيب في العالم فأحالوا ذلك على قوة نفس الانسان فما يأتي به الانبياء من الآيات والسحرة والكهان وما ينجر به المصروع والمرور هو عندهم كله من قوة نفس الانسان فالجبر بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلسفية ويسمونها اللوح المحفوظ والتصرف هو بالقوة النفسانية وهذا حذق ابن سينا وتصرفه لما أخبر بأمور في العالم غريبة لم يمكنه التكذيب بها فاراد اخراجها على أصولهم وصرح بذلك في اشاراته وقال هذه الامور

لم نثبتها ابتداء بل لما تحققنا أن في العالم أموراً من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبياء ولكن كان السحر موجوداً فيهم وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والالهية فان حدوث هذه الغرائب من الجن واقتنائهم بالسحرة والكهان مما قد عرفه عامة الأمم وذكره في كتبهم غير العرب مثل الهند والترك وغيرهم من المشركين وعباد الاصنام وأصحاب الطلاسم والعزائم وعرفوا أن كثيراً من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبياً وكذلك ابن سبعين وغيره والنبوة الحق هي أنباء الله لعبده ونبي الله من كان الله هو الذي ينبئه ووحيه من الله وهؤلاء وحيهم من الشياطين فهم من جنس المتنبيين الكذابين كسيامة الكذاب وأمثالهم أولئك أصدق منهم فانهم كانت تأتيتهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمر غائبة وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا وكذلك صرعههم للانس وتكلمهم على الستهم والفرق بين النبي الساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار والنبي يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله والساحر والكاهن إنما معه شيطان يأمره ويخبره قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرتهم كاذبون) فلا الخبر كالحبر ولا الأمر كالامر ولا خبر هذا كخبر هذا ولا أمر هذا كامر هذا كما أنه ليس هذا مثل هذا ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن الى محمد وأنه ملك منفصل ليس خيالا في نفسه كما يقوله هؤلاء قال تعالى (انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رحيم فأين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين) فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله الشيطان وهو ملك كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى والشياطين لا يطاعون لافي السموات بل ولا يصعدون اليها وابليس من حين أهبط منها لم يصعد اليها ولهذا كان أصح القولين

أن جنة آدم جنة التكليف لم تكن في السماء فان ابليس دخل الى جنة التكليف جنة آدم بعد اهباطه من السماء وقول الله له [فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين] وقوله قال [فاخرج منها مذموما مدحوراً] لكن كانت في مكان عال في الارض من ناحية المشرق ثم لما أكل من الشجرة أهبط منها الى الارض كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن يراد به بستان في الارض كقوله [انا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة] وقوله (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) الى قوله (كلتا الجنتين أتتا أكلاً ولم تظلم منه شيئاً) الى قوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) وقوله تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة) الآية الى قوله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) الآية ، وقوله تعالى (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال) الى قوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وائل وشئ من سدر قليل) وقوله (كم تركوا من جنات وعيون) الآية وقوله (أتتركون فيما ههنا آمين في جنات وعيون) وجنة الجزاء والثواب التي في السماء لم يدخلها الشيطان بعد أن أهبط من السماء وهو أهبط من السماء لما امتنع من السجود لآدم قبل أن يدخل آدم الى جنة التكليف التي وسوس له وأخرجه منها وجنة الجزاء مخلوقة أيضاً وقد أنكر بعض أهل البدع أن تكون مخلوقة وقال ان آدم لم يدخلها لكونها لم تخلق بعد فأنكر ذلك عليه من أنكره من علماء السنة وقد ذكر أبو العالية وغيره من السلف أن الشجرة التي نهى عنها آدم كان لها غائط فلما أكل احتاج الى الغائط وجنة الجزاء ليس فيها هذا لكن الله أعلم بصحة هذا النقل وانما المقصود أن بعض السلف كان يقول أنها في السماء وبعضهم يقول أنها في مكان عال من الارض ولفظ الجنة في القرآن قد ذكر فيما شاء الله من المواضع وأريد به جنة في الارض وجنة الجزاء مخصوصة بما تمهم كقوله (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى) (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى) (وما أثرتنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) وقال تعالى (ولا تحسبن

الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان ونعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من جهنم وتصلية جحيم) وهذا غير ما ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى وأصحاب اليمين ومكذبين فإنه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرى وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت وهو القيامة الصغرى كما قال المغيرة بن شعبه من مات فقد قامت قيامته وكذلك قال علقمة وسعيد بن جبيرة عن ميت أما هذا فقد قامت قيامته أى صار إلى الجنة أو النار وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن ويقعد بقرنه ومقصودهم أن الشخص لا يستبقى الثواب والعقاب فهو إذا مات يكون في الجنة أو في النار قال تعالى عن قوم نوح (مما خطاياهم أغرقوا فادخلوا ناراً) وقال عن آل فرعون (النار يعرضون عليها غدأ وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وبسط هذا له موضع آخر (والمقصود هنا) الكلام على النبوة فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم فانهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه ولهذا يقول ابن عربي إن الأولياء أفضل من الأنبياء وإن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد وأنه هو يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول فإن الملك عنده هو الخيال الذى فى النفس وهو جبريل عندهم وذلك الخيال تابع للعقل فالنبي عندهم يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت فى نفسه ولهذا يقولون إن موسى كلم من سماء عقله والصوت الذى سمعه كان فى نفسه لا فى الخارج ويدعى أحدهم أنه أفضل من موسى وكما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد فإنه يأخذ عن العقل الذى يأخذ منه الخيال والخيال عنده هو الملك الذى يأخذ منه النبي فلهذا قال فإنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى النبي قال فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخرى (والمقصود هنا) الكلام على النبوة فالنبي هو الذى ينشئه الله وهو نبيء بما أنبأ الله به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليلغيه رسالة من الله إليه فهو رسول وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى

أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى الى الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر ارسال النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته الى من خالف الله كنوح وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث الى أهل الارض وقد كان قبله أنبياء كشيخ وادريس وقبلهما آدم كان نبيا مكلما قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام فأولئك الانبياء يأتيهم وحى من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنون الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول وكذلك أنبياء بني اسرائيل يأمرهم بشريعة التوراة وقد يوحى الى أحدهم وحى خاص في قصة معينة ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن كما فهم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود فالانبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخير والأمر والنهي فان ارسلوا الى كفار يدعونهم الى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ولا بد أن يكذب الرسل قوم قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) وقال (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك) فان الرسل ترسل الى مخالفين فيكذبهم بعضهم وقال (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون حتى اذا استأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فذنبجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وقال [انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد] فقوله [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي] دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولا عند الاطلاق لانه لم يرسل الى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه انه حق كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ العلماء ورثة الانبياء وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة فان يوسف كان رسولا وكان على ملة ابراهيم وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات

فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) وقال تعالى [انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وآتيناهم داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً] والارسل اسم عام يتناول ارسال الملائكة وارسال الرياح وارسال الشياطين وارسال النار قال تعالى (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس) وقال تعالى (جاعل الملائكة رسلاً أولى اجنحة) فهنا جعل الملائكة كلهم رسلاً والملك في اللغة هو حامل الالوكة وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي كما قال وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً فيوحي بأذنه ما يشاء وقال تعالى [وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته] وقال تعالى [انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أذاً] لكن الرسول المضاف الى الله اذا قيل رسول الله فهم من يأتي برسالة من الله من الملائكة والبشر كما قال (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) وقالت الملائكة [يا لوط انا رسل ربك ان يصلوا اليك] وأما عموم الملائكة والرياح والجن فان ارسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة قال تعالى [اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً] فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الاطلاق وأما من أرسله الله ليفعل فعلاً بمشيئة الله وقدرته فهذا عام يتناول كل الخلق كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وأذنه المتضمن لمشيئته لكن أهل الايمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه وان كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته وهذا كلفظ البعث يتناول البعث الخاص بالبعث الشرعي كما قال (هو الذي بعث في الاميين رسلاً منهم) ويتناول البعث العام الكوني كقوله (فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاؤوا خلال الديار) وقال تعالى [واذا تأذن ربك ليعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب] فالعام يحكم مشيئته وقدرته والخاص هو أيضاً يحكم مشيئته وقدرته وهو مع ذلك يحكم أمره ورضاه ومشيئته وساحب الخاص

أولياء الله يكرمه ويثبته وأما من خالف أمره فإنه يستحق العقوبة ولو كان فاعلاً بحكم المشيئة فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً ولا يحتاج بالمشيئة على المعاصي إلا من تكون حجته داحضة ويكون متناقضاً متبعاً لهواه ليس عنده علم بما هو عليه كالمشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا أبأؤنا ولا حرمننا من شيء) كما قد بسط في غير هذا الموضع والله أعلم.

فصل

الدليل الذي هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم فإنه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه وتارة يتحقق مع عدمه فإذا تحقق لم يعلم هل وجد المدلول أم لا فإنه كما يوجد مع وجوده يوجد مع عدمه ولهذا كان الدليل أما مساوياً للمدلول عليه وأما أخص منه لا يكون أعم من المدلول ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص كطلوع الشمس والقمر والكواكب لا يدل على صدق أحد ولا كذبه لا مدعى النبوة ولا غيره فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق لكن يدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وقدرته ومشيئته وحكمته فإن وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه فهذا كانت المخلوقات كلها آيات للرب فما من مخلوق إلا وهو آية له هو دليل وبرهان وعلمة على ذاته وصفاته ووحدانيته وإذا عدم كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه ويجمع على المعلوم الواحد من الأدلة ما لا يحصيه إلا الله وقد يكون الشيء مستلزماً لدليل معين فإذا عدم عرف انتفاءه وهذا مما يكون لازماً لازوماً فتكون الملازمة من الطرفين فيكون كل منها دليلاً وإذا قدر انتفاءه كان دليلاً على انتفاء الآخر كالدلالة على الأحكام الشرعية فما من حكم إلا جعل الله عليه دليلاً وإذا قدر انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم علم أنه ليس حكماً شرعياً وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله فإنه إذا نقل دل التواتر على وجوده وإذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعي على نقله أو كان موجوداً علم أنه لم يوجد كالأموال الظاهرة التي يشترك فيها الناس مثل موت ملك وتبديل ملك

وتبدل ملك بملك وبناء مدينة ظاهرة وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد فقل
هذه الأمور لا بد أن ينقلها الناس إذا وقعت فإذا لم تنقل نقلاً عاماً بل نقلها واحد
علم أنه قد كذب وهذا مبسوط في غير هذا الموضع وقد بسط في غير هذا الموضع
الفرق بين الآية التي هي علامة تدل على نفس المعلوم وبين القياس الشمولى الذى
لا يدل إلا على قدر كلى مشترك لا يدل على شئ معين اذ كان لا بد فيه من قضية
كلية وإن ذلك القياس لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة ولا يفيد معرفة شئ
لا الخالق ولا نبي من أنبيائه ولا نحو ذلك بل إذا قيل كل محدث فلا بد له من محدث
دل على محدث مطلق لا يدل على عينه بخلاف آيات الله فانها تدل على عينه وبيننا أن
القرآن ذكر الاستدلال بآيات الله وقد يستدل بالقياس الشمولى والتمثلى لكن دلالة
الآيات أكمل وأتم وتبين غلط من عظم دلالة القياس الشمولى المنطقي وانهم من أبعد
الناس عن العلم والبيان وذكرنا أيضاً غلط من فضل الشمولى على التمثلى وانها من
جنس واحد والتمثلى أنفع وانما الآيات تكون أحسن وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى
ما ذكره أبو بكر ابن الأنبارى وغيره في الآيات آيات القرآن مثل قوله قد كانت
آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين ثلاثة أقوال قال في معنى
الآية ثلاثة أقوال أحدها انها العلامة فعنى آية علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها
وبعدها قال الشاعر ❦

ألا أبلغ لديك بنى تميم ❦ بآية ما يحبون الطعاما

وقال النابغة : توهمت آياتها فعرفتها ❦ لست أعوام وذا العام سابع

قال وهذا اختيار أبي عبيد قلت أما أن الآية هي العلامة في اللغة فهذا صحيح
وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك وأما تسمية الآية من القرآن آية لأنها علامة
صحيح لكن قول القائل أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها وبعدها ليس بطائل
فإن هذا المعنى الحد والفصل فالآية مفصلة عما قبلها وعما بعدها وليس معنى كونها
آية هو هذا وكيف وآخر الآيات آية مثل آخر سورة الناس وكذلك آخر آية من
السورة وليس بعدها شئ وأول الآيات آية وليس قبلها شئ مثل أول آية من القرآن
ومن السورة وإذا قرئت الآية وحدها كانت آية وليس معها غيرها وقد قام النبي ﷺ

بآية يرددها حتى أصبح ان تعذيبهم فانهم عبادك وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فهي آية في نفسها لا لكونها منقطعة مما قبلها وما بعدها وأيضاً فكونه علامة على هذا الانقطاع قدر مشترك بين جميع الاشياء التي يتميز بعضها عن بعض ولا تسمى آيات والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها وهي آيات كثيرة وأيضاً فالكلام الذي قبلها منقطع وما قبلها آية فليست دلالة الثانية على الانقطاع بأولى من دلالة الاولى عليه وايضاً فكيف يكون كونها آية علامة للتمييز بينها وبين غيرها والله سماها آياته فقال تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والصواب انها آية من آيات الله اى علامة من علاماته ودلالة من اداة الله وبيان من بيانه فان كل آية قد بين فيها من امره وخبره ما هي دليل عليه وعلامة عليه فهي آية من آياته وهي ايضاً دالة على كلام الله المبين لكلام المخلوقين فهي دلالة على الله سبحانه وعلى ما أرسل بها رسوله ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآي التي يختتم بها كل آية صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآي وهذا كان النبي ﷺ يقف على رؤوس الآي كما نعت قراءته الحمد لله رب العالمين وتقف الرحمن الرحيم وتقف مالك يوم الدين وتقف ويسمى اصحاب الوقف وقف السنة لأن كل آية لها فصل ومقطع تميز عن الاخرى . قال والوجه الثاني انها سميت آية لانها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه قال أبو عمر الشيباني يقال خرج القوم بآيتهم اى بجماعتهم وأنشدوا

خرجنا من النقبين لاحي مثلنا [١] بآياتنا ترجى اللقاح المطافلا [١]

قلت هذا فيه نظر فان قوهم خرج القوم بآيتهم قد يراد به العلامة التي تجمعهم مثل الراية واللواء فان العادة ان كل قوم لهم امير تكون له آية يعرفون بها فاذا أخرج الامير آيتهم اجتمعوا اليه ولهذا سمي ذلك علماء والعلم هي العلامة والآية ويسمى راية لانه يرى غروجهم بآيتهم اى بالعلم والآية التي تجمعهم فيستدل به على غروجهم جميعهم فان الامير المطاع اذا خرج لم يتخلف احد بخلاف ما اذا خرج بعض امرائه والا فلفظ الآي هي العلامة وهذا معلوم بالاضطرار من اللغة والاشتراك في اللفظ لا يثبت بأمر محتمل . قال والثالث انها سميت آية لانها عجب وذلك أن قارئها يستدل

[١] البيت لبرج بن مسهر الطائي

إذا قرأها على مباينتها لكلام المخلوقين وهذا كما يقول فلان آية من الآيات أى عجب من العجائب ذكره ابن الأنبارى قلت هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله فان آيات الله كلها عجيبة فانها خارجة عن قدرة البشر وعمما قد يشبه بها من مقدور البشر والقرآن كله عجب تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى انهم قالوا [انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشاد فآمنابه ولن نشرك ربنا احداً] فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام وهو كما في الحديث لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق [١] عن كثرة الرد وكل آية لله خرجت عن المعتاد فهو عجب كما قال تعالى [ام حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا] فالآيات العلامات والدلالة ومنها مألوف معتاد ومنها خارج عن المألوف المعتاد وآيات القرآن من هذا الباب فالقرآن عجب لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب بل مسمى الآية اعم ولهذا قال كانوا من آياتنا عجبا ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله وانها غير المعتاد دائماً كما قال النبي ﷺ «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانها لا تحسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنها آيتان من آيات الله يخوف بها عباده» وقد قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون وآتيناهمودة الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخوفاً) وفي الحديث الصحيح لما دخلت اسماء على عائشة وهي في الصلاة فسألتها فقالت سبحان الله فقالت آية فأشارت أى نعم وتسمى صلاة الكسوف صلاة الآيات وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحد في جميع الآيات التي يحصل بها التخويف كانتشار الكواكب والظلمة الشديدة وتصلى للزلزلة نص عليه كما جاء الأثر بذلك فهذه الآيات أخص من مطلق الآيات وقد قال تعالى [وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين] وقال ﷺ «ثلاث آيات يتعلمن خير له من ثلاث خلفات سمان» ثم

فصل

والدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم الى ما يدل بنفسه والى ما يدل بدلالة الدال به فيكون الدليل في الحقيقة هو الدال به الذي قصد أن يدل به وقد جعل ذلك علامة

[١] ولا يخلق عن كثرة الرد أى لا يبلى من كثرة التردد

وآية ودليلا والذي يدل بنفسه يعلم أنه يدل بنفسه وان لم يعلم أن أحداً جملة دليلا وان كان في نفس الأمر كل مخلوق قد جعل له الله آية ودلالة وهو سبحانه عليم مرید فلا يمكن أن يقال لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له ولأنها ليست دليلا يجعلها أدلة كما قد يطلقه طائفة من النظائر ولكن يستدل بها مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة كما قد يطلقه اذ كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة والذي جعلها دليلا وهو الله جعل ذاتها يستدل بها مع قطع النظر عن كونها هي دليلا فما من مخلوق الا ويمكن الاستدلال به على الخالق والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل أن له محدثاً وهذه الادلة التي تدل بنفسها قد تسمى الادلة العقلية ويسمى النوع الآخر الادلة الوضعية لكونها انما دلت بوضع واضح والتحقيق أن كلاهما عقلي اذا نظر فيه العقل علم مدلوله لكن هذه تدل بنفسها وتلك تدل بقصد الدال بها فيعلم بها قصده وقصده هو الدال بها كالكلام فانه يدل بقصد المتكلم به واراادته وهو يدل على مراده وهو يدلنا بالكلام على ما أراد ثم يستدل باراادته على لوازمها فان اللازم ابداً مدلول عليه بملزومه والآيات التي تدل بنفسها مجردة نوعان منها ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه مثل دلالة المخلوقات على الخالق ومنها ما هو مستلزم له مدة طويلة أو قصيرة فتدل عليه تلك المدة مثل نجوم السموات فانه يستدل بها على الجهات والامكنة وعلى غيرها من النجوم وعلى الزمان ماضيه وغايته مادام العالم على هذه الصورة قال تعالى [والقي في الارض رواسباً أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون] وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فعلنا الآيات لقوم يعقلون) ثم قال وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقروا مستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون ثم قال [وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً] الى قوله (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وقوله (والقي في الارض رواسباً أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون) وعلامات هي علامات ألقاها في الارض وهذا قول الاكثرين. قالت طائفة هي معالم الطرق يستدل بها بالنهار ويستدل بالنجم بالليل وقالت طائفة هي الخيال وهي ايضاً مما يستدل به ولهذا سماها الله اعلاماً في قوله (ومن آياته الجوارى في البحر كالاعلام فبأى آلاء ربكم تكذبان) أى كالخيال والاعلام جمع علم والعلم ما يعلم به كالعلامة ومنه اعلام الطرق المنصوبة ومنه بقال لدلائل النبوة

أعلام النبوة ويقال للراية المرفوعة أنها علم وأنها جعلت علامة لصاحبها واتباعه والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يعلم به كما أن الخاتم ما يختم به وهو بمعنى العالم (١) ويسمى كل صنف من المخلوقات علماً لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر فإنه الذي يعلم بالخاتم بالكسر فإنه الذي يختم قال تعالى [ولكن رسول الله وخاتم النبيين] لأنه ختمهم كما يسمى الماحي والحاسر والعاقب. وقد قرئ وختم أى ختموا به فالجبال أعلام وهى علامات لمن في البر والبحر يستدل بها على ما يقاربها من الامكنة فإنه يلزم من وجودها وجوده وهى لا تزال دالة مادامت موجودة ومدلولها موجوداً وهى أثبت من غيرها فقد يكون عندها قرية وسكان فيكون علماً عليهم ثم قد تخرب القرية ويذهب السكان فتزول الدلالة لزوال المأزوم وهذا كله مما يبين أن الدليل قد يكون معينا بل الآيات كلها معيّنَة وأن يكون مطابقاً ملازماً لمدلوله ليس أحدهما أعم من الآخر كالثريا مع البران وكالجدي مع بنات نعش ونحو ذلك فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الأدلة فيقال اما أن يستدل بالعام على الخاص أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر والأول هو القياس الشمولى والثانى هو الاستقراء والثالث هو التمثيل وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط في حصره وفي حكم أقسامه فإن هؤلاء المقسمون للامور العامة كثيراً ما يغلطون في هذا وهذا اذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الاقسام ولا يدخل فيها ما ليس منها كالحادوثهم يغلطون فيها كثيراً لعدم احاطتهم بأقسام المقسوم كما يقسمون أقسام الموجودات أو أقسام مدارك العلم أو أقسام العلوم أو غير ذلك وليس معهم دليل على الحصر الا عدم العلم وحصر الاقسام في المقسوم هو من الاستقراء ثم اذا حكموا على تلك الاقسام بأحكام فقد يغلطون أيضاً كما قد ذكر هذا في غير هذا الموضع مثل غلط من حصر الأدلة في هذه الأنواع من أهل المنطق ومن تبعهم وقد بسط هذا في مواضع وذلك مثل قولهم الدليل اما أن يستدل بالعام على الخاص أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر فان الدليل أولاً لا يكون قط أعم من المدلول عليه اما مساوياً له واما أخص منه فان الدليل ملازوم للمدلول عليه والملازوم

(١) وهو بمعنى العالم أى لأنه يعلم به نسبة الختم الى صاحبه

حيث تحقق تحقق اللازم وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم فحيث تحقق الدليل تحقق المدلول عليه فإذا كان مساوياً له أو أخص كان حيث تحقق المدلول كما أنه حيث تحقق ما هو ناطق النطق الذي يختص الانسان تحقق الانسان وتحقق أيضاً ما هو أعم من الانسان وهو ثبوت حيوان وجسم حساس نام متحرك بالارادة بمعنى أنه تحقق مطلق هذا الجنس والا فلم يوجد شيء أعم من الانسان بمجرد وجوده لكن وجده من صفاته ما يشبهه به غيره ويصح اطلاقه عليه وعلى غيره وهو مسمى الجسم والحيوان ونحو ذلك وكذلك إذا وجد آية أو خبر يدل على الإيجاب أو التحريم لزم ثبوت الإيجاب أو التحريم وقد ثبت الإيجاب والتحريم بآية أخرى أو خبر آخر فلماذا قيل الدليل يجب طرده ولا يجب عكسه وإذا كان الدليل لا يكون أعم من المدلول عليه فقولهم إما أن يستدل بالعام على الخاص إنما أرادوا به القياس الشمولى الذى هو مقدمتان صغرى وكبرى كقولنا النبذ المتنازع فيه مسكر وكل مسكر حرام أو كل مسكر خمر كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» بين أن المسكر موصوف بأنه خمر وبأنه حرام ولم يقصد القياس الشمولى وهو أن يستدل على أن المسكر حرام فالرسول أجل من هذا شرعاً وعقلاً ﷺ فإنه بكلامه يثبت الأحكام وغيره إذا قال كل مسكر خمر أو حرام احتاج أن يستدل عليه وأما هو فيستدل بنفس كلامه والنظم الشمولى المنطقي لا يوجد في كلام فصيح بل هو طويل لا يحتاج إليه كما قد بسط في مواضع وبين أن الدليل قد يكون مقدمة واحدة وقد يكون مقدمتين وقد يكون ثلاث مقدمات وأربع وأكثر بحسب ما يحتاج إليه المستدل الطالب لدلالة نفسه أو الطالب ليدل غيره فإنه قد لا يحتاج إلا الى مقدمة واحدة مثل من عرف أن الخمر حرام لكن لم يعرف أن كل مسكر هو خمر فإذا عرف بالنص أن كل مسكر خمر عرف أن كل مسكر حرام وكان علمه موقوفاً على مقدمة واحدة بخلاف من لم يكن عرف بعد أن الخمر حرام فيحتاج الى مقدمة ثانية ثم إن كان عرف أن محمداً رسول الله بنصوصه المتواترة كفاه ذلك وإن كان لم يقر بنبوته احتاج الى مقدمة ثالثة وهو الايمان بأنه رسول الله لا يقول على الله إلا الحق ويذكر له من دلائل النبوة واعلامها ما يعرف به ذلك فيمتدى إن كان طالب علم وتقوم عليه الحجة إن يكن كذلك فقول

هؤلاء في مثل هذا انا استدللنا بالعام على الخاص لبس عظيم فان المدلول عليه وهو
 تحريم النبيذ المتنازع فيه مثلاً وان كان أخص من تحريم المسكر والخمر فالدليل ليس
 هو القضية العامة بل الدليل أن النبيذ المتنازع فيه مسكر وهو إحدى المقدمتين وهذه
 قضية خاصة أخص من مسمى المسكر فان المسكر يتناول المتفق على تحريمه والمتنازع
 فيه وهذا هو الحد الاوسط وهو المتكرر في المقدمتين الذي هو محمول في الصغرى
 موضوع في الكبرى فالاستدلال وقع باسكاره على أنه خمر ومحرم ومسكر النبيذ
 المتنازع فيه أخص من مسمى المسكر والخمر والمقدمة الثانية الكبرى وهي قولنا وكل
 مسكر خمر ليست هي الدليل بل لا بد من الصغرى معها وهي خاصة فالمدلول عليه ان
 كان تحريم النبيذ المتنازع فيه فهذا انما يدل على تحريمه أنه مسكر وليس اسكاره أعم
 منه بل يلزم من ثبوت اسكاره ثبوته فان ثبوت الموصوف بدون الصفة متمنع فاسكاره دل
 على تحريمه وليس تحريمه أعم من اسكاره بل جنس الاسكار والحرام أعم من هذا المسكر فهذا
 المحرم لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص بل قوله كل مسكر حرام يدل على
 تحريم كل مسكر مطلقاً من غير تعيين فيكون الاسكار مستلزماً للتحريم والمسكر أخص
 من الحرام وهذا استدلال بالخاص على العام فوجود المسكر أخص من وجود الحرام
 حيث كان مسكر كان الحرام موجوداً وليس اذا كان الحرام موجوداً يجب وجود
 المسكر لان المحرمات كثيرة كالدم والميتة ولحم الخنزير فالحد الاوسط وهو المسكر دل
 على ثبوت الاعم وهو التحريم من الاخص (١) في الاخص وهو النبيذ المتنازع فيه
 فالمدلول عليه التحريم وهو اعم من المسكر فهو استدلال بالخاص على العام لكن المعنى
 العام الكلي لا يوجد في الخارج عاماً كلياً بل معيناً فهو استدلال على نوع من أنواعه
 وهو التحريم الثابت في النبيذ المتنازع فيه وهذا أخص من مطلق التحريم كما أن
 مسكره أخص من مطلق المسكر ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص حيث
 استدلوا بتحريم كل مسكر على تحريم هذا المسكر وليس الامر كذلك بل الذي دل
 على تحريم هذا المسكر ليس هو مجرد القضية العامة الكلية بل لا بد معها من قضية أخص
 منها جزئية مثل قولنا هذا النبيذ مسكر وبهذا الخاص يعلم ثبوت ذلك لا بمجرد العام

والدليل هنا ليس هو أعم من المدلول عليه ولا يمكن ذلك قط وأما قولهم ان الاستدلال بالحاصل على العام هو الاستقراء فمجرد الحاصل ان لم يستلزم العام لا يدل عليه والمستقرى ان لم يحصر الافراد لا يعلم أن ذلك المعنى شامل لها فما استدلل بخاص على عام بل بعام مثله مطابق له وقولهم في قياس التمثيل انه استدلال بخاص على خاص ليس كذلك فان مجرد ثبوت الحكم في صورة لا يستلزم ثبوته في أخرى ان لم يكن بينهما قدر مشترك ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم والمشارك هو الذى يسمى في قياس التمثيل الجامع والوصف والعلة والمناط ونحو ذلك فان لم يقم دليل على أن الحكم متعلق به لازم له لم يصح الاستدلال وهذا المشترك في قياس التمثيل هو الحد الاوسط في قياس الشمول بعينه *

فالمنعنى في القياسين واحد ولكن التأليف والنظم متنوع اذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس الشمول (١) قال هذا هو حرام لانه شراب مسكر فيكون حراماً قياساً على المسكر من الغنبل فالدليل هو المسكر وهو المشترك وهو الحد الاوسط ثم لا يكفي ذلك حتى يبين أن العلة في الاصل هي المشترك فيقول وعصير الغنبل حرم لكونه مسكراً وهذا الوصف موجود في الفرع الذى هو صورة النزاع فيجب اشتراكهما في التحريم وقوله انه حرام لكونه مسكراً هي المقدمة الكبرى في قياس الشمول وهي قولنا كل مسكر حرام فثبت أن علة التحريم هي السكر اما بالنص وهو قوله كل مسكر حرام واما بدلالة القرآن وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة واما بالناسبة واما بالدوران واما بالسبر والتقسيم كما قد عرف في موضعه وهو نظير ما استدلل به على ثبوت القضية الكبرى ثم الدليل قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً لخصوص المادة لا تعلق لذلك بصورة القياس فمن جعل قياس الشمول هو القطعى دون قياس التمثيل فقد غلط كما أن من جعل مسمى القياس هو التمثيل دون الشمول فلم يفهم معناه والذى عليه جمهور العلماء ان كلا منهما قياس قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً وطائفة يقولون اسم القياس لا يستعمل الا في الشمول كما يقوله ابن حزم ومن يقوله من المتعلقين وطائفة يقولون لا يستعمل حقيقة الا في التمثيل ومن هؤلاء من يقول ليس في العقلية قياس وهذا مبسوط في مواضع

﴿والمقصود هنا﴾ التنبيه على جنس الأدلة وأيضاً فالدليل قد يكون مطابقاً لممدلول عليه ملازماً له ليس أعم منه ولا أخص منه كالكواكب التي في السماء المتلازمة التي يستدل بكل منها على الآخر وكلناطقية والانسانية التي يستدل بشبوت كل منهما على ثبوت الآخر وهذا خارج عن تقسيمهم فان هذا ليس استدلالاً بعام على خاص ولا بخاص على عام ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل بل هو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر قد يكونان عامين وخاصين فالكواكب خاصة والعام كالاستدلال بالحيوانية على الحسن والحركة الا أنه استدلال بعام على عام ملازم له وكذلك الاستدلال بكونه جسماً على وجود جنس العرض والاستدلال بوجود جنس العرض على وجود جنس الجسم هو استدلال بأحد العامين المتلازمين على الآخر ﴿والمقصود هنا﴾ أن هذه المعينات كالنجوم والحيال والطرق وعلام الطرق كلها آيات وأعلام وعلامات على ما هو لازم لها في العادة وكذلك قد يستدل على منزل الشخص بما هو ملازم من دور الحيران والباب وغير ذلك وشجرة هناك وغير ذلك من العلامات التي يذكرها الناس يستدلون بها ويدلون غيرهم بها وسميت الحيال أعلاماً لأنها مرتفعة عالية والعالي يظهر ويعلم ويعرف قبل الشيء المنخفض ولهذا يوصف العالي بالظهور كقوله فما استطاعوا أن يظهروه ويقال ظهر الخطيب على المنبر ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء» فادخل معنى العلو في اسمه الظاهر لان الظاهر يعلو والعالي يظهر وكذلك العالي يعرف قبل غيره ومنه قيل عرف الديك أصله فعل بمعنى مفعول أي معروف كما يقال كره بمعنى مكروه ومنه الاعراف وهي أمكنة عالية بين الجنة والنار وقد قيل في قوله وعلامات وبالنجم ان العلامات هي النجوم منها ما يكون علامة لا يهتدى به ومنها ما يهتدى به وقول الأكثرين أصح فان العلامات كلها يهتدى بها ولانه قد قال [والقى في الارض رواسى أن تמיד بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات] وهذا كله مما ألقاه في الارض وهو منصوب بألقى أو بفعل من جنسه كما قال بعضهم أي وجعل في الارض أنهاراً لان الالتقاء من جنس الجعل وبسط ما في هذا من اعراب ومعان له مقام آخر ﴿والمقصود هنا﴾ ذكر العلامات والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسي والسبل فان كونها رواسى وسبلاً يسلكها الناس غير كونها علامات والعطف قد يكون لتغاير الصفات مع اتحاد الذات كقوله [الذي خلق

فسوى والذي قدر فهدى] وأمثاله فكيف اذا كانت العلامات تتناول هذا وغيره فان الجبال أعلام وهى علامات وكذلك الطرق يستدل بها السالك فيها ولهذا يسمى الطريق اماماً لان السالك يأتى به وكذلك يسمون ما يستدل به المستدل طريقاً ومسالكاً ويقال لاصحاب هذا القول عدة طرق ومسالك حتى أطلقوا على ما يصنف من الاحتجاج على مسائل النزاع طريقة لانه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع ومن هذا الباب الاستدلال على المرض بعلامات له والاستدلال بالاصوات فان كانت كلاماً كانت الدلالة قصدية ارادية قصد المتكلم أن يدل بها وهى دلالة وضعية عقلية وان كانت غير كلام كانت الدلالة عقلية طبيعية كما يستدل بالاصوات التى هى بكاء وانتحاب وضحك وقهقهة وفنحنة وتنخم ونحو ذلك على أحوال المصوت ومن الدلائل الشعائر مثل شعائر الاسلام الظاهرة التى تدل على أن الدار دار الاسلام كالأذان والجمع والاعياد. وفي الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ اذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح فان سمع أذاناً أمسك وان لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح» هذا لفظ البخارى. ولفظ مسلم «كان يغير اذا طلع الفجر وكان يستمع الاذان فان سمع أذاناً أمسك والا أغار فسمع رجلاً يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ على الفطرة ثم قال أشهد أن لا اله الا الله فقال خرجت من النار» وعن عصام المزنى قال كان النبی ﷺ اذا بعث السرية يقول اذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه. ومن هذا النوع دلائل الجهات ومنه دلائل القبلة يستدل عليها بالنجوم والشمس والقمر والرياح والطرق وغير ذلك من الدلائل كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة

فصل

والنوع الثانى ما يدل بقصد الدال به كالكلام وكالعقد باليد والاشارة بها أو بعين أو الحجاب أو غير ذلك من الاعضاء وقد يسمى ذلك رمزاً ووحياً وكذلك الخط خط الكتابة بخلاف الاستدلال بآثار خطى الانسان فان هذا من النوع الاول وكذلك القيافة وهى من النوع الاول وهو الاستدلال بالشبه على النسب وكذلك القاييف قد يعرف

بـالـأـثـر مـن هـو الـوَاطِئـة وأـيـن ذـهـب و مـن هـذا النـوع الـأـمـيـال الـتـي جـعـلـت عـلـامـات عـلـى حـدود الحـرم والـأـمـيـال الـتـي تـجـعـل فـي الطـرـقـات فـانـه قـصـد بـها الدـلـالـة عـلـى الطـرـيـق أـى قـصـد النـاس بـها ذـلـك . وهـذا النـوع قـسـمـان : مـنـه مـا يـكـون بـالـاتـفـاق والمـوَاطـاة بـيـن اثـنـيـن فـصـاعـداً كـمـا يـتـفـق الرـجـل مـع وكيـلـه عـلـى عـلـامـة لـمـن يـرـسـلـه اليـه مـثـل و ضـع خـنـصـره فـي خـنـصـره ومـثـل و ضـع يـده عـلـى تـر قـوتـه كـمـا روى أن النـبـي ﷺ جـعـل ذـلـك عـلـامـة مـع بـعض النـاس وكـمـا يـجـعـل المـلـوك و غـيـرهم لـهم عـلـامـات عـند بـعض النـاس مـن جـاء بـها عـر فـوا أنه مـر سـل مـن جـهـتـه و مـن هـذا البـاب شـعـائر النـاس فـي الحـرب كـل طـائـفة يـعـرف أـصـحـابـها بـشـعـارها ولـهـذا قـال الفـقـهـاء و يـجـعـل لـكـل طـائـفة شـعـاراً يـتـداعـون بـه كـمـا كـان لـلـمـهـاجـريـن شـعـار ولـلـانـصـار شـعـار . و مـن هـذا البـاب الـاعـلام والـرـايـات لـلـمـقـدمـيـن فـان الرـايـة تـرى فـيـعـلم صـاحـبـها وكـذلـك العـلم يـعـلم فـيـعـلم صـاحـبـه و قـد تـمـيز رايـة عـن رايـة لـمـا يـخـتـص بـه صـاحـبـها و يـسـمـى ذـلـك رنـكا و قـد يـكـون ذـلـك اسـم الشـخـص و قـد يـكـون غـيـر ذـلـك لـكـن قـد اتـفـق مـع غـيـره عـلـى أن هـذا عـلـامـة وآيـة لـه فـتـى روى اسـتـدل بـه عـلـى أنه هـو المـضـاف اليـه ذـلـك العـلم و يـجـعـل هـذا عـلـى الدـور والثـياب والدواب و مـنـه الوـسـم الـذـى يـعـلم بـه ابل الصـدـقـة و ابل الحـزـبـة فـان الوـسـم عـلـامـة مـقـصـودـة لـلـواسـم وأـما السـيـما فـهـي عـلـامـة بـنـفـسـها لـمـ يقـصـد هـا مـثـل سـيـما المـؤمـنـيـن و سـيـما المـنـافـقيـن قـال تـعـالـى فـي المـؤمـنـيـن (سـيـاهم فـي و جـوهـهم مـن أـثـر السـجـود) و قـال فـي المـنـافـقيـن (فـلـعـر فـتـهم بـسـيـاهم) و قـال (عـتـل بـعـد ذـلـك زـنـيـم) قـيـل لـه زـنـيـمـة مـن الشـر يـعـرف بـها و مـنـه سـيـما المـؤمـنـيـن يـوم القـيـامـة الـتـي بـها يـعـر فـهم نـبـيـهم و هـو انهم غـر مـحـجـلون مـن آثـار الـوضـوء فـهـذه عـلـامـة وآيـة لـكـنـها مـن النـوع الـأـول لـم يقـصـد المـسـلمـون أن يـتـوضـؤا لـيـعـر فـوا بـالـوضـوء لـكـن مـن اللـوا زـم لـهم الـوضـوء لـلـصـلاة و قـد جـعـل الله أثـر ذـلـك نـوراً فـي و جـوهـهم وأيـديـهم و لـيـس هـذا لـغـيـرهم فـان هـذا الـوضـوء لـم يـكـن لـغـيـرهم و الحـديث الـذـى يـروى هـذا و ضـوئـي و وضـوء النـبـيـيـن مـن قـبـلـي ضـعـيـف بـخـلاف الصـلاة فـي المـواقـيـت الخمـس فـان الـأنـبـيـاء كـانوا يـصـلون فـي هـذه المـواقـيـت كـمـا قـال هـذا و قـتـك و و قـت الـأنـبـيـاء قـبـلك و الوـسـم و السـيـما مـن الوـسـم مـتـفـقـان فـي الـاشـتـقـاق الـأـوسـط فـان أـصل سـيـما سـوما فـلـمـا سـكـنت الوـا و انـكـسر مـا قـبـلـها قـلـبت يـاء مـثـل مـيـقات و مـيـغـاد و نـحو ذـلـك و الـاسـم ايضاً مـن هـذا البـاب و هـو عـلم عـلـى المـسـمـى و دليـل عـلـيه وآيـة عـلـيه و هـذا المـعـنى ظـاهر نـيـه فـلـذـلـك قـال اكـوفـيـون انه مـشـتـق مـن الوـسـم و السـمـة و هـي

العلامة وقال البصريون بل هو مشتق من السمو فانه يقال في تصغيره سمى لاوسيم وفي جمعه اسماء لا اوسام وفي تصغيره سميت لا وسمت وكلا القولين حق لكن قول البصريين اتم فانه مشتق منه على قولهم في الاشتقاق الاصغر وهو اتفاق اللفظين في الحروف وتأليفها وعلى قول الكوفيين هو مشتق منه من الاشتقاق الاوسط وهو اتفاق اللفظين في الحروف لا في ترتيبها كما قلنا في الوسم والسم والسمو هو العلو والسامى هو العالى والعلو مستلزم للظهور كما تقدم فالعالى ظاهر والظاهر عال فكان الاسم بعلوه يظهر فيدل على المسمى لانه يظهر باللسان والخط ويظهر للسمع المسمى فيعرف بالقلب وقد تقدم انهم يسمون الجبال اعلاما لما فيها من الظهور ودلالة الاسم على مسماه دلالة قصدية فان المسمى يسمى بالاسم ليعرف به المسمى وليدل عليه تارة يقصد به الدلالة على مجرد نفسه كالاسماء الاعلام الاشخاص وتارة يقصد به الدلالة على ما في اللفظ من المعنى كالاسماء المشتقة مثل العالم والحي والقادر ومن هذا الباب تسمية المعبودين آلهة سموها بما لا تستحقه كما يسمى الجاهل علما والعاجز قادراً والكذاب نبيا فلهذا قال تعالى [ان هي الا اسماء سميتوها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان] واثبت الثاني من هذه الدلالة القصدية أن يقصد الدال الدلالة من غير مواطاة مع المستدلين على أنه دليل لكن هم يعلمون أن قصد الدلالة لعلمهم باحواله مثل ما يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص فيعلمون انه ارسلها علامة على انه ارسله. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس أن في ذلك لآية للمؤمنين قال العلامة تكون بين الرجل واهله رواه ابن المنذر حدثنا موسى بن هرون حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ثنا أبو اسامة حدثني سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان في ذلك لآية قال علامة المتر الى الرجل اذا أراد أن يرسل الى أهله في حاجة أرسل بخاتمه أو بنوبه فعرفوا أنه حق فتارة يرسل خاتمه معه فيعلمون أنه أرسله ليعلموا أنه أرسله اذ كانوا قد علموا أن الخاتم معه وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذى لا يعرفونه مقصود له الا ان يكون علامة على انه أرسله اليهم فيصدقونه فيما أخبر عنه وتارة

يرسل معه عمامته أو نعليه وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص
 الا لتكون علامة على صدقه كما فعل النبي ﷺ في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج
 مع سعد بن عباد وكان فيه حدة وقال لا قريش بعد اليوم اليوم يوم الملاحمة اليوم
 يستحل الحرمه قيل للنبي ﷺ أنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة فقال
 قولوا له يعطى الراية لابنه قيس فقال انه لا يقبل منه فقال هذه عمامتى قولوا له
 قد امر رسول الله ﷺ بذلك فلما رأى عمامته مع من جاء به اعلم أنه ليس له في اعطائه
 عمامته مقصود الا أن تكون علامة ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك وكذلك
 لما اعطى أبا هريرة نعليه ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له فانهم اذا رأوا معه نعليه
 علموا أنه لم يعطه النعلين الا علامة وكذلك قد يكون بين الشخص وبين غيره سر لم
 يطلع عليه المرسل فيقول له اعطى علامة فيقول قل له بعلامة ما تكلمت انت وهو
 في كذا وكذا او ما فعلت انت وهو كذا وكذا فيعلم المرسل اليه ان المرسل هو أعلم
 هذا الرسول بهذا الامر اذ كان غيره لم يعلمه ويعلم انه ليس له في اعلامه به مقصود
 الا أن يكون علامة له على تصديقه ثم أكثر هذه الآيات التي هي علامات للناس
 يرسلونها مع من يرسلونه ليعرف صدقه هي قطعية عند المستدل بها المرسل اليه من
 الاهل والاصدقاء والوكلاء والنواب وغيرهم يأتيهم الرجل بعلامة وهي مستدلة على جهه
 فيعلمون قطعاً أن هذا جاء من عنده ويعلمون قطعاً أنه لم يرسله بتلك العلامة
 الا ليعلموا صدقه لا يخطر لسعد بن عباد حين رأى عمامة النبي ﷺ معهم أنهم
 أخذوها بغير قصده بأن تكون سقطت منه ونحو ذلك بل قد علم أنها كانت على رأسه
 وهو راكب في الحيش وقد أرسلها مع هذا وكذلك خاتم الشخص الذي يعلمون أنه
 لا ينزع خاتمه من يده ويعطيها لغيره ليعبت بها عنه وهو لا يختم بها شيئاً الا لذلك
 وقد يقع في مثل ذلك احتمالات فيستعمل المستدلون التقسيم فان الاستدلال مداره
 على انه أرسله بالعلامة وانه انما أرسله بها ليين صدقه فقد يعرض في المقدمة الاولى
 انه أخذها بغير اختياره أو أن الخاتم سقط منه أو ان كان مسافرا انه قتل أو مات
 فقد يقع مثل ذلك وقد يؤخذ خاتم الرجل بغير امره ويختم به كتابه كما حكى أن
 مروان فعل مثل ذلك بعثمان والمقدمة الثانية انه قد يرسله بالخاتم ليختم به شيئاً أو

ليصلح ونحو ذلك فإذا عرض مثل هذا الاحتمال وقوى توقفوا وإن عرفوا انتفاء ذلك مثل أن يكون قد ذهب من عندهم قريبا وليس له ما يختم به ونحو ذلك قطعوا بانه أرسله علامة ثم بعد هذا قد يعلمون انه أرسله لكن قد يكذب عليه ولكن المهددة في هذا على المرسل فان ارسال العلامة هو أعلام منه لهم بأن أرسلته اليكم فهذا الفعل هو مثل هذا القول يجري مجرى اعلامهم واخبارهم بانه أرسله وتصديقه في قوله هو أرساني والاخبار تارة يكون بالقول وتارة يكون بالعمل كما يعلم الرجل غيره بالاشارة بيده ورأسه وعينه وغير ذلك وان لم يتقدم بينها مواضعه لكن يعلم قصده ضرورة مثل أن يسأله عن شيء هل كان فيرفع رأسه أو يخفضه أو يشير بيده أو يكون قائما فيشير اليه اجلس أو قاعداً مطلوباً فيشير اليه أن اهرب فقد جاء عدوك أو نحو ذلك من الاشارات التي هي أعمال بالاعضاء وهي تدل دلالة ضرورية تعلم من قصد الدال كما يدل القول وقد تكون أقوى من دلالة القول لكن دلالة القول أعم وأوسع فانه يدل على الامور الغائبة وعلى الامور المعضلة وهذه الادلة العيانية هي أقوى من وجهه ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الاقوال

فصل

وخاصة الدليل أن يكون مستلزما للدلول فكل ما استلزم شيئاً كان دليلاً عليه ولا يكون دليلاً الا اذا كان مستلزماً له ثم دلالة الدليل تعلم كما يعلم لزوم اللازم للمازوم وهذا لا بد أن يعلم بالضرورة أو بدليل ينتهي الى الضرورة وعلى هذا فآيات الانبياء هي أدلة صدقهم وبراهين صدقهم وهي ما يستلزم صدقهم ويمتنع وجوده بدون صدقهم فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجوداً بدون النبوة ثم كونه مستلزماً للنبوة ودليلاً عليها يعلم بالضرورة أو بما ينتهي الى الضرورة فآيات الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم كحد بعضهم كالمعتزلة وغيرهم بانها خرق العادة ولم يعرف مسمى هذه العبارة بل ظن أن خوارق السحرة والكهان والصالحين خرق للعادة فكذبها وحد بعضهم بانها الخارق للعادة اذا لم يعارضه أحد وجعل هذا فصلاً اختز به عن تلك الامور فقال المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي

بالمثل مع عدم المعارضة وجوز أن يأتي غير الانبياء بمثل ما أتوا به سواء مع المعارضة وجعل ما يأتي به الساحر والكاهن معجزات مع عدم المعارضة وحقيقة المعجز هذاما لم يعارض ولا حاجة الى كونه خارقا للعادة بل الامور المعتادة اذا لم تعارض كانت آية وهذا باطل قطعاً ثم مسيئة والاسود العنسي وغيرها لم يعارضوا ثم يقال ما يعنى بعدم المعارضة في ذلك المكان والزمان فالسحرة والكهان لا يعارضون والعنسي ومسيئة لم يعارضوا في مكانهم ووقت اغوائهم وان قال لا يعارض البتة فنأين يعلم هذا العدم فان قيل فما آيات الانبياء قيل هي آيات الانبياء التي تعلم أنها مختصة بالانبياء وانها مستلزمت لصدقهم ولا تكون الا مع صدقهم وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة خارجة عن قدرة الانس والجن ولا يمكن أحداً أن يعارضها لكن كونها خارقة للعادة ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حداً مطابقاً لها والعلم بأنها مستلزمت لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر وجعل العصا حية وخروج الناقة فجرد العلم بهذه الآيات يوجب علماً ضرورياً بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة وأنه لا يمكن معارضتها فهذا من جملة صفاتها لا أن هذا وحده كاف فيها وهذا اذا قال من قال ان فلاناً رسلى اليكم فانه يأتي بما يعلم أنه علامة والعلامة والدليل والآية حدها أنها تدل على المطلوب وآيات الانبياء تدل على صدقهم وهذا لا يكون الا مع كونها مستلزمت لصدقهم فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها ولا يمتنع أن يأتي نبي آخر بمثلها ولا أن يأتي من يصدقهم بمثلها فان تصديقه لهم يتضمن صدقهم فلم يأت الا مع صدقهم وقد تكون الآيات تدل على جنس الصدق وهو صدق صاحبها فيلزم صدقه اذا قال أنا نبي ولكن يمتنع أن يكون لكاذب فهذا ونحوه مما ينكشف به حقيقة هذا الباب وهو من أهم الامور واذا فسر خرق العادة بأنها خرق لعادات غير الانبياء أى لا يكون لغير جنسهم وجنس من صدقهم وفسر عدم المعارضة بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي أو متبع لنبي كان المعنى واحداً واتحدت التفاسير الثلاثة به



فصل

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانة المشهودة والدلالات المسموعة وهي كلامه لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه فأرسل اليهم بكلامه رسلاً وأنزل اليهم كتباً والمخلوق إذا قصد اعلام من يتعذر أن يسمع منه أرسل اليه رسلاً وكتب اليه كتباً كما يفعل الناس ولاية الامور وغيرهم يرسلون الى من بعد عنهم رسولا ويكتبون اليه كتباً ثم أنه سبحانه جعل مع الرسل آيات هن علامات وبراهين هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصهم بها لا يوجد لغيرهم فيعلم العباد اختصاصهم (١) بها أن ذلك اعلام منه للعباد واخبار لهم أن هؤلاء رسل كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ومن رسوله ولهذا قد يعلم رسالة رسول باخبار رسول أخبر عنه وقد يخبر عن ارساله بكلامه من سمع كلامه منه كما أخبر موسى وغيره بالوحي الذي يوحى اليهم فأيات الانبياء هي علامات وبراهين من الله تتضمن اعلام الله لعباده واخباره فالدليل وهو الآية والعلامة لا تدل الا اذا كان مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له اما مساو له واما أخص منه لا يكون أعم منه غير مستلزم له فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه فالآيات التي أعلم الله بها رسالة رسله وصدقهم لا بد أن تكون مختصة بهم مستلزمة لصدقهم فان الاعلام والاخبار بأن هذا رسول وتصديقه في قوله ان الله أرسلني لا يتصور أن يوجد لغير رسول والآيات التي جعلها الله علامات هي اعلام بالفعل الذي قد يكون أقوى من القول فلا يتصور أن تكون آيات الرسل الادالة على صدقهم ومدلولها أنهم صادقون لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة وكون الرب أراد بها اعلام عباده بصدقهم وصدقهم بها في اخبارهم أنه أرسلهم وكونها آية وعلامة على صدقهم أمر يعلم كما تعلم دلالة سائر الادلة كما يعلم من الرجل أصدقائه ووكلائه أنه أرسل هذا بهذه العلامات فتارة يعلم ذلك بالضرورة بعد تصور الامر وتارة يحتاج الى نظر هل هذه العلامة منه أو من غيره وهل هو أرسله بها أو غيره وهل قصد بها الاعلام والتصديق أم لا وهل يعلم من حال الذاكر أنه أرسله أنه صادق فقد يرسل من يعلمون هم صدقه وأنه لا يكذب فيعلمون صدقه

بمجرد قوله هو أرسلني من غير آية ولا علامة ولهذا اذا قال من صدقه أنه رأى رؤيا صدقه وحزم بصدقه من قد خبر صدقه والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكذلك لو أخبر بغير ذلك كما أخبر عمران بن حصين أن الملائكة تسلم عليه فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه من غير آية فمن كان يعلم صدق موسى والمسيح ومحمد وغيرهم وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور فكيف بالكذب على الله اذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة وما غاب من الملائكة فإنه قد يحزم بصدقه من غير آية لا سيما ان كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه ولهذا لم يكن من شرط الايمان بالانبياء وجود الآيات بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك كما قد بين في موضع آخر .

وتارة يحتاجون الى العلامة وتارة يعلمون كذبه بأن يذكر عن صاحبهم ما يعلمون هم خلافه ويصفه بما علموا نقيضه وقد يظهر لهم من قصده أنه كذاب ملبس طالب أغراض له اما مال يعطونه أو ولاية يولونه أو امرأة يزوجه بها أو غير ذلك من أغراض النفوس فيسألونه عن مقصوده فاذا عرفوا مقصوده فتد يعلمون كذبه أو صدقه ومثل هذا كثير في عادات الناس فكثيراً ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة وتكون مشتركة فيقال له ما تريد فيذكر مراده فيعلمون كذبه فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر كدلائل الحب والبغض هي كثيرة جداً وهذا يعرفه من جرب عادات الناس .

فصل

فلا آيات التي تكون آيات للانبياء هي دليل وبرهان والله تعالى سماها برهاناً في قوله موسى [فإذ انك برهانان من ربك] وهي العصا واليدوسماها برهاناً وآيات في مواضع كثيرة من القرآن فحدها حد الدليل والبرهان وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي فلا يتصور ان توجد مع انتفاء صدق من اخبر أن الله أرسله فليس له الاحالان اما أن يكون الله أرسله فيكون صادقاً أو لا يكون أرسله فلا يكون صادقاً فآيات الصدق لا توجد الا مع أحد التقيضين وهو الصدق لا توجد قط مع الآخر وهو انتفاء الصدق كسائر الأدلة التي هي البراهين والآيات والعلامة فإنها لا توجد الا مع تحقق المدلول عليه لا توجد مع عدمه قط اذ كانت مستلزمية له يلزم من وجود الدليل وجود المدلول

عنه فلا يوجد الدليل مع عدم المدلول عليه فلا توجد آياتهم مع عدم صدقهم فيجب أن يتصور هذا الموضع فانه حق معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة فلا يمكن أحداً كذب النبي أن يأتي بمثلها فانه لو أتى بمثلها مع تكذيب النبي لكانت قد وجدت مع قوله أنى صادق ومع قول هذا المكذب انه كاذب فلم يختص بصدقه ولم تستلزمه فلا يلزم اذا قال انى صادق ان يكون صادقاً وهذا قد أتى بمثل ما أتى به وقال انه كاذب ولا يكون اعلاماً من الله لعباده واخباراً لهم بأنى أرسلته ولا تصديقاً له كما لو قال رجل ان فلاناً أرسلنى وجاء بعلامة ذكر انه خصه بها مثل أن يقول العلامة انه أعطانى خاتمه فيقول المكذب وانا أيضاً أعطانى خاتمه الاخرى لاصحابها له او لاختم بها كذا وأنت انما اعطاك خاتمه لتصاحبها أو تختم بها فإذا أتى المكذب له بمثل ما أتى به امتنع كونها آية ولكن لو كان قد جاء بالخاتم غيره لامر آخر أرسله له لم يمتنع ذلك بل قد جرت عادته معهم بأنه من أرسله يرسل معه خاتمه فقد صار ارسال الخاتم عادة له يدل على صدق من أرسله فهو يميز رسله بالخاتم لا يختص بها واحداً منهم وهى عادة منه لرسله ليست لغيرهم لا عادة ولا غير عادة فهذا شأن الآيات والعلامات التى يقصد الدال بها أن يدل بها الله

فصل

والله تعالى سماها آيات وبراهين وهو اسم مطابق لاسماء مطارد لا ينتقض فلا تكون فقط الا آيات لهم وبراهين واما تسميتها بخرق العادة فالناس في ذلك ثلاثة أقوال: احدها أن ذلك حد لها مطرد منعكس فكل خرق هو معجزة للنبي فهو خرق عادة والثانى ان خرق العادة شرط فيها وليس بحد لها فيجب ان تكون خارقة لعادة ولكن ليس كل خارق للعادة يكون آية لنبي كاشراط الساعة بل أن يقع على وجه مخصوص مثل دعوى النبوة والاستدلال بها والتحدى بمثلها مع عجز الناس عن معارضته والقول الثانى ان كونها خارقة للعادة ليس بحد ولا شرط. قال القاضى أبو بكر في مناظراته في الكرامات ويقال لهم ايضاً ان من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة ان تكون

خارقة للعادة ويقول إنما تكون آية إذا كانت من فعل الله مع التحدى بمثلها ودعوى النبوة فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية أن فعلت على يده قال المجيبون بهذا ولهذا لم تكن اشراط الساعة آية لاحد وإن خرقت العادة إذ لم يكن معها دعوى نبوة ولأن موت زيد عند قول الرسول آتني أن يميت الله زيدا عند دعائي موته فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً قال أن قالوا لو كان كذلك لكان من قال آتني أن تطلع الشمس وتغرب وبأني الليل والنهار والضياء والظلام وفعل ذلك مع دعواه الرسالة كان آية له وإن لم يكن المفعول من ذلك خارقاً للعادة فلما لم يكن كذلك وإن كان واقعا من فعل الله مع دعوى النبوة لكونه غير خارق للعادة بطل ما قلموه يقال لهم قد أجبنا عن هذا حين قلنا ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبوة مما لا يشترك فيه الصادق والكاذب ويستوى مع ظهوره دعوى الحق والمبطل وطلوع الشمس وغروبها ولو قال النبي آتني أن يطلنا السحاب الساعة وتزلزل الأرض وتحدث الأمطار بدعوى تحدث ذلك لكان آية له وإن كان مثل ذلك قد يحدث في العصر ويشاهد فإذا قال المتنبئ أنني معارضه وآتني في كوني نبيا ظهور مثل ذلك منع منه ولم يحدث . قلب هذا الذي ذكروه هو أيضاً خرق للعادة فإن ظهور مثل ذلك على هذا الوجه مما لم تجرب العادة وهو نفسه القاضى أبو بكر في هذا الكتاب كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والخيال والكهانة والسحر واليرنجيات قد قال قيل هذا باب القول في معنى العادة وانخراطها والعادة التي إذا انخرقت دلت على صدق الرسل والاعتقاد للأمر وتفصيل ذلك وتنزيله أعلموا رحمكم الله أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجزات يكون خارقاً للعادة وإذا كان ذلك واجبا وجب معرفة هذه العادة ومعرفة انخراطها فقد حكى هنا الاجماع وهناك صرح بالاختلاف وقوى ذلك القول وسبب ذلك اضطرابهم في معنى العادة وانخراطها فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون والله تعالى إنما سماها آيات وهذا القول الذي ذكره وقواه وهو لا يشترط فيها أن تكون خارقة للعادة هو حقيقة قول القاضى وأمثاله من المتكلمين الأشعرية ومن وافقهم كالقاضى

ابى يعلى وأمثاله فان المعجزات عندهم لا تختص بجنس من الاجناس المقدورات بل خاصتها أن النبي يحتاج بها ويتحدى بمثلها فلا يمكن معارضته فاشتروا لها وصفين: ان تكون مقترنة بدعوى النبوة وجعلوا المدلول جزءاً من الدليل وانها لا تعارض وبالأول فرقوا بينها وبين الكرامات وبه بالشأنى فرقوا بينها وبين السحر والكهانة وصرحوا بان جميع خوارق السحرة والكهان يجوز ان تكون معجزة لنبي لكن اذا كانت معجزة لم تمكن معارضتها فلو ادعى ساحر أو كاهن النبوة لكان الله يعجزه عن تلك الخوارق قد علم أن غيره من السحرة والكهان يفعل مثلها وليس بنبي وما يأتي به الانبياء من المعجزات جوزوا أن يأتي بمثله الساحر والكاهن الا ما منع منه السمع للاجماع على أن الساحر لا يقلب العصا حية وهذا الفرق ليس لما يختص به أحد النوعين ولا ضابط له وصرحوا بأنه لا يستثنى من الخوارق الا ما انعقد عليه الاجماع وصرحوا بأن العجائب الطبيعية مثل جذب حجر المغناطيس الحديد يجوز أن يكون معجزة لكن بشرط أن لا يعارض وكذلك الطلاس وكذلك الامور المعتادة يجوز أن تكون معجزة بشرط أن يمنع غيره منها فتكون المعجزة منع المعتاد فالخاصة عندهم فيها انها لا تعارض وانها تقتزن بدعوى النبوة وقد يشترطون أن تكون خارقة للعادة لكن يكتفون بمنع المعارض فهو وحده خرق للعادة فلا يشترطون هذا وهذا وقد اشترط القاضى أبو بكر أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه ولا حقيقة له فان جميع الحوادث كذلك عندهم وكل ما خرج عن محل قدرة العبد فالرب عندهم مختص بفعله كخوارق السحرة والكهان وحقيقة الامر أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات والسحر والكهانة لكن هذه اذا لم تقتزن بدعوى النبوة لم تكن آية واذا اقترنت بها كانت آية بشرط أن لا تعارض ثم أنه لما أثبت النبوة قال انه يجوز على النبي فعل كل شيء من الكبائر الا أن يمنع من ذلك سمع كما قال كل ما كان معجزة للانبياء يجوز أن يأتي به الساحر الا أن يمنع منه سمع اذ كان في نفس الامر لا فرق بين فعل وفعل بل يجوز من الرب كل شيء فيجوز أن يبعث كل أحد ولا يقيم على نبوته دليلاً هذا حقيقة قولهم انه يجوز أن يبعث كل أحد وانه اذا بعثه لا يقيم دليلاً على نبوته بل يلزم العباد بتعمد بقاء دليل

يدلهم على صدقه فان غاية هذا تكليف مالا يطاق وهم يجوزونه وهذا الذي قالوه باطل من وجوه متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع: منها انهم جعلوا المدلول عليه وهو اخبار النبي بنبوته وشهودها وثبوتها جزءاً من الدليل قالوا لانها لو كانت معجزة لجنسها لم تقع الا معجزة الخوارق التي تكون أمام الساعة ليست معجزة لاحد فعلم أن الدليل هو مجموع دعوى النبوة والخارق والجواب عن هذا من وجهين: أحدهما ان تلك من آيات الله تعالى فالخوارق التي لا يقدر عليها العباد كلها آيات لله تعالى وهي دالة على ما يظهر دلالتها عليه تارة تكون تخويفاً كما قال النبي ﷺ أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده . والتخويف يتضمن الامر بطاعته والنهي عن معصيته واشراط الساعة آيات على قربها وعلى جزاء الاعمال وهو يتضمن الامر بالطاعة والنهي عن المعصية . والثاني أن يقال هي آيات على صدق الانبياء فانهم أخبروا بها وهي آية على ما أخبروا به وعلى صدقهم وأيضاً فان عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها ويقول ائتوا بمثلها والقرآن انما تحداهم لما قالوا انه افتراء ولم يتحداهم به ابتداء وسائر المعجزات لم يتحد بها وليس فيما نقل تحد الا بالقرآن لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الانبياء فهذا لازم لها لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره وأيضاً فن آيات الانبياء ما كان قبل ولادتهم وقبل انبيائهم وما يكون بعد موتهم فان الآية دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله وهذا الدليل لا يختص لا بمكان ولا زمان ولا يكون هذا الدليل الا من جنس لا يقدر عليه الانس كلهم ولا الجن فلا بد أن يكون جنسه معجزاً أعجز الانس والجن . وأما قولهم خاصة المعجز عدم المعارضة فهذا باطل وان كان عدم المعارضة لازماً له فان هذا العدم لا يعلم اذ يمكن أن يعارضه من ليس هناك اذا كان مما يعلم أنه معتاد مثل خوارق السحرة والكهان فانه وان لم يكن أن يعارض في هذا الموضع ففي السحرة والكهان من يفعل مثلها مع أنه ليس بنبي ودليل النبوة يتمتع بثبوته بدون النبوة واذا قالوا الدليل هو مجموع الدعوى والدليل تبين خطأهم وان القوم لم يعرفوا دلائل النبوة ولا أقاموا دليلاً على نبوة الانبياء كما لم يقيموا دليلاً على وجود الرب فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى ولا على رسوله

مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين وأيضاً فسياسة والعنسى لم يكن عندهما من يعارضهما وأيضاً فالمعارض ان اعتبروه في المدعويين وهذا مقتضى في خرق العادة وان العادات تختلف فلكل قوم عادة قالوا فالمعتبر خرق عادة من أرسل اليهم وعلى هذا فاذا أرسل الى بنى اسرائيل ففعل ما لم يقدروا عليه كان آية وان كان ذلك مما يقدر عليه العرب ويقدر عليه السحرة والكهان وصرحوا بأن السحر الذى قال الله فيه (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) يجوز أن يكون من معجزات الانبياء اذا لم يعارض وقد قال الرازى ان السمعيات لا يحتج بها لان دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلى وذلك غير معلوم وكذلك يقال في معجزات هؤلاء أن خاصتها عدم المعارضة فان اعتبروا أن أحداً من الخلق لا يعارض فهذا لا يعلم وان اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان فكثير من الصناعات والعجائب والعلوم من هذا الباب وهم لا ينكرون هذا بل يقولون المعجز هو هذا مع دعوى النبوة وقد تبين أن الشيء في نفسه اذا لم يكن دليلاً لم يصح دليلاً باستدلال المستدل به بل هو في نفسه دليل وان لم يستدل به اذ كان الدليل هو المستلزم للمدلول فليل صدق النبي هو يدل على أنه نبي وان الخبر بنبوته صدق وان كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدى بمثلها وقد لا يخبر بنبوته نفسه ويكون له دلائل تدل على نبوته كما كانت قبل أن يولد وفي الامكنة البعيدة فتبين أن قول هؤلاء هو أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الانبياء وهذا اذا انضم الى أصلهم وهو أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء صاروا شاهدين بأنه على أصلهم لا دليل على النبوة اذ كان عندهم لا فرق بين فعل من الرب وفعل وعندهم لا فرق بين جنس وجنس في اختصاصه بالانبياء به فليس في أجناس المعقولات ما يكون آية تختص بالانبياء فيستلزم نبوتهم بل ما كان لهم قد يكون عند غيرهم حتى للسحرة والكهان وهم أعداؤهم وفرقوا بعدم المعارضة وهذا فرق غير معلوم وهو مجرد دعوى قالوا لو ادعى الساحر والكاهن النبوة لكان الله ينسبه الكهانة والسحر ولنسكان له من يعارضه لان السحر والكهانة هي معجزة عندهم وفي هذه الاقوال من الفساد عقلاً وشرعاً ومن المناقضة لدين الاسلام وللحق ما يطول وصفه ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق أقل فساداً من هذا ولهذا يشنع عليهم ابن حزم وغيره

بالشعاعات العظيمة ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر فلا يجدون فرقا اذ لا فرق عندهم في نفس الامر والتحقيق أن آيات الانبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة فلا يوجد الا مع الشهادة للرسول بأنه رسول لا يوجد مع التكذيب بذلك ولا مع عدم ذلك البتة وليست من جنس ما يقدر عليه لا الانس ولا الجن فان ما يقدر عليه الانس والجن يفعلونه فلا يكون مختصاً بالانبياء ومعنى كونها خارقة للعادة أنها لا توجد الا للنبوة لامرأة ولا أقل ولا أكثر فالعادة هنا تثبت بمرة. والقاضى أبو بكر يقول ان ما فعل مرات يسيرة لا يكون معتاداً وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه كلقاضى أبى يعلى وأبى المعالى والرازى والآمدى وغيرهم وما يأتي به السحرة والكهان يتمتع أن يكون آية لنبي بل هو آية على السكفر فكيف يكون آية للنبوة وهو مقدور للشياطين وآيات الانبياء لا يقدر عليها جن ولا انس وآيات الانبياء آيات لجنسها فحيث كانت آية لله تدل على مثل ما أخبرت به الانبياء وان شئت قلت هي آيات لله يدل بها على صدق الانبياء تارة وعلى غير ذلك تارة وما يكون للسحرة والكهان لا يكون من آيات الانبياء بل آيات الانبياء مختصة بهم وأما كرامات الاولياء فهي أيضاً من آيات الانبياء فانها إنما تكون لمن تشهد لهم بالرسالة فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة وأيضاً فان كرامات الاولياء معتادة من الصالحين ومجزات الانبياء فوق ذلك فانشقاق القمر والايان بالقرآن وانتلاب العصا حية وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للاولياء وكذلك خلق الطير من الطين ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال تعالى (فأراه الآية الكبرى) فله تعالى آية كبيرة وصغيرة وقال عن نبيه محمد (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فالآيات الكبرى مختصة بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعام فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم لكن لا يماثلون في قدره فهم مختصون اما بجنس الايات فلا يكون لمثلهم كالاتيان بالقرآن وانشقاق القمر وقلب العصا حية وانفلاق البحر وأن يخلق من الطين كهيئة الطير وأما بقدرها وكيفيتها كإرار الخليل فان أبا مسلم الحولاني وغيره صارت النار

عليهم برداً وسلاماً لكن لم تكن مثل نار ابراهيم في عظمتها كما وصفوها فهو مشارك
للخليل في جنس الآيه كما هو مشارك في جنس الايمان محبة الله وتوحيده ومعلوم
أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله وكذلك الطيران في
الطهواء فان الجن لا تزال تحمل ناساً وتطيرهم من مكان الى مكان كالعفريت الذي قال
لسليمان (انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك لكن قول الذي عنده علم من الكتاب
أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) لا يقدر عليه العفريت ومسرى النبي ﷺ
الى بيت المقدس ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به بخلاف من يحمل من
مكان الى مكان لا ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به ولا يعرج الى السماء فهو لاء
كثيرون وهذا مبسوط في غير هذا الموضع (والمقصود هنا) أن هؤلاء حقيقة قولهم أنه
ليس للنبوة آية تختص بها كما أن حقيقة قولهم ان الله لا يقدر أن يأتي بآية تختص بها
وانه لو كان قادراً على ذلك لم يلزم أن يفعله بل ولم يفعله فهذا امران متعلقان بالرب
اذ هو عندهم لا يقدر أن يفعل شيئاً لشيء والآية انما تكون آية اذا فعلها لتدل ولو
قدر أنه قادر فهم يجوزون عليه فعل كل شيء فيمكن أنه لم يعمل على صدق النبي دليلاً
وأما الذي ذكرناه عنهم منا فانه يقتضى أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي بل كل
ما قدر دليلاً فانه يمكن وقوعه مع عدم النبوة فلا يكون دليلاً فهم هناك (١) حقيقة
قولهم انا لا نعلم على النبوة دليلاً وهنا حقيقة قولهم انه لا دليل على النبوة ولهذا كان
كلامهم في هذا الباب منتهاه التعطيل ولهذا عدل الغزالي وغيره عن طريقهم في
الاستدلال بالمعجزات لكون المعجزات على أصلهم لا تدل على نبوة نبي وليس
عندهم في نفس الأمر معجزات وانما يقولون المعجزات علم الصدق لانها في نفس
الامر كذلك وهم صادقون في هذا لكن على أصلهم ليست دليلاً على الصدق ولا دليل
على الصدق فأيات الانبياء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة تارة وبالنظر أخرى
هوهم قد يقولون انه يحصل العلم الضروري بأن الله صدقه بها وهي الطريقة التي سلكها أبو
المعالى والرازي وغيرهما وهي طريقة صحيحة في نفسها لكن تناقض بعض أصولهم فالقدح ليس

(١) قوله هناك أى في باب أفعال الرب حيث ينفون عنها الحكمة والتعليل وقوله

هنا أى في باب النبوة

في آيات الانبياء لكن في الاقوال الفاسدة التي تناقض ما هو معلوم بالضرورة عقلا وما هو أصل
الايمان شرعاً ومن عرف تناقضهم في الاستدلال يعرف أن الآفة في فساد قولهم لا في جهة صحة
الدلالة فقد يظهر بلسانهما ليس في قلبه كالمنافيين الذين يقولون نشهد أنك لرسول الله والله
يعلم أنك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ولقد صدق الامام احمد في قوله علماء
الكلام زنادقة وطريقة القرآن فيها الهدى والنور والشفاء سماها آيات وبراهين فأيات
الانبياء مستلزمة لصدقهم وصدق من صدقهم وشهد لهم بالنبوة والآيات التي يبعث الله
بها أنبياء قد يكون مثلها لانبياء آخر مثل احياء الموتى فقد كان لغير واحد من الانبياء
وقد يكون احياء الموتى على يد اتباع الانبياء كما قد وقع لطائفة من هذه الامة ومن
اتباع عيسى فان هؤلاء يقولون نحن أنما احيى الله الموتى على ايدينا لاتباع محمد أو المسيح
فبأيامنا بهم وتصديقنا لهم احيى الله الموتى على ايدينا فكان احياء الموتى مستلزما لتصديقه
عيسى ومحمداً لم يكن قط مع تكذيبها فصار آية لنبوتهم وهو ايضا آية لنبوة موسى
وغيره من انبياء بنى اسرائيل الذين احيى الله الموتى على ايديهم وليس مدلول الآيات
هو مجرد دعواه أن الله ارسلني واخبره عن نفسه بذلك لان ذلك معلوم بالحس
لمن سمعه وبالتواتر لمن لم يسمعه بل صدقه في هذا الخبر وهو ثبوت نبوته فالآية
مستلزمة لصدقته وثبوت نبوته ومن اخبر غيره عن ارسال الله له واتى هذا الخبر
بآية كانت ايضا آية على صدق هذا الخبر وثبوت نبوة النبي فان من اخبر عن نبوة نبي من
الانبياء واتى بآية على صدقه في خبره كانت تلك آية ودليلا على نبوة النبي وان اخبار
الخبر بنبوته صدق بل كون غيره هو الخبر الآتي بالعلامة ابلغ ولهذا كانت من اعظم
آيات النبي اخبار غيره من الانبياء بنبوته فان قال آخر انه كذب وأتى بمثل تلك الآية
بطلت الدلالة المعينة ولا يلزم من بطلان دليل معين بطلان سائر الأدلة فان الدليل
تجب طرده ولا يجب عكسه ولو جاء من قال ان فلاناً ارسلني ومعه شخص فصدقته
وقال انه امرني ان اخبركم بان رسوله بعلامة كيت وكيت لكان ذلك ابلغ وكل من
علم صدق النبي فقد صدقه أنه (١) ان يعلم الناس ان الله يشهد له بالنبوة ويحكم بينه وبين
منارعه بتصديقه وتكذيبهم وذلك بآياته وعلاماته يبين بها انه مصدق للرسول وقد
يصدق به بكلامه الذي قد بين انه كلامه فكونه في نفسه آية وعلامة اذ كان لا يمكن الخن

والانس ان يأتوا بمثله فهو من اعظم الآيات وبغير ذلك فالآيات كلها شهادة بالنبوة واخبار بها وتصديق لاه خبر فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها وان صاحب الآيات قد نبأه الله واوحى اليه كما اوحى الى غيره من الانبياء وتستلزم ايضا صدق الاخبار بانه نبي فهو اذا قال اني نبي كان صادقا وكذلك كل من أخبر بنبوته فانه يكون صادقا وثبوت الشيء وصدق من أخبر به متلازمان فكل حق ثابت اذا أخبر به مخبر فهو صادق وكل خبر صادق فقد تحقق مخبره فالخبر الصادق هو ومخبره متلازمان يلزم من صدق الخبر تحقق مخبره ومن تحقق الشيء صدق المخبر به بخلاف الكذب فانه ومخبره ليسا متلازمين بل الحبر الكاذب يوجد مع انتفاء مخبره والمخبر به يتحقق على صفة خلاف ما في الحبر الكاذب فلهذا كانت الآيات والعلامات والدلائل ونحو هذا كما تدل على المدلول وانه حق ثابت فهي أيضا تدل على صدق من أخبر به كائنا من كان فن قال اني ابن فلان وقامت بيته بنسبه فهي تثبت صدقه وصدق كل من قال هو ابن فلان وكذلك الياسة التي تشهد برؤية الهلال هي تشهد بصدق كل من أخبر بطووعه وكذلك كل دليل دل على مدلول فهو دليل على صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه وكذلك اذا قال الصادق ان الله أرسلني فهذا خبر منه عن ارسال الله فالآية الدالة على صدقه تدل على صدق كل من قال ان الله أرسله فالآيات الدالة على صدق محمد اذا قال ما أمره الله به في قوله قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً هي دالة على صدق كل من قال أشهد أن محمداً رسول الله فجميع آياته وآيات الانبياء الذين أخبروا بنبوته كموسى والمسيح وأنبياء بني اسرائيل وغيرهم كلها آيات ومعجزات تبين صدق كل واحد من المؤمنين به الذين يقول أحدهم أشهد أن محمداً رسول الله سواء قالها مجردة أو قالها في صلاته أو عقب طهارته أو متى ما قالها ليست آيات النبوة دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله اني رسول الله اليكم جميعاً بل الآيات تصدقه وتصدق كل من شهد له بالرسالة وهكذا سائر الأدلة الدالة على مدلول فانها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق وقد عرف أن الدليل لا بد أن يكون مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له فآيات الانبياء وسائر أنواع الآيات والأدلة لا تكون مع نقيض المدلول عليه أى مع عدمه فانها اذا كانت مع وجوده وعدمه لم تكن دالة على وجوده ولا على عدمه ولم يكن الاستدلال به على وجوده

ولا على عدمه ولم يكن الاستدلال به على وجوده أولى به من الاستدلال على عدمه كالأمور المعتادة التي توجد مع الصادق والكاذب كطلوع الشمس وغروبها فان هذه لا تدل على صدق أحد ولا كذبه وكذلك خوارق السحرة والكهان هي معتادة مع صدق أحدهم ومع كذبه فلا تعالى [هل أنبئكم ولا على الكذب والاستدلال بها على صدقه كالاستدلال بها على كذبه وهي تدل على الصدق اذا كان كذبهم أكثر من صدقهم كالذين يخبرون بكلمة صدق وعشرة كذب قال على الكذب أدل على ما تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم يلقون السمع واكثرهم كاذبون] فكيف اذا كان مع الصدق مائة كذبة كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الكهان كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت سألت ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله فانهم يحدثون أحيانا بالشئ يكون حقاً فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يحفظها الجن فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة [١]

فيلزم من هذا أن آيات الانبياء لا يكون مثلها لمن يكذبهم وهو الذي يخبر بكذبهم والناس فيهم رجلان اما مصدق واما مكذب فالمكذب لهم يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم ومتى كذب مكذب لمدعى النبوة وأتى بمثل آيته سواء دل على أن تلك ليست من آيات الانبياء ولا تدل على صدق النبي لكن لا يلزم أن يدل على كذبه فان الدليل المعين اذا بطل لا يستلزم انتفاء المدلول عليه فقد تكون له آيات أخر تدل على نبوته وصدق الصادق وكذب الكاذب يعرف بوجوه كثيرة جداً وكذلك النبوة لها آثار مستلزمة لها بدون اخبار النبي بانه نبي وكذب المتنبي الذي يزعم له الشيطان أن يقول انه نبي له آثار تستلزم انتفاء النبوة وأنه كاذب اما عمداً واما أن الشيطان قد لبس عليه فان الخبر عند كثير من الناس ينقسم الى صدق وكذب فالمطابق هو الصدق والمخالف هو الكذب وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب وهو ما لم يعتمد الانسان قال فهذا ليس بصدق لأنه غير مطابق وليس بكذب لان صاحبه لم يعتمد الكذب بل أخطأ وليس كل من أخطأ يقال انه كاذب كالناسي في الصلاة اذا قال صليت أربعاً ولم يصل الا ثلاثاً كما قال النبي ﷺ لما قال له ذو اليمين اقصر الصلاة ام نسيت فقال لم انس ولم تقصر فقال بلى قد نسيت فقال أ كما يقول ذو اليمين قالوا نعم والذي يدل عليه القرآن ان كل من تكلم بلا علم

فاخطأ فهو كاذب كالذين حرموا وحلّلوا وأوجبوا وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك وأوهمهم أنه حق ولهذا قال [قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفكأثم] وهي تنزل على من يظن أنه يصدقها قال تعالى [ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإني لاصدقونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون] وقال تعالى [وقال الشيطان لما قضى الأمر أن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم] وكذلك الذي يدل عليه الشرع أن كل من أخبر بخبر ليس له أن يخبر به وهو غير مطابق فإنه يسمى كاذبا وإن كان لم يتعمد الكذب كقول النبي ﷺ لما قيل له إن أبا السنابل قال ما أنت بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر فقال كذب أبو السنابل ولما قيل له إن عامر بن الأكوع حبط عمله لانه قتل نفسه فقال كذب من قالها إن له لاجرين أنه جاهد مجاهد ولما قال سعد بن عباد في يوم الفتح اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمه وحكاه أبو سفيان لرسول الله ﷺ قال كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة وكذلك قال عباد بن الصامت لما قيل له إن أبا محمد يقول الوتر واجب فقال كذب أبو محمد وكذلك ابن عباس لما قيل له إن نوحا يقول إن موسى بنى إسرائيل ليس هو موسى الخضر فقال كذب نوح وأيضا من أخبر الناس خبراً طلب أن يصدقوه فيه وقد نهوا عن تصديقه إلا ببينة فإنه أيضاً كاذب كما قال تعالى في القرآن (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) وقال في القاذفين (فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم وكذلك أن القاذف وإن كان قدرأى الفاحشة بعينه لكنه إذا أخبر بها الناس فهو يطلب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره وليس لهم ذلك بل ليس لهم أن يصدقوه حتى يأتي بأربعة شهداء وهو لا يخبر الناس ليكذبوه بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم به ويعتقدوا أن المقدوف قد فعل الفاحشة وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك إلا بأربعة شهداء فإذا لم يأت بأربعة شهداء فهو عند الله كاذب لأنه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة وقال خبراً طلب به تصديقهم وإن يظهر أن هذا فعلها فحقيقة خبره أن هذا فعل فاحشة ظاهرة يرتب عليها هذا بل إن كان فعل شيئاً فقد فعله سرّاً لم يعلم به الناس وقد علم أن الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه ولكن

اذا أعلن فلم ينكر ضر الناس وهذا لم يعلنه وأكثر المسلمين اذا فعل أحدهم فاحشة باطنة تاب منها ومن اعلانها يتشبه الناس بعضهم ببعض في ذلك فلماذا نرى الله عن فعلها وعن التكلم بها صدقاً وغير صدق فانها اذا فعلت وكتمت خف أمرها واذا أظهرت كان فيها مفسد كثيرة قال النبي ﷺ من ابتلى من هذه القاذورات بشئ فليستتر بستر الله فان من تبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله وقال كل أمتي معافي الا المجاهرين وان من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يقول يا فلان فعلت البارحة كذا وكذا فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعانها فكيف القاذف بخلاف ما اذا أقربها عند ولي أمر ليقم عليه الحد أو يشهد بها نصاب تام لا إقامة الحد فذاك فيه منفعة وصلاح وقد يخبر بها بعض الناس سرّاً لمن يعلمه كيف يتوب ويستغفره ويستشير به فيما يفعل فعلمى ذلك المقتي والمشير أن يكتب عليه ذلك ولا يشيع الفاحشة وبسط هذا له موضع آخر (والمقصود هنا) أن الناس في من قال انى رسول قسمان اما مصدق واما غير مصدق فن ليس بمصدق لا يمكنه أن يأتي بمثل آيات الانبياء سواء قال انه كاذب أو توقف في التصديق والتكذيب وكذلك المؤمنون أتباع الانبياء اذا أتوا بآية كانت دليلاً على نبوة النبي الذي اتبعوه فلا يمكن من لا يصدق النبي أن يعارضهم ودق عارضهم لم يكن من آيات الانبياء ولهذا كان أبو مسلم لما قال له الأسود العنسى أتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمداً رسول قل نعم فألقاه في النار فصارت عليه برداً وسلاماً فكرامات الصالحين هي مستلزمة لصدقهم في قولهم ان محمداً رسول وثبوت نبوته فهي من جملة آيات الانبياء وآياتهم وما خصم الله به لا يكون لغير الانبياء واذا قال القائل معجزات الانبياء وآياتهم وما خصم الله به فهذا كلام مجمل فانه لا ريب أن الله خص الانبياء بخصائص لا توجد لغيرهم ولا ريب ان من آياتهم ما لا يقدر ان يأتي به غير الانبياء بل النبي الواحد له آيات لم يأت بها غيره من الانبياء كالعصا واليد لموسى وفرق البحر فان هذا لم يكن لغير موسى وكان شقاق التمر والقرآن وتنجير الماء من بين الاصابع وغير ذلك من الآيات التي لم تكن لغير محمد من الانبياء وكذلك الناقة التي لصالح فان تلك الآية لم تكن مثلها لغيره وهو خروج ناقة من الارض لخلاف احياء الموتى فانه اشترك فيه كثيراً من الانبياء بل ومن الصالحين وملك سليمان لم يكن لغيره كما قال (رب اغفرلى

وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) فطاعة الحن والطير وتسخير الريح تحمله من مكان الى مكان له ولن معه لم يكن مثل هذه الآية لغير سليمان. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال «ما من نبي من الانبياء الا وقد اوتي من الآيات ما امن على مثله البشر وانما كان الذي اوتيته وحيا او حاء الله الى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» وهو من حين اتى بالقرآن وهو بمكة يقرأ على الناس (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فقد ظهر ان من آيات الانبياء ما يختص به النبي ومنها ما يأتي به عدد من الانبياء ومنها ما يشترك فيه الانبياء كلهم ويختصون به وهو الاخبار عن الله بغيره الذي لا يعلمه الا الله قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد ابلاغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عدداً لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات بسبب الايمان بهم فيه قولان قال طائفة ليس ذلك من آياتهم وهذا قول من يقول من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها كما قاله هؤلاء الذين يجعلون خاصة المعجزة التحدى بالمثل وعدم المعارضة ولا يكون الا مع الدعوى كما تقدم وهو قول قد عرف فساد من وجوه . والقول الثاني وهو القول الصحيح ان آيات الاولياء هي من جملة آيات الانبياء فانها مستلزمة لنبوتهم ولصدق الخبر بنبوتهم فانه لولا ذلك لما كان هؤلاء أولياء ولم تكن لهم كرامات لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الاولياء وبين خوارق السحرة والكهان وما يكون للكفار والفساق وأهل الضلال والغي باعانة الشياطين لهم كما يفرق بين ذلك وبين آيات الانبياء والفروق بين ذلك كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصل

فقد تبين أن من آيات الانبياء ما يظهر مثله على أتباعهم ويكون ما يظهر على أتباعهم من آياتهم فان ذلك مختص بمن يشهد بنبوتهم فهو مستلزم له لا تكون تلك الآيات الا لمن أخبر بنبوتهم واما لم يخبر بنبوتهم لم تكن له تلك الآيات وهذا حد

الدليل وهو أن يكون مستلزماً للمدلول عليه فاذا وجد الدليل وجد المدلول عليه واذا
عدم المدلول عليه عدم الدليل ولهذا من السلف من يأتي بالآيات دلالة على صحة
الاسلام وصدق الرسول كما ذكر أن خالد بن الوليد شرب السم لما طلب منه آية
ولم يضره ❦

فصل

في معنى خرق العادة وأن الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الانبياء مطلقاً
بحيث تختص بالانبياء فلا توجد الا مع الاخبار بنبوتهم وأما اخبار الكهان ببعض
الامور الغائبة لاخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة بحيث يموت الانسان من
السحر أو يمرض ويمنع من النكاح ونحو ذلك مما هو باعانة الشياطين فهذا أمر
موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس ليس هذا من خرق العادة بل هو من العجائب
الغريبة التي يختص بها بعض الناس كما يختص قوم بحفة اليد والشعبذة وقوم بالسباحة
الغريبة حتى يضطجع أحدهم على الماء وكما يختص قوم بالقيافة [١] حتى يبينوا بها غيرهم
وكما يختص قوم بالعيافة [٢] ونحو ذلك مما هو موجود ولهذا كان مكذبو الرسل
يجعلون آياتهم من جنس السحر وهذا مستقر في نفوسهم أن الساحر ليس برسول ولا
نبي كما في قصة موسى لما قالوا [ان هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره
فماذا تأمرون] قال تعالى (كذاك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر
أو مجنون) وهذا لحيرتهم وضلالهم تارة ينسبون الى الجنون وعدم العقل وتارة الى
الحذق والخبرة التي ينالها السحر فان السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل أحد لكن العجائب
والخوارق المقدورة للناس منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن كما يحذق الرجل
في صناعة من الصناعات وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه وكما
يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل فهذه كلها قد يأتي

- [١] القيافة معناها تتبع الاثار والاشباه والاستدلال بها كما في الانساب ينظر
القائفة في الولد المختلف في نسبه فينظر في شبهه وسحته فيأخذه بمن يدعيه أو ينفيه عنه ❦
[٢] العيافة معناها زجر الطير وازعاجها عن أماكنها ليتفاهلوا بمطارها يميناً أو
شمالاً ونحو ذلك ❦

الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد بل أهل الاقليم لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم أو في مكان آخر فليست هي خارقة لعادة غير الانبياء مطلقاً بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون انهم أنبياء ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس فانهم لما رأوا آيات الانبياء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها أخذوا مسمى خرق العادة ولم يميزوا بين ما يختص به الانبياء ومن أخبر بنبوتهم وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم واضطربوا في مسمى هذا الاسم كما اضطربوا في مسمى المعجزات ولهذا لم يسمها الله في كتابه الا آيات وبراهين فان ذلك اسم يدل على مقصودها ويختص بها لا يقع على غيرها لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وان كان ذلك من بعض صفاتها فهي لا تكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة وعجز الناس عن الاتيان بمثلا لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها وهو من لوازمها لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً كما أن بعض الناس يجعل اسمها انها عجائب وآيات الانبياء اذا وصفت بذلك فينبغي أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التي أتت بها الانبياء وخوارق العادات والمعجزات التي ظهرت على أيديهم أو التي لا يقدر عليها البشر أو لا يقدر عليها الانس والجن أو لا يقدر عليها الا الله بمعنى أنه لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب كما يقدر على السحر والكهانة فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم والا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها والتعجب في اللغة يكون من أمر خرج عن نظائره وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره فهو أيضاً خارق للعادة وهذا شرط في آيات الانبياء أن لا يكون لها نظير لغير الانبياء ومن يصدقهم فاذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الانبياء ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطب والصناعات وأما السحر والكهانة فهو من اعانة الشياطين لبني آدم فان الكاهن يخبره الجن وكذلك الساحر انما يقتل ويمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك باعانة الشياطين له فامورهم خارجة عما اعتاده الانس باعانة الشياطين لهم قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر

الجن قد استكثروا من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله فالجن والانس قد استمتع بعضهم ببعض فاستخدم هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه والسحر والكهانة من هذا الباب وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين وأهل الكتاب ولعباد المنافقين والملاحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم كلها باعانة الجن والشياطين لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه فاذا كان القوم كفاراً لا ينكرون السحر والكهانة كما كانت العرب وكاهنهم والترك المشركين ظهوراً بهذا الوصف لان هذا معظم عند تلك الامة وان كان هذا مذموماً عند أولئك كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة ولا يكون مخلصاً لله في عبادته متبعاً للانبياء بل يكون فيه شرك وبنفاق وبدعة فتظهر له هذه الامور التي ظهرت للكهان والسحرة حتى يظن أولئك أن هذه من كرامات الصالحين وان ما هو عليه هذا الشخص من العبادة هو طريق أولياء الله وان كان مخالفاً لطريق الانبياء حتى يعتقد من يعتقد أن لله طريقاً يسلكها اليه أولياؤه غير الايمان بالانبياء وتصديقهم وقد يعتقد بعض هؤلاء أن في هؤلاء من هو أفضل من الانبياء وحقيقة الامر أن هؤلاء عارضوا الانبياء كما كانت تعارض السحرة والكهان كما عارضت السحرة لموسى وكما كان كثير من المنافقين يتحاضرون الى بعض الكهان دون النبي ﷺ ويجعلونه نذير النبي وكان في العرب عدة من هؤلاء وكان بالمدينة منهم أبو برزة الاسلمي قبل أن يسلم كان كاهناً وقد قيل ان الذي أنزل الله تعالى فيه ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين ولما كان الذين يعارضون آيات الانبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم بل يكون بينهما شبه كشيء الشعر بالقرآن ولهذا قالوا في النبي أنه ساحر وكاهن وشاعر محنون قال تعالى (أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً) فجاءوا به مثلاً لا يماثله بل بينهما شبه مع وجود الفارق المبين وهذا هو القياس الفاسد

فلما كان الشعر كلاماً له فواصل ومقاطع والقرآن آيات له فواصل ومقاطع قالوا شاعر ولكن شتان وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيبات ولكن يكذب كثيراً وهو يخبر بذلك عن الشياطين وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفاك أثيم كما قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع واكثرهم كاذبون] ثم قال (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون) فذكر سبحانه الفرق بين النبي وبين الكاهن والشاعر وكذلك الساحر لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها وكان من شمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه وانقاد له نفسه وقلبه صاروا يقولون ساحر وشتان وكذلك مجنون لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم لكن بما فيه فساد لا صلاح والانبيا جاءوا بما يخالف عادات الكفار لكن بما فيه صلاح لا فساد قالوا مجنون قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاعون) فتارة يصفونه بغاية الخلق والخبرة والمعرفة فيقولون ساحر وتارة بغاية الجهل والغبلة والحمق فيقولون مجنون وقد ضلوا في هذا وهذا كما قال تعالى (انظر كيف ضلوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً) فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضل عنها يأخذ تيناً وشمالاً ولا يهتدي الى السبيل التي تسلك والسبيل التي يجب سلوكها قول الصديق والعمل بالعدل والكهانة والسحر يناقض النبوة فان هؤلاء تعينهم الشياطين تخبرهم وتعاونهم بتصرفات خارقة ومقصودهم الكفر والفشوق والعصيان والانبيا تعينهم الملائكة هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة كما كانت الملائكة تعين النبي ﷺ في معازيه مثل يوم بدر امده الله بالغ من الملائكة ويوم حنين قال (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين واتزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) وقال تعالى (ان لاتصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فاتزل الله سكينته عليه وايداه بجنود لم تروها) وقال تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم ففتبوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب)

وقد بين سبحانه ان الذي جاء بالقرآن ملك كريم ليس بشيطان فقال (انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بظنين وما هو بقول شيطان رحيم فأين تذهبون) ولما كانت الانبياء مؤيدة بالملائكة والسحرة والكهان يقتزن بهم الشياطين كان من الفروق التي بينهم الفروق التي بين الملائكة والشياطين والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن كابن سينا وامثاله ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس قالوا والفرق بين النبي واليسار أن النبي يأمر بالخير واليسار يأمر بالشر وجعلوا ما يحصل للمرور من هذا الجنس اذ لم يعرفوا صرع الجن للانسان وان الجن يتكلم على لسان الانسان كما قد عرف ذلك الخاصة والعامة وعرفه علماء الامة وأئمتها كما قد بسط في غير هذا الموضع. والجهمية المجرة الذين قالوا ان الله قد يفعل كل ممكن مقدور لا ينزهونه عن فعل شيء ويقولون انه يفعل بلا سبب ولا حكمة وهو الخالق لجميع الحوادث لم يفرقوا بين ما تأتي به الملائكة ولا ما تأتي به الشياطين بل الجميع يضيفونه الى الله على حد واحد ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم حتى يأتي الرسول فقبل ثبوت الرسالة لا يميزون بين شيء من الخير والشر والحسن والقبيح فلهذا لم يفرقوا بين آيات الانبياء وخوارق السحرة والكهان بل قالوا ما يأتي به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الانبياء وما يأتي به الانبياء يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان لكن ان دل على انتفاء ذلك نص أو اجماع نفوه مع أنه جائز عندهم أن يفعله الله لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله فهو لا ما رأوا ما جاءت به الانبياء وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم وعلموا ذلك اما بضرورة واما بنظر واحتاجوا الى بيان دلائل النبوة على أصلهم كان غاية ما قالوا انه كل شيء يمكن أن يكون آية للنبي بشرط أن يقتزن بدعواه وبشرط أن يتحدى بالاثبات بالمثل فلا يعارض ومعنى التحدى بالمثل أن يقول لمن دعاهم اثبتوا بمثله وزعموا أنه اذا كان هناك سحرة وكهان وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة فان الله لا بد أن يمنهم عن مثل ما كانوا يفعلونه وان من ادعى منهم النبوة فانه يمنعه من تلك الخوارق أو يقبض له من يعارضه بمثله فهذا غاية تحقيقهم وفيه من الفساد ما يطول وصفه وطاعة الجن والشياطين

لسليمان صلوات الله عليه لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة والكهان والكفار وأهل الضلال والغي ولم تكن الآية والمعجزة والكرامة التي أكرمه الله بها هي ما كانوا يعتادونه مع الانس فان ذلك انما كان يكون في أمور معتادة مثل اخبارهم أحياناً ببعض الغائبات ومثل أمراضهم وقتلهم لبعض الانس كما أن الانس قد يمرض ويقتل غيره ثم هم انما يعاونون الانس على الأثم والعدوان اذا كانت الانسى من أهل الأثم والعدوان يفعلون ما تهواه الشياطين فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) وأما التسخير الذي سخره سليمان فلم يكن لغيره من الانبياء فضلاً عن من ليس بنبي وقد سأل ربه ملكاً لا ينبغي لاحد من بعده فقال [رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدى انك أنت الوهاب] قال تعالى [فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب] وقال تعالى (وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين) وقال تعالى (وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خرت تبنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) وكذلك ما ذكره من قول العفريت له [أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك] فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الاعمال الظاهرة العظيمة ليس مما فعلته بأحد من الانس وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً مما يهوونه من العزائم والاقسام والطلاسم الشركية كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فترهه الله من ذلك بقوله (واتبعوا ما تلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وأما طاعة الجن لبنا وغيره من الرسل كموسى فهذا نوع آخر فان هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته وطاعته

كطاعة الانس لنبينا حيث أرسل الى الطائفتين فدعاهم الى عبادة الله وحده وطاعته ونهاهم عن معصيته التي بها يستحقون العذاب في الآخرة وكذلك الرسل دعوهم الى ذلك وسليمان منهم لكن هذا انما ينتفع به منهم من آمن طوعاً ومن لم يؤمن فانه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول اهل يترك حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه أو يجاهد وسليمان كان على شريعة التوراة واستخدمه لمن لم يؤمن منهم هو مثل استخدام الاسير الكافر فحال نبينا مع الجن والانس أكمل من حال سليمان وغيره فان طاعتهم لسليمان كانت طاعة ملكية فيما يشاء وأما طاعتهم لمحمد فطاعة نبوة ورسالة فيما يأمرهم به من عبادة الله وطاعة الله واجتناب معصية الله فان سليمان عليه السلام كان نبيا ملكا ومحمد كان عبداً رسولاً مثل ابراهيم . وموسى وسليمان مثل داود ويوسف وغيرهما مع أن داود وسليمان ويوسف هم رسل أيضا دعوا الى توحيد الله وعبادته كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ولا اظهار مناوأة بالذم والعيب والظن لما هم عليه كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحي وكانت قريش اذ ذاك تقره ولا ينكر عليه الى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم وعيب ما كانت عليه آباؤهم وسفه أحلامهم فهناك عادوه وآذوه وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد قال تعالى [ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطلع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً] وكذلك موسى مع فرعون أمره أن يؤمن بالله وأن يرسل معه بني اسرائيل وان كره ذلك وجاهد فرعون بالزامه بذلك بالآيات التي كان الله يعاقبهم بها الى ان اهلكه الله وقومه على يديه .

فصل

فالذين سمو هذه الآيات خوارق للعادات وعجائب ومعجزات اذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفة لازمة لها بحيث لا تكون الآيات الا كذلك فهذا صحيح وان كانت هذه الامور قد تجعل أمراً عاماً فتكون متناولة لآيات الانبياء وغيرها كالحیوان الذي ينقسم الى انسان وغير انسان واما اذا جعلوا ذلك حداً لها وضابطاً فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل ان يقولوا خوارق العادات التي تختص الانبياء او يقولوا خوارق عادات الناس كلهم غير الانبياء فان آياتهم لا بد

ان تخرق عادة كل امة من الامم وكل طائفة من الطوائف لا تختص آياتهم بخرق
عادة بلد معين ولا من أرسلوا اليه بل تخرق عادة جميع الخلق الا الانبياء فانها اذا
كانت معتادة للانبياء مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذي لا يعرف الا من جبهتهم
فما كان معتادا للانبياء دون غيرهم فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم وان كان معتادا لهم
فان الدليل هو ما يستلزم المدلول عليه فاذا لم يكن ذلك معتاداً الا لنبى كان مستلزماً
للبوة وكان من أتى به لا يكون الانبياء وهو المطلوب بل لو كان مستلزماً للصدق ولا
يأتى به الا صادق لكان الخبر عن نبوة نبي اما نبوة نفسه أو نبوة غيرها اذا كان
كاذباً لم يحصل له مثل ذلك الدليل الذي هو مستلزم للصدق ولا يحصل أيضاً لمن كذب
بنبوة نبي صادق اذ هو أيضاً كاذب وانما يحصل لمن اخبر بنبوة نبي صادق وحينئذ
فيكون ذلك الدليل مستلزماً للخبر الصادق بنبوة النبي وهذا هو المطلوب فان مدلول
الآيات سواء سميت معجزات أو غيرها هو الخبر الصادق بنبوة النبي ومدلولها اخبار
الله وشهادته بانه نبي وان الله أرسله فقول الله محمد رسول الله وقوله انى رسول اليكم
وقول كل مؤمن انه رسول الله كل ذلك خبر عن رسالته وهذا هو مدلول الآيات
وقد يكون مدلول الآيات نفس النبوة التى هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل
خبر من الاخبار وهذا من جنس الاول فادل على نفس النبوة دل على صدق
الخبر بها وما دل على صدق الخبر بها دل عليها وأما نفس اخبار الرب بالنبوة واعلامه
بها وشهادته بها قولاً وعملاً فهو اخبار منه بها وهو الصادق في خبره فآخباره هو
دليل عليها فانه لا يقول الا الحق ولا يخبر الا بالصدق وايضاً فهو انشاء الرسالة
وارساله بكلامه قد يكون انشاء للرسالة وقد يكون اخباراً عن ارساله كالذى يرسل
رسولاً من البشر قد يرسله الناس فيقول له اذهب الى فلان فقل له كذا
وكذا وقد يرسله بينه وبينه ثم يقول للناس انى قد أرسلته ويرسله بعلامات وآيات
يعرف بها المرسل اليه صدقه وكذلك اذا وصفت بانها معجزات فلا بد ان يعجز كل
من ليس بنبي ولم يشهد للنبي بالنبوة فيعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في
نبوته من الجن والانس وكذلك اذا قيل هي عجائب والمعجب ما خرج عن نظيره
فلم يكن له نظير فلا بد ان يكون من العجائب التى لا نظير لها اصلاً عند غير الانبياء

لا من الجن ولا من الانس فاذا كان ليس لها نظير في شيء آخر فهذا يؤيد انها من خصائص الانبياء ومن آياتهم فهذا الموضع من فهمه فهما جيداً تبين له الفرقان في هذا النوع فان كثيرا من الناس يصفها بانها خوارق ومعجزات وعجائب ونحو ذلك ولا يحقق الفرق بين من يجب ان يحرق عادته ومعجزه ومن لا يجب ان يكون في حقه كذلك فالواجب ان يحرق عادة كل من لم يقر بنسوة الانبياء فلا يكون لمكذب بنبوتهم ولا لشاك وقولنا يحرق عادتهم هو من باب العادة التي تثبت بمرة ليس من شرط فسادها ان تقع غير مرة مع انتفاء الشهادة بالنسوة بل متى وقعت مرة واحدة مع انتفاء الشهادة بالنسوة لم تكن مختصة بشهادة النبوة ولا بالنسوة فلا يجب ان تكون آية وقولنا ولا يجب ان تحرق عادات الانبياء ولم نقل ولا يجوز ان تحرق عادات الانبياء بل قد تكون خارقة ايضاً لعادات الانبياء وقد خص بها نبي واحد مثل اكثر آيات الانبياء فان كل نبي خص بآيات لكن لا يجب في آيات الانبياء ان تكون مختصة بنبي بل ولا يجب ان يختص ظهورها على يد النبي بل متى اختصت به وهي من خصائصه كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته أو بعد موته أو على يد أحد من الشاهدين له بالنسوة فكل هذه من آيات الانبياء والذين قالوا من شرط الايات ان تقارن دعوى النبوة غلطاً عظيماً وسبب غلطهم انهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها بل جعلوا مالمسحرة والكهان هو أيضاً من آيات الانبياء اذا اقترن بدعوى النبوة ولم يعارضه معارض وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النبي وغيره وجعلوا دعواه النبوة جزءاً من الآية فقالوا هذا الحارق ان وجد مع دعوى النبوة كان معجزة وان وجد بدون دعوى النبوة لم يكن معجزة فاحتاجوا لذلك ان يجعلوه مقارناً للدعوى قالوا والدليل على ذلك ان مثل آيات الانبياء يأتي في آخر الزمان اذا جاءت اشراط الساعة ومع ذلك ليس هو من آياتهم وكذلك قالوا في كرامات الاولياء وليس الامر كذلك بل اشراط الساعة هي من آيات الانبياء من وجوه منها انهم اخبروا بها قبل وقوعها فاذا جاءت كما اخبروا كان ذلك من آياتهم ومنها انهم اخبروا بالساعة فهذه الاشراط مصدقة لحبرهم بالساعة وكل من آمن بالساعة آمن بالانبياء وكل من كذب الانبياء كذب الساعة قال تعالى

«وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصنى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرضوه وليقتروا ما هم مقتشفون» وقال تعالى [وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به] فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن فاذا جاءت اشراط الساعة كانت دليلاً على صدق خبرهم أن الساعة حق وان القرآن حق وكان هذا من الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول من القرآن وهو المطلوب فلا يوجد خرق عادة لجميع الناس الا وهو من آيات الانبياء وكذلك الذي يقتله الدجال ثم يحييه فيقوم فيقول أنت الاعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك الا بصيرة فيريد الدجال أن يقتله فلا يقدر على ذلك فهذا الرجل بعد أن قتل وقام يقول للدجال أنت الاعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك بهذا القتل لا بصيرة ثم يريد الدجال أن يقتله فلا يقدر عليه فمعجزه عن قتله ثانياً مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله وشهادته للرسول محمد بالرسالة هو من خوارق العادات التي لا توجد الا لمن شهد للانبياء بالرسالة وهذا الرجل هو من خيار أهل الارض المسلمين فهذا الخارق الذي جرى فيه هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة فهو من اعلام النبوة ودلائلها وكونه قتل أولاً أبلغ في الدلالة فان ذلك لم يزغه ولم يؤثر فيه وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية فكان هذا اليقين والايان مع معجزه عنه هو من خوارق الآيات ومعلوم أن قتله ممكن في العادة فمعجزه عن قتله ثانياً هو الخارق للعادة ودل ذلك على أن احياء الله له لم يكن معجزة للدجال ولا لبيين بها صدقه لكن احياء ليكذب للدجال وليبين أن محمداً رسول الله وان الدجال كذاب وانه هو الاعور الكذاب الذي أنذر به النبي ﷺ حيث قال «ما من نبي الا وقد أنذر امته الاعور الدجال وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لامته انه أعور وان الله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن قارئ وغير قارئ» وفي بعض الاحاديث الصحيحة «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت» فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس تبين لهم كذبه فيما بدعيه من الربوبية اذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الاله في البشر

النصارى وغير النصارى وما يأتى به الدجال إنما يحار فيه ويراه معارضاً لآيات الانبياء من لم يحكم الفرقان فقوم يكذبون ان يأتى بعجيب ويقولون مامعه الا التمويه كما قالوا في السحر والكهانة مثل كثير من المعتزلة والظاهرية كابن حزم وقوم يقولون لما دعى الالهية كانت الدعوى معلومة البطلان فلم يظهر الخارق كما يقول ذلك القاضي أبو بكر وطائفة ويدعون أن النصارى اعتقدت في المسيح الالهية لكونه أتى بالحوارق مع اقراره بالعبودية فكيف بمن يدعى الالهية ولكن هذا الخارق الذى يظهره الله في هذا الرجل الصالح الذى طلب منه الدجال أن يؤمن به فلم يفعل بل كذبه وقال انت الاعور الدجال الذى اخبرنا به النبي ﷺ فقتله ثم احياه الله فقال له انت الاعور الدجال فكذبه قبل أن قتل وبعد ما احياه الله وأراد الدجال قتله ثانية فلم يمكن فعمجزه عن قتله ثانياً من أعظم الحوارق مع تكذيبه واما احياؤه مع تكذيبه له أولاً وعمجزه ثانياً عن قتله فليس بخارق فهذا احياه معين معه دلائل معدودة تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الرسول لا على صدق الدجال وتبين بذلك أن الآيات جميعها يدل على صدق الانبياء فان آيات الله مرة او مرتين او ثلاثاً لا يشترط في ذلك تكرار بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الانبياء ومن يشهد بالنبوة ولم يوجد لغيرهم كان هذا دليلاً على أنها مختصة بالانبياء ومن أطلق خرق العادة ولم يفسره ويبينه فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة أو ظن أن خرق العادة أن لا يعارضها معارض من المرسل اليهم وكثير من المتنبئين الكذابين أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان ولم يكن من أولئك القوم من أتى بمثلها لكن قد علم أن في العالم مثلاً في غير ذلك المكان أو في غير ذلك الزمان وإنما الخارق كما قال (في القرآن) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولهذا قال في آيات التحدى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مقتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) وقال في تلك الآية [فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو] فلم يكتف بعجز المدعويين بل أمرهم أن يدعوا الى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله وهذا تعجيز لجميع الخلق الانس والجن والملائكة وقال في البقرة [وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم

صادقين) أى ادعوا كل من يشهد لكم فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله ادعوا كل من لم يقرباًن هذا منزل من الله فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به ومن آمن به وبقي في ريب لم قد علم أنه من عند الله وهذا التحدى في البقرة وهى مدنية بعد يونس وهود ولهذا قال [وان كنتم في ريب] وهناك قال [أم يقولون افتراء] فهذا تحدى لكل مرتاب وذلك تحدى لكل مثل مكذب ولهذا قيل في ذلك (من استطعتم) فانه أبلغ وقيل في هذا (شهداءكم) وقد قال بعض المفسرين شهداءكم آلهتكم وقال بعضهم من يشهد أن الذى جئتم به مثل القرآن والصواب أن شهداءهم الذين يشهدون لهم كما ذكره ابن اسحق باسناده المعروف عن ابن عباس قل شهداءكم من استطعتم من أعوانكم على ما أتم عليه وقال السدى عن أبى مالك شهداءكم من دون الله أى شركاءكم فان هؤلاء هم الذين يتصور منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه أما من أيقن أنه من عند الله فانه يمتنع أن يقصد معارضته لعلهم بان الحاق عاجزون عن ذلك والله تعالى شهد لمحمد بما اظهره من الآيات فادعوا من يشهدكم وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون بما شهد الله به فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال [لكن الله يشهد بما اترل اليك اترله بعلمه والملائكة يشهدون] وقال [قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب] كما قال [شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم] وقد قلنا يجوز ان تكون آياتهم خارقة لعادة جميع الخلق الا للنبي لكن لا يجب هذا فيها (فان قيل) قد ذكرتم ان آيات الانبياء هي الخوارق التى تحرق عادة جميع الثقلين فلا تكون لغير الانبياء ولغير من شهد لهم بالنبوة وهذا كلام صحيح فصلتم به بين آيات الانبياء وغيرهم بفصل معطر منعكس بخلاف من قال هي خرق العادة ولم يميز بينها وبين غيرها وتكلم في خرق العادة بكلام متناقض تارة يمنع وجود السحر والكهانة وتارة يجعل هذا الجنس من الآيات ولكن الفرق عدم المعارضة لكن لم يذكروا الفرق في نفس الامر ونفس كونها معجزة وخارقا وآية لماذا كان وما هو الوصف الذى امتازت به حتى صارت آية ودليلا دون غيرها فذكرتم الدليل لكن لم تذكروا الحقيقة التى بها صار الدليل دليلا قيل لا بد ان تكون مما يعجز عنها الانس والجن فان هذين الثقلين بعث اليهم الرسل كما قال تعالى [يامعشر الجن والانس الم بأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم

[م ٢٨ — النبوات]

لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين [وقال تعالى] وقال لهم خزنتها لم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين] والانس والجن منهم من آمن بالرسول ومنهم من كذبهم فلا بد ان يكون مما لا يقدر عليها جنس الانس والجن ثم الكرامات يخص بها المؤمنين من الطائفتين واما آيات الانبياء التي بها تثبت نبوتهم وبها وجب على الناس الايمان بهم فهي امر يخص الانبياء لا يكون للاولياء ولا لغيرهم بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الانس والجن غير الانبياء فما كان الانس أو الجن يقدرون عليه فلا يكون وحده آية للنبي أو ما تقدر عليه الملائكة فذاك قد يكون من آياتهم لانهم لم يرسلوا الى الملائكة والملائكة لا تفعل شيئاً الا باذن الله فما تفعله الملائكة معهم فهو باذن الله وهو ما خص به الانبياء بخلاف الانس والجن وخاصتها التي تمتاز بها عن غيرها ان يكون آية ودليلاً على نبوتهم فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية وليست مختصة بجنس من الموجودات بل تكون في جنس العلم والاخبار يغيب الرب الذي اختص به وتكون في جنس القدرة والتصرف والتأثير في العالم وهي مقدورة للرب فله سبحانه ان يجعلها في اى جنس كان من المقدورات ولهذا تنوعت آيات الانبياء بل النبي الواحد تنوع آياته فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام والشراب كسحب الماء من بين الاصابع وهذا كما أن آيات الرب الدالة على قدرته ومشيبته وحكمته وامره ونهيه لا تختص بنوع فكذلك آيات انبيائه فهذا مما ينبغي ان يعرف ولكن خاصتها انها لا تكون الا مستلزمة لصديق النبي وصديق الخبر بانه نبي فلا تكون لمن يكذبه قط ولا يقدر أحد من مكذبي الانبياء ان يأتي بمثل آيات الانبياء واما مصدقوهم فهم معترفون بان ما يأتون به هو من آيات الانبياء مع انه لا تصل آيات الاتباع الى مثل آيات المتبوع مطلقاً وان كانوا قد يشاركونه في بعضها كاحياء الموتي وتكثير الطعام والشراب فلا يشركونه في القرآن وفلق البحر وانشقاق القمر لان الله فضل الانبياء على غيرهم وفضل بعض النبيين على بعض فلا بد ان يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضل على مثله اذ لو أتى بمثل ما أتى لكان مثله لادونه ❦

فصل

وكثير من هؤلاء مضطربون في مسمى العادة التي تحرق والتحقيق أن العادة أمر اضافي فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم فهذه اذا خرقت فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقال [فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا] وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين فهو سبحانه اذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الامور ما يمتاز به عن غيره ويختص به ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الانبياء ويختصون بها والله تعالى يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالته فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة وتلك سنته وعادته في أمثاله يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الانبياء مثلا ولم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الانبياء لغيرهم حتى يقال انه خرق عادته ونقضها بل عادته وسنته المطردة ان تلك الآيات لا تكون الا مع النبوة والاخبار بها لا مع التكذيب بها أو الشك فيها كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون الا لمن عبده وأطاعه وان سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين وسنته وعادته أنه ينصر رسله والذين آمنوا كما قال تعالى (ولوقاتكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وكل ما يظن أنه خرقة من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات فعادته وسنته لا تبدل اذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل هذا قول الجمهور وأما من لا يثبت سبب ولا حكمة ولا عدلا فانهم يقولون انه يخرق عادات لا لسبب ولا لحكمة ويجوزون أن يقرب الجبل ياقوتاً والبحر لبناً والحجارة آدميين ونحو ذلك مع بقاء العالم على حاله ثم يقولون مع هذا ولكن نعلم

بالضرورة أنه لم يفعل ذلك ويقولون العقل هو علوم ضرورية كالعلوم بحارى العادات وهذا تناقض بين فأنهم اذا جوزوا هذا ولم يعلموا فرقاً بين ما يقع منه وما لا يقع كان الحزم بوقوع هذا دون هذا جهلاً وغاية ما عندهم أن قالوا يخلق في قلوبنا علم ضرورى بأن هذا لم يقع ويخلق في قلوبنا علم ضرورى بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبى فيقال اذا كان قد جعل الله في قلوبكم علماً ضرورياً كما جعله في قلوب أمثالكم فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضرورى لكن خطأكم اعتقادكم أن العادات قد يتقضى الله بلا سبب ولا لحكمة فهذا ليس معلوماً لكم بالضرورة وخطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر فان هذا تفريق بين المتماثلين وهذا قدح في البديهيات فان أصل العلوم العقلية النظرية اعتبار الشيء بمثله وان حكمه حكم مثله فاذا جوزتم أن يكون الشئان متماثلين من كل وجه وأن العقل يحزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر كان هذا قدحاً في أصل كل علم وعقل واذا قلتم ان العادات جميعها سواء وأن الله يفعل ما يفعل بلا سبب ولا حكمة بل محض المشيئة مع القدرة ورجحت هذا على هذا وقلتم لا فرق بين قلب الحبال يواقيت والبحار لبناً وبين غير ذلك من العادات وجوزتم ان يجعل الله الحجارة آدميين علماء من غير سبب تغير به المخلوقات كان هذا قدحاً في العقل فلا أنتم عرفتتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتتم خاصة العقل وهو التسوية بين المتماثلين فانه سبحانه قط لم يخرق عادة الا لسبب يناسب ذلك مثل فلق البحر لموسى وغير ذلك من الآيات التى بعث بها فان ذلك خلقه ليكون آية وعلامة وكان ذلك بسبب نبوة موسى وانجائه قومه وبسبب تكذيب فرعون ومن جوز أن ذلك البحر أو غيره ينفلق كما انفلق لموسى من غير أن يكون هناك سبب الهى يناسب ذلك فهو مصاب في عقله ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها وكانت آيات الانبياء والعلم بأنها آيات ان حققوها على وجهها فسدت أصولهم وان طردوا أصولهم كذبوا العقل والسمع ولم يمكنهم لا تصديق الانبياء ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التى يفعلها بأسباب وحكم كما قد بسط هذا في موضع آخر ٥

فصل

ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه فلا يعرف آيات الانبياء الا من عرف ما اختص به الانبياء وامتازوا به عما سواهم والنبوة مشتقة من الانباء والنبي فعيل وفعل قد يكون بمعنى فاعل أى منبى وبمعنى مفعول أى منبأ وهما هنا متلازمان فالنبي الذى ينبئ بما أنبأ الله به والنبي الذى نبأ الله وهو منبأ بما أنبأ الله به وما أنبأ الله به لا يكون يوافق كذبا لا خطأ ولا عمداً فلا بد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله يوافق خبره مخبره لا تكون فيه مخالفة لا عمداً ولا خطأ وهذا معنى قول من قال هم معصومون فيما يبلغونه عن الله لكن لفظ الصادق وان النبي صادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله (والله يعصمك من الناس) أى من أذاهم فعنى هذا اللفظ في القرآن هو الذى يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً والتعير عن حقائق الايمان بعبارات القرآن أولى من التعير عنها بغيرها فان الفاظ القرآن يجب الايمان بها وهي تنزيل من حكيم حميد والامة متفقة عليها ويجب الاقرار بمضمونها قبل أن تفهم وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضى عجائبه والالفاظ المحدثه فيها اجمال واشتباء وتزاع ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجردده وليس هو قول الرسول الصادق المصدق وقد يضطرب في معناه وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والاسلام كما قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) ومتى ذكرت الفاظ القرآن والحديث وبين معناها بيانا شافيا فانها لا تنظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة وفيها زيادات عظيمة لا يوجد في كلام الناس وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال (انا نحن نزلنا الذكر واناله لحافظون) وقال تعالى [وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد] وقال تعالى [ألم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير] وقال (تلك آيات الكتاب الحكيم) وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد ففيه أصول الدين المفيدة لليقين وهو أصول دين الله ورسوله لأصول دين محدث ورأى مبتدع وقد يكون معصوما على لغة القرآن بمعنى أن الله عصمه من

الشياطين شياطين الانس والجن وان يغيروا ما بعث به أو يمنعوه عن تبليغه فلا يكتفم ولا يكذب كما قال تعالى [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا] فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه وهذا في معنى عصمته من الناس فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الانس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب ولا كتمان ولفظ الانباء يتضمن معنى الاعلام والاخبار لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الاخبار فهو يستعمل في الاخبار بالامور الغائبة المختصة دون المشاهد المشتركة كما قال (وأنبئكم بما تأنون وما تدخرون في بيوتكم) وقال [فلما نبأها به قالت من أنباءك هذا قال نبأني العليم الخبير] وقال [قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون] وقال (عم يتسألون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون) وقال [وان يأت الأحزاب يدودوا لو ائتم بادون في الاعراب يسألون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا] وقال [ولتعلمن نبأه بعد حين] وقال [لكل نبأ مستقر] وقال [أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين] الى قوله (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تدون وما كنتم تكتمون) وقوله (يعتذرون اليكم اذا رجعت اليهم قل لا تعتذروا قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهذا في خطاب المنافقين ولم يقل والمؤمنون لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على ما في بطونهم وهذا بخلاف قوله (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) فانها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الارض تجرب ذلك فالعجب في الخبر لافي الخبر كشهادة الاعضاء وقال (قل آلا ذكرين حرم ام الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين) وجمع النبي أنبياء مثل ولى وأولياء ووصى وأوصياء وقوى وأقوياء ويشبهه حبيب وأحباء كما قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) ففعل اذا كان معتلا أو مضاعفاً جمع على أفعلاء بخلاف حكيم وحكماء وعليم وعلماء وهو من النبأ وأصله الهمزة وقد قرئ به وهي قراءة نافع يقرأ النبي لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية وفي البرية وقد قيل هو من النبوة وهو العلو فعنى النبي المعلى الرفيع المنزلة

والتحقيق ان هذا المعنى داخل في الاول فمن أنباء الله وجعله منبئاً عنه فلا يكون الارتفاع
 القدر علياً واما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة اذ كان هذا يوصف
 به من ليس بنبي بل يوصف بأنه الاعلى كما قال (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون)
 وقراءة الهمز قاطعة بأنه مهموز وما روى عن النبي ﷺ انه قال « أنا نبي الله واست
 بنبي الله » فما رأيت له اسناداً لامسنداً ولا مراسلاً ولا رأيت في شيء من كتب الحديث
 ولا السير المعروفة ومثل هذا لا يعتمد عليه واللفظان مشتركان في الاشتقاق الا كبر
 فكلاهما فيه النون والباء وفي هذا الهمزة وفي هذا الحرف المعتل لكن الهمزة
 أشرف فانها أقوى . قال سيويه هي نبوة من الخلق تشبه التهوع فالمعنى
 الذي يدل عليه ويمكن أن تabin فتصير حرفاً معتلاً فيعبر عنه باللفظين بخلاف
 المعتل فانه لا يجعل همزة فلو كان أصله نبي مثل علي ووصى وولي لم يجوز أن يقال
 بالهمز كما لا يقال علي ووصى وولي بالهمز واذا كان أصله الهمز جاز تليين الهمزة وان
 لم يكثر استعماله كما في لفظ خبي وخبيئة وأيضاً فان تصريحه أنبأ ونبأ بنبي وبنبي
 بالهمزة ولم يستعمل فيه نبا ينبو وانما يقال هذا ينبو عنه والماء ينبو عن القدم اذا كان
 يحفو عنها ويقال النبوة وفي فلان نبوة عنا أى مجانبة فيجب القطع بأن النبي مأخوذ
 من الانباء لا من النبوة والله أعلم

فصل

قد تقدم أن للناس في وجه دلالة المعجزات وهي آيات الانبياء على نبوتهم طرقاً
 متعددة منهم من قال دلائلها على التصديق تعلم بالضرورة ومنهم من قال تعلم بالنظر
 والاستدلال وكلا القولين صحيح فان كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة
 الاخبار المتواترة فانه قد يحصل بالخبر علم ضروري وقد يحصل العلم بالاستدلال
 وطائفة منهم الكعبي وأبو الحسين البصري وأبو الخطاب أنه نظري والتحقيق أن كلا
 القولين حق فانه يحصل بها علم ضروري والادلة النظرية توافق ذلك وكذلك كثير
 من الادلة والعلامات والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوإزامها بالضرورة
 ويكون اللزوم عنده بينا لا يحتاج فيه الى وسط ودليل ومنهم من يقتصر الى دليل واحد

تبيين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم وهذا الحكم لازم له ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب فقد يحجى المخبر اليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقتزن بخبره وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية التتبع إذا أخبره وهو خير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة أما صدقه وأما كذبه وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهرون وغيره أن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات ولما قال لهرون أن الله قد أمرك أن تؤازرنى صدقه هرون في هذا لما يعلم من حاله قديماً ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه وكذلك النبي ﷺ لما ذكر حاله لحديجة وغيرها وذهبت به إلى ورقة بن نوفل وكان عالماً بالكتاب الأول فذكر له النبي ﷺ ما يأتيه علم أنه صادق وقال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى باليتنى فيها جذعا باليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك قال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم قال نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصر أمؤزرا . وكذلك النجاشي لما سمع القرآن قال ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك أبو بكر وزيد بن حارثة وغيرها علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بمآله به وقرأ عليهم ما أنزل عليه وبقي القرآن الذي قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علماً ضرورياً بأنه صادق وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقتزن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عرف صدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا من هو من اصدق الناس أو من اكذبهم وهم يعلمون انه من الصنف الأول دون الثاني فإذا كان العلم بصدقه بلا آية قد يكون علماً ضرورياً فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه وجميع الأدلة لا بد ان تعرف دلالتها بالضرورة فإن الأدلة النظرية لا بد ان تنتهي إلى مقدمات ضرورية وأكثر الخلق اذا علموا ما جاء به موسى والمسيح ومحمد علموا صدقهم بالضرورة ولهذا لا يوجد احد قدح في نبوتهم الا أحد رجلين اما رجل جاهل لم يعرف احوالهم واما رجل معاند متبع لهواه وعامة من كذبهم في حياتهم كان معانداً فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم أو ما كذبهم والاتباع طاعة لكبرائهم كما أخبر الله بمثل ذلك

في غير موضع من القرآن لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب فانه يتمتع قيام دليل يدل على الكذب فالمكذب مفتر متكلم بلا علم ولا دليل قطعاً وكذلك كل من كذب بشيء من الحق أو صدق بشيء من الباطل يتمتع ان يكون عليه دليل صحيح فان الدليل الصحيح يستلزم مدلوله فاذا كان المدلول منتفياً امتنع ان يكون عليه دليل صحيح وكثير من الناس قد يكون شاكا لعدم طلبه العلم واعراضه عنه فالمكذب متكلم بلا علم قطعاً والشاك معرض عن طلب العلم مقصر مفرط ولو طلب العلم تبين له الحق اذا كان متمكناً من معرفة ادلة الحق واما من لم يصل اليه الدليل ولا يتمكن من الوصول اليه فهذا عاجز واما الذين سلكوا طريق الحكمة فلهم ايضاً مسالك مثل ان يقال ان الله سبحانه وتعالى اذا بعث رسولا امر الناس بتصديقه وطاعته فلا بد ان ينصب لهم دليلاً يدلهم على صدقه فان ارسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل اليهم انه رسول قبيح وسفه في صرائح العقول وهو نقص في جميع الفطر وهو سبحانه منزّه عن النقائص والعيوب ولهذا ينكر على المشركين انهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص لا يرضونه لانفسهم مثل كون مملوك احدهم شريكه يساويه فان هذا من النقائص والعيوب التي ينزهون انفسهم عنها ويعيبون ذلك على من فعله من الناس فاذا كان هذا عيباً ونقصاً لا يرضاه الخلق لانفسهم لمنافاته الحكمة والعدل فان الحكمة والعدل تقتضي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به ويصلح به فلا تكون العين كالرجل ولا الامام الذي يؤتم به في الدين والدنيا في آخر المراتب والسفلة من اتباعه في أعلى المراتب فكذلك المالك لا يكون مملوكه مساوياً له فان ذلك يناقض كون احدهما مالكا والآخر مملوكاً ولهذا جاءت الشريعة بان المرأة لا تتزوج عبدها لتناقض الاحكام فان الزوج سيد المرأة وحاكم عليها والمالك سيد المملوك وحاكم عليه فاذا جعل مملوكها زوجها الذي هو سيدها تناقضت الاحكام فمذاوامثاله مما يبين ان هذه القضية مستقرة في فطر العقلاء ولهذا قال تعالى [ضرب لكم مثلاً من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم] اي كما يخاف بعضكم بعضاً كذلك يفصل الآيات لقوم يعقلون بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدي من اضل الله وما لهم من ناصرين) وكذلك كل احد يعلم بفطرته ان الذكر افضل من الانثى (م ٢٩ - - النبوات)

وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم حتى كان منهم من يثد البنات ويدفن
البنات وهي حية حتى قال تعالى (واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) وقال تعالى [واذا
بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره
به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب] وكانوا لا يورثون الاناث وقد قالت ام مريم
وليس الذكر كالانثى وكان من الكفار من جعل له الاناث اولادا وشركاء قال تعالى
[أفأنتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى السكم الذكر وله الانثى ثلث اذا قسمة
ضيزى ان هي الاسماء سميتوها انتم وآباؤكم] وقال تعالى [ان الذين لا يؤمنون بالاخرة
ليسمون الملائكة تسمية الانثى وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى
من الحق شيئاً] وقال تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر احدكم
بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على
هون ام يدسه في التراب الاساء ما يحكمون) يعنى ساء الحكم حكمهم اى بثس الحكم
حكمهم كما يقال بثسما فعل وبثسما حكم حيث حكموا بان لله البنات ولهم ما يشتهون
فهذا حكم جائر كما ان تلك القسمة قسمة جائزة عوجا فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم
وهذا قسمهم يجعلون لانفسهم افضل النوعين ولربهم ادنى النوعين وهو مثل النسوة والله
المثل الاعلى فالواجب ان يكون افضل الانواع واكملها لله وما فيها نقص وعيب فالخلق
احق بها من الخالق اذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه فيمتنع ان يكون
الانقص خلق الاكمل والفلاسفة يقولون بعبارتهم كل كمال في المعلوم فهو من العلة
وايضا فالوجود الواجب اكمل من الممكن والقديم اكمل من المحدث والغنى اكمل من
الفقر فيمتنع اتصاف الاكمل بالتناقص واتصاف الانقص بالكالات ولهذا يوصف سبحانه
بانّه الاكرم والاكبر والاعلى وانه ارحم الراحمين وخير الحاكمين وخير الغافرين واحسن
خالقين فلا يوصف قط الا بما بوجب اختصاصه بالكالات والممادح والمحسن التي
لا يساوبه فيها غيره فضلا عن ان يكون لغيره النوع الفاضل وله النوع المفضول
ولهذا عاب الله المشركين بان جعلوا لله مما ذرأ من الخرش والانعام نصيباً فقالوا هذا لله
بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى
شركائهم ساء ما يحكمون فبثس الحكم حكمهم في هذا كما انه بثس الحكم حكمهم في جعله

الذكور لهم والاناث له وساء بمعنى بئس كقوله ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا اى بئس مثلاً مثلهم ولهذا قالوا في قوله ساء ما يحكمون بئسما يقضون وقال تعالى [افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولاً عظيماً] وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين واذا بشر احدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم سكتيب شهداتهم ويسألون) فهذه الطريقة وهو ان ما يستحقه المخلوق من الكمال الذى لا نقص فيه فالحال ان اولى به وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة فالحال ان تعالى اولى بتنزيهه عن كل عيب وذم وهو سبحانه القدوس السلام الحميد المجيد من ابلغ [١] الطرق البرهانية وهي مستعملة في القرآن في غير موضع فلذلك يقال الواحد من الناس قادر على ارسال رسول وعلى ان يرسل نشابة وعلامة يعرفه المرسل اليهم بها صدقه فكيف لا يقدر الرب على ذلك ثم اذا ارسله اليهم وامرهم بتصديقه وطاعته ولم يعرفهم انه رسوله كان هذا من اقبح الامور فكيف يجوز مثل هذا على الله ولو بعثه بعلامة لاتدلهم على صدقه كان ذلك عيباً مذموماً فكل ما ترك من لوازم الرسالة اما ان يكون لعدم القدرة واما ان يكون للجهل والسفه وعدم الحكمة والرب احق بالتنزيه عن هذا وهذا من المخلوق فاذا ارسل رسولا فلا بد ان يعرفهم انه رسوله ويبين ذلك وما جعله آية وعلامة ودليلاً على صدقه امتنع ان يوجد بدون الصدق فامتنع ان يكون للكاذب المنتهى فان ذلك يقدر في الدلالة فهذا ونحوه مما يعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب فكيف اذا انضم الى ذلك ان هذه سنته وعادته وان هذا مقتضى عدله وكل ذلك عند التصور التام يوجب علماً ضرورياً يصدق الرسول الصادق وانه لا يجوز ان يسوى بين الصادق والكاذب فيكون ما يظهره النبي من الآيات يظهر مثله على يد الكاذب اذ لو فعل هذا لتعذر على الخلق التمييز بين الصادق والكاذب وحينئذ فلا يجوز ان يؤمروا بتصديق الصادق ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته اذ الامر بذلك بدون دليله تكليف ما لا يطاق وهذا لا يجوز في عدله وحكمته ولو قدر انه جاز عقلاً فانه غير واقع

فصل

وقد دل القرآن على انه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه بل لا بد أن يظهر كذبه وان ينتقم منه فقال تعالى [ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين] ذكر هذا بعد قوله [فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون تنزيل من رب العالمين] ثم قال [ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين] هذا بتقدير ان يقول بعض الاقاويل فكيف بمن يقول الرسالة كلها وقوله [لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين] عرق في الباطن يقال هو نياط القلب اذا قطع مات الانسان عاجلا وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله وقوله [لاخذنا منه باليمين] قيل لاخذنا بيمينه كما يفعل من يهان عند القتل فيقال خذ بيده فيجر بيده ثم يقتل فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل وامانة وتعجيل هلاكه للمقول وقيل لاخذنا منه باليمين اى بالقوة والقدرة فان الميامن اقوى ممن يأخذ بشماله كما قال [فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر] وكما قال [ان بطش ربك لشديد] لكنه قال [لاخذنا منه] ولم يقل لاخذناه فهذا يقوى القول الاول وقال تعالى [ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبه] ثم قال [ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته] فقوله [ويمحو الله الباطل] عطف جملة على جملة قالوا وليس من جواب الشرط لانه قال ويحق الحق بالضم وهو معطوف على قوله [ويمحو الله الباطل] فحواه لا باطل واحتقانه الحق خبر منه لا بد ان يفعله فقد بين انه لا بد ان يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته فانه اذا انزل كلماته دل بها على انه نبي صادق اذ كانت آياته وبيّن بها الحق من الباطل وهو أيضا يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته فانه اذا انزل كلماته دل بها على انه نبي صادق اذ كانت آية له وبيّن بها الحق من الباطل وهو أيضا يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته التى تكون بها الاشياء فيحق الحق بما يظهره من الآيات وما ينصر به أهل الحق

كما تقدمت كلمته بذلك كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) وقال (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) وقال (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وأمره يتضمن ما يأمر به وهو الكائن بكلماته وقال تعالى [انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون] وكلماته صدق وعدل والعدل وضع الاشياء مواضعها فن عدله ان يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصالح من كرامته ونصره وان يجعل الكاذب عليه حيث يليق به من اهانتة وذله قال تعالى [ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين] قال أبو قلابة هي لكل مفتر الى يوم القيامة ومن أعظم الافتراء عليه دنوى النبوة والرسالة كذبا كما قال تعالى [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء] ومن قال [سأنزل مثل ما أنزل الله] وذكر في هذا الكلام جميع اصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله [وما قسدروا الله حق قسدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون] ثم قال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء) الآية فان الكاذب اما أن يقول ان غيرى أنزل على واما أن يقول أنا أصنف مثل هذا القرآن واذا قال غيرى أنزل على فأما أن يعينه فيقول ان الله أنزله على وأما ان يقول أوحى ولا يعين من أوحاه فذكر الاصناف الثلاثة فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء) فهذا نوعان من جنس ثم قال ومن ولم يقل أو قال اذ كان هذا معارضا لا يدعى أنه رسول فقال ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع وقال [قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا] والرسول أخبر بهذا خبرا تاما في أول الامر وهذا لا يمكن الا مع قطعه أنه على الحق والى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله وقوله ومن قال

سأُنزل ولم يقل أقدر أن أنزل فإن قوله سأُنزل هو وعد بالفعل وبه يحصل المقصود بخلاف قوله أقدر فإنه لا يحصل به غرض المعارض وإنما يحصل إذا فعل فن وعد بانزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبههم إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وقوله مثل ما أنزل الله يقتضى أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله كاللآلئ والانبيا والنبوة وهذا حق فإن في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه إلا الله وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل بتلك الرسالة إلا الله فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على نبيه فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره

فصل

والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولاً حكمته ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوى بين الصادق بما يظهر به صدقه وبأن ينصره ويعزده ويجعل له العاقبة ويجعل له لسان صدق في العالمين والكاذب عليه يبين كذبه ويخذله ويذله ويجعل عاقبته عاقبة سوء ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين كما قد وقع فهذا هو الواقع لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك فهذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع ويمتنع أن يقع منه ضد ذلك ببيان أنه حكيم وأن حكمته توجب أن يبين صدق الانبياء وينصرهم ويبين كذب الكاذبين وينذلهم وكذلك يفعل باتباع النبيين وبأعدائهم كما أخبر بذلك في كتابه وبين أن هذا حق عليه يجب أن يفعله ويمتنع أن يفعل ضده كما قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجمعوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وكما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله لقوى عزيز) وقوله « لأغلبن » قسم أقسم الله عليه فهو جواب قسم تقديره والله لأغلبن أنا ورسلى وهذا يتضمن اخباره بوقوع ذلك وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما حلف عليه أما حضاً عليه وأمره به وأما منعاً منه ونهياً عنه ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه وكذلك كان في أول الاسلام ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين

حتى أنزل الله كفارة اليمين كما ذكرت ذلك عائشة ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده خفئاً فيضرب به ولا يحنث فان ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالندر يحتذى به حذو الواجب بالشرع والضرب بالضغث يجوز في الحدود اذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث ولو كان في شرعهم كفارة لاغنت عن الضرب مطلقاً لكن الانسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته ثم يندم عليه والرب تعالى عالم بعواقب الامور فلا يحلف على أمر ليفعله الا وهو يعلم عاقبته واليمين موجبة ولهذا قال تعالى (كتب الله لاغلبين) وكتب مثل كتب في قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) فهي كتابة تتضمن خبراً واجاباً ومنه قوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) وفي الحديث الصحيح الالهى « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » وقد بسط هذا الاصل في مواضع مثل الكلام في مسألة القادر المختار ومسألة العدل والظلم وغير ذلك فان كثيراً من المتكلمين يقول ان القادر المختار لا يفعل الا بوصف الجوار فيفعل الفعل في حال تردده بين أن يفعل وان لا يفعل ومنهم من يقول يفعل مع رجحان أن يفعل رجحاناً لا ينتهى الى حد الوجوب وهو قول محمد بن الهيثم الكرامى ومحمود الخوارزمى المعتزلى وبهذا استطال عليهم الفلاسفة فقالوا الرب موجب لان الممكن لا يقع حتى يحصل المؤثر التام الموجب له والتحقيق ان الرب يخلق بمشيئته وقدرته وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته ليس موجباً بمجرد الذات ولا موجباً بمعنى أن موجبه يقارنه فان هذا ممتنع فهذان معنيان باطلان وهو قادر يفعل بمشيئته فإشاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب لونه وما لم يشأه امتنع كونه ولهذا قال كثير من النظار ان الارادة موجبة للمراد وعلى هذا فقولنا يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون انما هو جواز الشيء بمعنى الشك في أيهما هو الواقع والافى نفس الامر أحدهما هو الواقع ليس في نفس الامر ظناً متردداً بين الوقوع وعدم الوقوع والامكان النهى قد يراد به عدم العلم بالامتناع وقد يراد به الشك في الواقع وكلا النوعين عدم علم والامكان الخارجى يراد به أن وجوده في الخارج ممكن لا ممتنع كولادة النساء ونبات الارض وأما الجزم بالوقوع وعدمه فيحتاج الى دليل وفي نفس الامر ما شئ الا ما يقع أو لا يقع والواقع لا بد من وقوعه ووقوعه واجب لازم وما لا يقع

فوقوعه ممتنع لكن واجب بغيره وممتنع لغيره وهو واجب من جهات من جهة علم الرب من وجهين ومن جهة ارادته من وجهين ومن جهة كلامه من وجهين ومن جهة كتابته من وجهين ومن جهة رحمته ومن جهة عدله أما علمه فما علم انه سيكون فلا بد أن يكون وما علم أنه لا يكون فلا يكون وهذا مما يعترف به جميع الطوائف الا من ينكر العلم السابق كغلاة القدريّة الذين تبرأ منهم الصحابة ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة فيدعوه علمه الى فعله أو ما فيه من الفساد فيدعوه الى تركه وهذا يعرفه من يقرب أن العلم داع ومن يقر بالحكمة ومن جهة ارادته فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومن جهة حكمته وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها فاذا كان مريداً للغاية المطلوبة لزم أن يريد ما يوجب حصولها ومن جهة كلامه من وجهين من جهة أنه أخبر به وخبره مطابق لعلمه ومن جهة أنه أوجبه على نفسه واقسم ليفعله وهذا من جهة إيجابه على نفسه والتزامه أن يفعله ومن جهة كتابته إياه في اللوح وهو يكتب ما علم أن سيكون وقد يكتب إيجابه والتزامه كما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) [فهذه عشرة أوجه (١) تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون وان ذلك واجب حتم لا بد منه فما في نفس الامر جواز يستوى فيه الطرفان الوجود والعدم وإنما هذا في ذهن الانسان لعدم علمه بما هو الواقع ثم من علم بعض تلك الاسباب علم الواقع فتارة يعلم لانه أخبر بعلمه وهو ما أخبرت به الانبياء بوقوعه كالقيامة والجزاء وتارة يعلم من جهة لمشئته لانه جرت به سنته الشاملة التي لا تتبدل وتارة يعلم من جهة حكمته كما قد بسط في غير هذا الموضع والحكمة والعدل والرحمة والعادة تعلم بالعقل كما قد عرف من حكمة الرب وعدله وسنته ويستدل بذلك على العلم والخبر والكتاب كما أن العلم والخبر والكتاب تعلم بأخبار الانبياء ويستدل بذلك على العدل والحكمة والرحمة . والجهمية المجبرة لا تجزم بثبوت ولا انتفاء الا من جهة الخبر أو العادة اذ كانوا لا يثبتون الحكمة والعدل والرحمة

(١) قوله فهذه عشرة أوجه أجملها أولاً فذكر أن في العلم وجهين وفي الارادة وجهين وفي الكلام وجهين وفي الكتابة وجهين ووجها في الرحمة وآخر في العدل ثم أخذ يبين الاربعة الاولى ويشرح الوجهين في كل منها وترك الاخيرين لظهورهما فالجملة عشرة ٥

في الحقيقة كما قد بسط في غير موضع . وحكى عن الجهم انه كان يخرج فينظر الجذمي (١) ثم يقول أرحم الراحمين يفعل هذا يقول انه يفعل لمحض المشيئة ولو كان يفعل بالرحمة لما فعل هذا وهذا من جهله لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة والرحمة والمصلحة والمجبرة المثبتة للقدر متبعون لجهم والقدرية النفاة مناقضون لهم كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع وما زال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله كقول خديجة للنبي ﷺ لما قال لها « لقد خشيت على نفسي فقالت كلا والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » فاستدلت بما فيه من مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال على أن الله لا يخزيه ومنه قوله تعالى [قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افك أثيم] فان الشيطان انما ينزل على ما يناسبه ويطلبه وهو يريد الكذب والاثم فينزل على من يكون كذلك وبسط هذا له موضع آخر . والكلام في النبوة فرع على اثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة ويمتنع فعل ما تنفيه فتقول هو سبحانه وتعالى حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب له فلا يجوز عليه ان يسوى بين جنس الصادق والكاذب والعاقل والظالم والعالم والجاهل والمصلح والمفسد بل يفرق بين هذه الانواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان كما قال تعالى [أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار] وقال [فنجعل المسلمين كالمجرمين] وهذا استفهام انكار على من ظن ذلك وهو يتضمن تقرير مخاطبين واعترافهم بان هذا لا يجوز عليه وان ذلك بين معروف يجب اعترافهم به واقرارهم به كما يقال لمن ادعى امرا ممتنعا مثل نعم كثيرة في موضع صغير فيقال له أهنا كانت هذه النعم أي هذا تمتع فاعترف بالحق واذا ادعى على من هو معروف بالصدق والامانة أنه نقب داره وأخذ ماله قيل له أهذا فعل هذا ومنه قوله [يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله] وقوله تعالى [ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون] ونظائره كثيرة وكذلك قوله [أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا

(١) الجذمي جمع أجذم مثل زمني وقتلي وجرحي

السيئات سواء حييهم ومماتهم سواء ما يحكمون) فان هذا استفهام انكار على من حسب أنه يسوى بين هؤلاء وهؤلاء فبين أن هذا الحساب باطل وأن التسوية ممتنعة في حقه لا يجوز أن يظن به بل من ظن ذلك فقد ظن بربه ظن سوء وذلك ظن أهل الجاهلية الذين يظنون بالله ظن السوء فمن جوز ذلك على الله فقد ظن بربه ظن السوء وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) فسر ه ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى وأنه لا ينصر رسوله فكما أن القدر يجب الايمان به ويعلم أن كل ما كان فقد سبق به علم الرب فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسوله والذين آمنوا وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر فلا يجوز أن لا ينصر رسوله والذين آمنوا ومثله قوله تعالى فيما أزله عام الحديبية لما ظن ظانوا أن الرسول واتباعه لا ينصرون فقال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك ومن ينفي الحكمة يقول يجوز عليه فعل كل شيء وليس عنده ظن سوء بالله وإن قيل لما أخبر أنه ينصره كان ضد ذلك ظن سوء لأن خبره لا يقع بخلاف مخبره قيل عن هذا جوابان أحدهما أن هؤلاء يلزمهم تجويز اخلاف الوعد عليه لأن هذا من باب الافعال المقدورة وهم يجوزون كل مقدور وإذا قيل اخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيء قبيح ينزهون الرب عنه. الثاني أنه إذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضروري فأنما ذلك لانه واقع ولو قدر أن رجلاً ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله مما ليس فيه ذم مثل أن يظن أنه يموت بعد شهر لم يقل ان هذا ظن سوء وإنما يكون ظن سوء إذا كان المظنون عيباً قبيحاً لا يجوز أن يضاف الى المظنون به ومنه قوله تعالى [اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ويظنون بالله الظنون] فهذا ذم لمن ظن بالله الظنون ومن ذلك قوله تعالى [افجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون] وهذا يقتضى أن هذا ممتنع عليه ومن حكم بجوازه فقد حكم حكماً باطلاً جائراً ممتعاً كالذين جوزوا أن تكون له بنات وهم يكرهون أن تكون لهم بنات فيجوز على الله ما هو قبيح عندهم قال تعالى [ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم

بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون] ومما يبين حكمته ان تقول افعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء فانهم يسمون أن الاحكام والاتقان يدل على علم الفاعل وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم وهو من أعظم الادلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها والاحكام والاتقان انما هو ان يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه مثل الذي يخطط قيصا فيجعل الطوق على قدر العنق والكمين على قدر اليدين وكذلك الذي يبني الدار يجعل الحيطان متماثلة ليعتدل السقف والذي يصنع الابريق يوسع ما يدخل منه الماء ويضيق ما يخرج منه وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة قد بهرت العقلاء واعترف بها جميع الطوائف والفلاسفة من أعظم الناس اثباتا لها وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية وان كان فيهم من قصر في أمر الارادة والعلم وكذلك المتكلمون كلهم متفقون على اثبات الحكمة في مخلوقاته وان كانوا في الارادة وفعله لغاية متنازعين وذلك مثلما في خلق الانسان وأدنى ذلك ان العين والفم والاذن فيها مياه ورطوبة فماء العين ملح وماء الفم عذب وماء الاذن مر فان العين شحمة والملوحة تحفظها ان تذوب وهذه ايضا حكمة تملح ماء البحر فان له سببا وحكمة فسببه سبوخة ارضه وملوحتها فهي توجب ملوحة مائه وحكمتها انها تمنع نتن الماء بما يموت فيه من الحيتان العظيمة فانه لولا ملوحة مائه لانتن ولو أنتن لمفسد الهواء للملاقات له فهلك الناس بفساده واذا وقع احيانا قتل خلق كثير فانه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير وماء الاذن مر لينع دخول الهواء الى الاذن وماء الفم عذب لطيب به ما يأكله فلو جعل الله ماء الفم مرا لفسد الطعام على اكلته ولو جعل ماء الاذن عذبا لدخل الذباب في الدماغ ونظائر هذا كثيرة فلا يجوز ان يفعل بخلاف ذلك مثل ان يجعل العينين في القدمين ويجعل الوجه خشنا غليظا كالقدمين فانه كان يفسد مصلحة النظر والمشى بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن في مقدمه ليرى بها ما أمامه فيدري أين يمشى وجعل الرجل خشنا تنصير على ما تلاقيه من التراب وغيره والعين لطيفة يفسدها أدنى شيء فجعل لها أحفانا تغطيها وأهدابا فتقول هذا ومثله من مخلوقات الرب دل على أنه قد أحكم ما خلقه وأتقنه

ووضع كل شيء بالموضع المناسب له وهذا يوجب العلم الضروري انه عالم فيميز بين هذا وبين هذا حتى خص هذا بهذا وهذا بهذا وهو أيضاً يوجب العلم الضروري بانه أراد تخصيص هذا بهذا وهذا بهذا فدل على علمه وإرادته وهذا مما يسمونه فتقول ودل أيضاً على انه جعل هذا لهذا فجعل ماء العين والبحر ملحاً للحكمة المذكورة وجعل العين في أعالي البدن وجعل لها أجفاناً للحكمة المذكورة وكذلك اذا أنزل المطر وقت الحاجة اليه علم أنه أنزله ليحيى به الأرض وكذلك اذا دعاه الناس مضطرين فأنزل المطر علم أنه أنزله ليحيى الأرض لأجابه دعائهم فلا يتصور ان يعلم انه أراد هذا لهذا ولا يتصور الاحكام والاتقان الا اذا فعل هذا للحكمة المطلوبة فكان ما علم من أحكامه واتقانه دليلاً على علمه وعلى حكمته ايضاً وانه يفعل الحكمة والذين استدلوا بالاحكام على علمه ولم يثبتوا الحكمة وانه يفعل هذا لهذا متناقضون عند عامة العقلاء وحنافهم معترفون بتناقضهم فانه لا معنى للاحكام الا الفعل لحكمة مقصودة فاذا انتفت الحكمة ولم يكن فعله لحكمة انتفى الاحكام واذا انتفى الاحكام انتفى دليل العلم واذا كان الاحكام معلوماً بالضرورة ودلالته على العلم معلومة بالضرورة علم ان حكمته ثابتة بالضرورة وهو المطلوب وأيضاً فاذا ثبت انه عالم بنفس العلم يوجب انه لا يفعل قبيحاً ولا يجوز ان يفعل القبيح الامن هو جاهل كما قد بسط في غير هذا الموضع . وبين ان العالم يعلم ما الذي يصلح أن يفعل وان فعل هذا أولى من فعل هذا واذا كان مريداً للفعل وقد علم أن الفعل على هذا الوجه هو الاصلح امتنع أن يريد الوجه الآخر والانسان لا يريد القبيح الا لنقص علمه اما ان يفعل بلا علم بل لمجرد الشهوة أو يظن خطأ فيظن أن هذا الفعل يصلح وهو لا يصلح فانما يقع القبيح في فـاله لفعله مع الجهل البسيط أو المركب والرب منزّه عن هذا وهذا فيمتنع أن يفعل القبيح وأيضاً فانه قد ثبت أنه مريد وان الارادة تخصص المراد عن غيره وهذا انما يكون اذا كان التخصيص لرجحان المراد اما لكونه احب الى المريد وافضل عنده فاما اذا ساوى غيره من كل وجه امتنع ترجيح الارادة له فكان أثبات الارادة مستلزماً اثبات الحكمة والا لم تكن الارادة فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة التي تدل على علمه بالاتفاق وهذه أصول عظيمة من تصورها تصوراً جيداً انكشف له حقائق

هذا الموضع الشريف واذا ثبت أنه حكيم و أن حكمته لازمة لعلمه ولازمة لارادته
وهي لازمة لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته فيمتنع أن يفعل الا لحكمة وبحكمة ويمتنع
أن يفعل على خلاف الحكمة ومعلوم بصريح العقل ان العلم خير من الجهل والصدق
خير من الكذب والعدل خير من الظلم والاصلاح خير من الفساد ولهذا وجب
اتصافه تعالى بالرحمة والعلم والصدق والعدل والاصلاح دون نقيض ذلك وهذا ثابت
في خلقه وأمره فكما انه في خلقه عادل حكيم رحيم فكذلك هو في أمره وما شرعه
من الدين فانه لا يكون الا عدلا وحكمة ورحمة ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة ومن
اتبعهم من أهل الكلام والرأى انه يأمر العباد بما لامصلحة لهم فيه اذا فعلوه وان
ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة وينكرون تعليل الاحكام أو يقولون ان علل
الشرع أمارات محضة فهذا كله باطل كما قد بسط في مواضع بل ما يأمر به مصلحة
لا مفسدة وحسن لا قبيح وخير لا فساد وحكمة وعدل ورحمة والحمد لله رب العالمين
فاذا قدر رجالان ادعى على الرب الرسالة أو توليا على الناس أو كانا من عرض الناس
أحدهما عالم صادق عادل مصلح والآخر جاهل ظالم كاذب مفسد ثم قدر أن ذلك العالم
العادل عوقب في الدنيا والآخرة فاذل في الدنيا وقهر وأهلك وجعل في الآخرة في
جهنم وذلك الظالم الكاذب الجاهل اكرم في الدنيا والآخرة وجعل في الدرجات العلى
كان معلوما بالاضطرار ان هذا نقيض الحكمة والعدل وهو اعظم سفها وظلما من تعذيب
ماء البحر وماء العين فان هذا غاية موت شخص أو النوع وهذا اقل فسادا من اهلاك
حيار الخلق وتعذيبهم واكرام شرار الخلق واهانتهم واذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة
والعدل من غيره وتبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل
علم بالاضطرار أن الرب سبحانه لا يسوى بين هؤلاء وهؤلاء فضلا عن أن يفضل
الاشرار على الاخيار وهو سبحانه أنكر التسوية فقال (أم حسب الذين اجتروا
السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما كانوا يعملون
وقال تعالى (أفجعل المسامين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وقد جعل من جاوز أن الله
لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ويعذبهم في الآخرة في جهنم وان
الفراغة يكرمهم في الدنيا والآخرة والمنازع عنده لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة

الى الرب والى ارادته وحكمته وعلمه بل انما علم وقوع أحدهما بمجرد الخبر لا لامتناع أحدهما ووجوب الآخر والخبر انما هو خبر الانبياء وذلك موقوف على العلم بصدقهم وهو يستلزم صدقهم وعلى أصله يمتنع العلم بصدقهم فانه يجوز أن يسوى الله بين الصادق والكاذب على أصله اذ كان يجوز عليه عند كل مقدور وعنده لا يجوز أن يفعل فعلاً لحكمة فلا يجوز على أصله أن يخلق الله آية ليدل بها على صدقهم واذا قال تجوز ذلك يقتضى انه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق فلذلك منعت من ذلك لانه يفضى الى تعجيره قيل له انما يفضى الى عجزه اذا كان خلق دليل الصدق ممكناً وعلى أصلك لا يمكن اقامة الدليل على امكانه فان الدليل يستلزم المدلول ويمتنع ثبوته مع عدمه وأى شيء قدرته جاز أن يخلقه على أصلك على يد الكاذب وانت لا تنزهه عن فعل ممكن واذا قلت انزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضاً فان فعل الممكن لا يستلزم العجز بل امتناع الممكن يستلزم العجز وبيان ذلك أن يقال ما خلقه على يد الصادق هو قادر على أن يخلقه على يد الكاذب أم لا ((فان قلت)) ليس يقدر فقد أثبت عجزه وان قلت هو قادر على ذلك فالمقدور عندك لا ينزه عن شيء منه وان قلت هذا المقدور انزهه عنه لئلا يلزم عجزه كان حقيقة قولك أثبت عجزه لانفى عجزه فجعلته عاجزاً لئلا تجعله عاجزاً فجمعت بين التقيضين بين اثبات العجز ونفيه وانما لزمه هذا لانه لا ينزه الرب عن فعل مقدور فاستوت المقدورات كلها في الجواز عليه عنده ولم يحكم بثبوت مقدور الا بالعادة أو الخبر والعادة يجوز انتقاضها عنده والخبر موقوف على العلم بصدق الخبر ولا طريق له الى ذلك فتبين أن كل من لم ينزه الرب عن السوء والفسه ويصفه بالحكمة والعدل لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي ولا المعاد ولا صدق الرب في شيء من الاخبار فهذه طريقة من يجعل وجه دلالة المعجز على صدق الانبياء لئلا يلزم العجز واما الطريق الثانية وهي أجود وهي التي اختارها أبو المعالي وأمثاله فهو ان دلالة المعجز على التصديق معلوم بالاضطرار وهذه طريقة صحيحة لمن اعتقد أن يفعل لحكمة وأما اذا قيل انه لا يفعل لحكمة انتفى العلم بالاضطرار والامثلة التي يذكرونها كالمملك الذي جعل آية لرسوله أمراً خارجاً عن عادته انما دلت لاعلم بأن المملك يفعل شيئاً لشيء فاذا نفوا هذا بطلت الدلالة وكذلك دليل القدرة هو دليل صحيح لكن مع اثبات الحكمة فانه سبحانه وتعالى قادر على أن يميز بين الصادق والكاذب اذ

كان قادرا على ان يهدي عباده الى ما هو اذق من هذا فهداهم الى اسهل لكن هذا يستلزم اثبات حكمته ورحمته فن لم يثبت له حكمة ورحمة امتنع عليه العلم بشيء من افعاله الغائبة وايضا فايات الانبياء تصديق بالفعل فهي تدل اذا علم ان من صدقه الرب فهو صادق وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب وعالي اصلهم لا يعلم ذلك فان ما تخلفه من الحروف والاصوات عندهم هو مخلوق من المخلوقات فيجوز ان يتكلم كلاما يدل على شيء وقد أراد به شيئا آخر فان هذا من باب المفعولات عندهم والكلام النفسى لا سبيل لاحد الى العلم به فالى اصلهم يجوز الكذب في الكلام المخلوق العربى وهو الذى يستدل به الناس فلا يبقى طريق الى العلم بأنه صادق فيما يخلفه من الكلام ولهذا تجد حذاقهم في السمعيات أنما يفرون الى ما علم بالاضطرار من قصد الرسول لا الى الاستدلال بالقرآن فالقاضى أبو بكر عمدته ان يقول هذا مما وقفنا عليه الرسول وعلمنا قصده بالاضطرار كما يقول مثل ذلك في تحليد أهل النار وفيما علمه من الاحكام اذ كانوا لا يعتمدون على القول المسموع لا خبرا ولا امرا فهم لا طريق عندهم الى التمييز بين ما يقع وما لا يقع مثل التمييز بين كونه يثيب المحسن ويعاقب المسىء أولا يفعلها ففي الجملة جميع أفعاله من أرسال الانبياء ومجازاة العباد وقيام القيامة لا طريق لهم الى العلم بذلك الا من جهة الخبر وطريق الخبر على أصلهم مسدود وهم يعلمون صدق الرسول وصدق خبره معلوم في انفسهم لكن يناقض أصولهم لكن مع هذا هم واقفة فيما اخبرت به الرسل من الوعيد فضمف علمهم بما اخبرت به الرسل فصاروا في نقص عظيم في علمهم وايمانهم بما اخبرت به الرسل وما امرت به وفي أصل ثبوت الرسالة هذه السمعيات واما العقلية فدارها على حدوث الجسم وقد عرف فساد أصلهم فيها فهذه أصولهم العقلية والسمعية وهم لا يعلمون أيضا ما يتعله الرب من غير الخبر الا من جهة العادة والعادة يجوز عندهم نقضها بلا سبب ولا حكمة ويجوزون ان تصبح الحيات يواقيت والبحار زيبقا فاذا احتجوا بالمعادات فقل لهم عنكم يجوز نقضها بلا سبب ولا حكمة اجابوا بان الشيء قد يعلم جوازه ويعلم بالضرورة انه لا يقع وهذا أيضا جمع بين النقيضين وهم يقولون العقل هو العلم بجواز الجائزات وامتناع الممتنعات ووجوب الواجبات كالعلم بان الجبل لم يتقلب باقوتاشم يجعلون هذا من الجائز

على أصلهم ليس في الأفعال لا واجب ولا ممتنع بل كل مقدور فانه جائز الوجود وجائز العدم لا يعلم أحد الطرفين الا بنجر أو عادة لا بسبب يقتضيه ولا حكمة تستلزمه كما ان المرجح له عندهم مجرد الإرادة لا بسبب ولا حكمة وإذا علم جواز الشيء وعدمه ولم يعلم ما يوجب أحدهما أمتنع ان يعلم بالضرورة ثبوت أحدهما والناس انما يعلمون ان الجبال لم تنقلب يواقيت لعلمهم بان هذا ممتنع وان الله اذا أراد قلبها يواقيت أحدث أسبابا تقتضى ذلك فاما انقلاب العادة بلا سبب فهذا ممتنع عند العقلاء وجميع ما خرق الله به العادة كان لأسباب تقتضيه والحكم فعل لاجلها لم يكن ترجيحاً بلا مرجح كما يقوله هؤلاء فهذا هذا ولا حول ولا قوة الا بالله ولو لم يتعلق هذا بالاثمان بالرسول وبما أخبر به الرسول واحتجنا الى أن نميز بين الصحيح والفساد في الأدلة والاصول لما ورد على ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات لم تكن بنا حاجة الى كشف الاسرار لكن لما تكلموا في اثبات النبوة صاروا يوردون عليها اسئلة في غاية القوة والظهور ولا يحییون عنها الا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم فصار طالب العلم والايمان والهدى من عندهم لا سيما اذا اعتقد أنهم أنصار الاسلام ونظاره والقائمون ببراهينه وأدلتها اذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الانبياء بل وجد يقصد في الانبياء ويورث الشك فيها أو الطعن وانها حجة تقصد في الانبياء وتورث الشك فيها أو الطعن فيها وانها حجة لمكذب الانبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الانبياء فانسد طريق الايمان والعلم وانفتح طريق النفاق والجهل لا سيما على من لم يعرف الا ما قالوه والذي يفهم ما قالوه لا يكون الا فاضلا قد قطع درجة الفقهاء ودرجة من قلده المتكلمين فيصير هؤلاء أمانافقين واماني قلوبهم مرض ويظن الظان أنه ليس في الامر على نبوة الانبياء براهين قطعية ولا يعلم أن هذا انما هو لجهل هؤلاء وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الاستدلال وقدرهم في الالهية وانهم لم ينزهوا الرب عن فعل شيء من الشر ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلا فكان (١) ما جهلوه من آيات الانبياء اذ كان العلم بايات الله وما قصه خلقه من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه وحكمته وحمته وعدله فاذا انتفى اللازم انتفى الملزوم وهم في الاصل انما قصدوا الرد على القدريّة الذين قالوا ان الله لم يشأ كل شيء ولم يخلق أفعال العباد

(١) قوله فكان الخ . كان هنا تامة ولا يصح أن تكون ناقصة

وهو مقصود صحيح لكن ظنوا أن هذا لا يتم الا بمجرد حكمته وعدله ورحمته فغلطوا في ذلك كما ان المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة وظنوا أنه لا تثبت حكمته وعدله ورحمته ان لم يوجد خلقه لكل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويجحد اتصافه بالكلام والارادة وغير ذلك من أقوال المعتزلة التي هي من أقوال هؤلاء فان هؤلاء في الصفات خير من المعتزلة وفي الأفعال من بعض الوجوه ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخي وهو لا يعرف غيره أعرض عنها وذكر انه لما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته وهذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحواً منها ولكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة ونحو ذلك وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس فلم هذا لا يوجد للنبوة عندهم ما يستحقه من التصديق والاحترام ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبرى وهي الانبياء بالغيب وهي خاصة النبوة والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى وليس في واحد من الطريقتين اثبات النبوة التي خص الله بها أنبياءه فان هذا ضعف معرفته هؤلاء بالانبياء وضعف أخذ العلم من طريقهم لا سيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والنوقيات التي من سلكها ضل ضللاً بعيداً وإنما ينجو من سلك منها شيئاً اذا لطف الله فعرفه السلوك خلف طريق الانبياء فمن لم يهتد بما جاءت به الانبياء فهو أبعد الناس عن الهدى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين فبأى حديث بعده يؤمنون) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال ولقد تأملت الطرق السكلامية والمناهج الفلسفية

فما رأيتموها تشفى غليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الايات [اليه يصعد الكلم الطيب الرحمن على العرش استوى] واقرأ في النفي [ليس كمثل شيء ولا يحيطون به علما] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. واكثر الانتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الاخرى لا في معرفة ما جاء به الرسول فليس في طوائف أهل الاهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه فليسوا كفارا جاحدين له وليسوا عارفين به

فلقد عرفت وما عرفت حقيقة ولقد جهلت وما جهلت حولا (١)
وبسط هذه الامور له موضع آخر ولكن نبينا هنا على طريق الحكمة

فصل

واذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين انه انما يرسل من اصطفاة لرسالته واختاره لها كما قال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وكما قال لموسى [وانا اخترتك فاستمع لما يوحى] وانه اذا ابان الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأدام كما مضت به سنته في الرسل قال [كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون] وقال تعالى (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم) وقال تعالى (ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به واننا لنفى شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتنونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم

بآية الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا
سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال الذين كفروا
لرسلم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين
ولانسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب
كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه
الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) الى سائر ما أخبر به من
أحوال الرسل والرسل صادقون مصدقون على الله يخبرون بالحق ويأصرون بالعدل
ويدعون الى عبادة الله وحده لا شريك له وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء
كاذبون تأتيهم الشياطين الكاذبون يأمرون بما نهى الله عنه وينهون عما أمر الله به
فانهم لا بد أن يأمروا بتصديقهم واعتقاد نبوتهم وطاعتهم وذلك مما نهى الله عنه ولا بد
أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم وذلك مما أمر الله به فانه يمتنع في حكمة الرب
وعدله أن يسوى بين هؤلاء خيار الخلق وبين هؤلاء شرار الخلق لا في سلطان العلم
وبراهينه وأدلته ولا في سلطان النصر والتأييد بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات
والبراهين الدالة على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ويبقى لهم سلطان
الصدق ويفعل ذلك بمن اتبعهم وأن يظهر الآيات المينة لكذب أولئك وينزلهم
ويخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء وقد دل القرآن على
الاستدلال بهذا في غير موضع والادلة والبراهين كما تقدم نوعان نوع يدل بمجرد
بحيث يمتنع وجوده غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث فهذا يدل بمجرد
وان قدر أن أحداً لم يقصد الدلالة به لكن الرب بكل شيء عليم وهو صريد لخلق
ما خلقه ولصفاته لكن لا يشترط في الاستدلال بهذا أن يعلم أن دالا قصد أن يدل به .
والنوع الثانى ما هو دليل بقصد الدال وجعله فهذا لولا القصد وجعله دليلا لم يكن دليلا فهو
انما قصد به الدلالة فهذا مقصوده مجرد الدلالة وذلك بمجرد هو الدليل وهذا كالكلام
الذى يدل بقصد المتكلم وغير ذلك مثل الاشارة بالرأس والعين والحاجب واليد
ومثل الكتابة ومثل العقد ومثل الاعلام التى نصبت على الطرق وجعلت علامة على
حدود الارض وغير ذلك ومن ذلك العلامات التى يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله

الى أهله سواء كان قد تواطأ معهم عليها مثل أن يقول علامته أن يضع يده على ترقوته أو يضع خنصره في خنصره ونحو ذلك أو كانت علامة قصد بها الاعلام من غير تقدم مواطاة مثل اعطائه عمامته ونعليه كما أعطى النبي ﷺ عمامته علامة على ولاية قيس ابن سعد وعزل أبيه سعد عن الأمانة يوم الفتح وكما أعطى أبا هريرة علامة علامة على ما أرسله به وكما يعطى الرجل لرسوله خاتمه ونحو ذلك فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلاً فاذا كانت آيات الانبياء من هذا الجنس فهي إنما تدل مع قصد الرب الى جعلها دليلاً وجعلها لها دليلاً بأن يحمل المدلول لازماً لها فكل من ظهرت على يده كان نبياً صادقاً فإن الدليل لا يكون دليلاً الا مع كونه مستلزماً للمدلول فيمتنع أن يكون دليلاً اذا وجد معه عدم المدلول أو وجد ضد المدلول فآيات الانبياء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صدق النبي ووجودها مع مدعى النبوة كاذباً أعظم استحالة فانها اذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صادقة وان لم تكن هناك نبوة كاذبة فع الكاذبة أشد امتناعاً فهي مستلزمة للنبوة لا تكون مع عدم النبوة البتة والكاذب قد عدت في حقه النبوة ووجد في حقه ضدها وهو الكذب في دعواها يمتنع كونه نبياً صادقاً فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الانبياء بدون صدقهم لامتناع وجود الملزوم دون لازمه ومع كذبهم لامتناع وجود الشيء مع ضده والكذب ضد الصدق فيمتنع أن يكون قوله أنا نبي صادقاً وكذباً فاذا استلزمت الصدق امتنع وجود الكذب وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق ممتنع غير مقدور لكن الممكن المقدور ان ما جعله دليلاً على الصدق يخلقه بدون الصدق فيكون قد خلقه وليس بدليل حينئذ ويمكن أن يخلق على يد الكاذب ما يدل أنه دليل على صدقه وليس بدليل مثل خوارق السحرة والكهان كما كان يجري لمسيحة والعيسى وغيرها لكن هذه ليست دليلاً على النبوة لوجودها معتادة لغير الانبياء وليست خارقة لعادة غير الانبياء بل هي معتادة للسحرة والكهان فالتفريط من ظنها دليلاً لا سيما ولا بد أن تكون دليلاً على كذب صاحبها فان الشياطين لا تقرن الا بكاذب كما قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم) ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلاً

لأننبوة مع عدم النبوة كما أنه لا يجوز أن يتكلم بالكلام الذي جعله لبيان معان بدون ارادة تلك المعاني بل ذلك ممتنع من وجوه: من وجه حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه واعلامه وغير ذلك كما قد بسط في مواضع. ومن جهة قدرته أيضاً فإنه قادر على هدى عباده وتعريفهم وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه فاذا ما سوى بين الصادق والكاذب فإنه يمتنع التعريف والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضى خلق الفرق وقد يقال هو قادر لكن لا يفعل مقدوره فيقال فعله له ممكن ولا يمكن الا على هذا الوجه فيكون قادرا على هذا الوجه، فان قيل هو قادر ولكن لا يفعله قيل ان أريد أنه يمتنع فهذا باطل، وان أريد أنه يمكن فعله ولكن لا يفعله لم يكن على هذا النفي دليل بل وجوده يدل على أنه فعله. وأيضاً فافعال الرب اما واجبة واما ممتنعة واذا لم يكن ممتنعا تعين أنه واجب وأنه قد فعله وهذا قد فعله وهذا مبسوط في غير هذا الموضع (والمقصود هنا) أن هذا كله يستلزم أن الرب منزّه عن أن يفعل بعض الامور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته ولكون فعل الشيء لا يكون الا مع لوازمه وانتفاء اضداده فيمتنع فعله بدون لوازمه أو مع ضده كما يمتنع جعل الدليل دليلاً مع وجوده بلا مدلول أو مع وجود ضد المدلول معه والذين قالوا يجوز منه فعل كل شيء ولا ينزه عن شيء يتعذر على أصلهم وجود دليل جعلي قصدي لا الكلام ولا الفاعل فيمتنع على أصلهم كون كلام الرب يدل على مراده أو كون آياته التي قصد بها الدلالة على صدق الانبياء أو غيرهم تدل لانه يقدر أن يفعل ذلك وغير ذلك كما يقدر ان يظهر على يد الكاذب ما أظهره على يد الصادق وهم يقولون المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدى بالمثل وعدم المعارضة؛ وهذا يقدر على اظهاره على يد الصادق فن سوى بين جميع الامور وجعل ارادته لها سواء لم يفرق بين هذا وهذا فقالوا نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب بانه لو فعل ذلك لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات فإنه إنما يستدل على صدقهم بالآيات فلو أظهرها على يد الكاذب لم يبق قادراً هذه عمدة أكثرهم وعليها اعتمد القاضي أبو بكر في كتاب المعجزات فيقال لهم هذا لا يبطل قدرته على ذلك ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب ولم يبين صدقه وهذا مقدور ممكن وكل مقدور ممكن فهو

عندكم جائز عليه فلم يكن اللازم رفع قدرته بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره وهذا جائز عندكم ومما يوضح هذا ان يقال هو قادر على اظهار ذلك على يد الكاذب أم لا فان قاتم ليس بقادر أبطلتم قدرته وان قلتم هو قادر فثبت أنه قادر على اظهار ذلك على يد الصادق والكاذب فبقي مشتركاً لا يخص احدهما فلا يكون حينئذ دليلاً فجرد القدرة لم يوجب اختصاص الصادق به وان قلتم لا يقدر على اظهاره على يد الكاذب فقد رفعتم القدرة؛ فانتم بين أمرين ان أثبتتم القدرة العامة فلا اختصاص لها وان نفيت القدرة على أحدهما بطل استدلالكم بشمول القدرة وأيضاً فالقدرة انما تكون على ممكن وعلى أصلكم لا يمكن تصديق الصادق فهم استدلو بمقدمتين وكلاهما باطلة قالوا لو لم يكن دليلاً رفع القدرة وهذا باطل بل يلزم انه لم يفعل المقدور وهذا جائز عندهم فلا يجب عندهم شيء من الأفعال ثم قالوا وهو قادر على ذلك وعلى أصلهم ليس هو بقادر على ذلك فانهم قالوا يمكنه تصديق الانبياء بالفعل كما يمكنه التصديق بالقول فيقال لهم كلاهما يدل بالقصد والجعل وهذا انما يكون ممن يقصد ان يفعل الشيء ليدل وعندكم هو لا يفعل شيئاً لشيء فيلزم على أصلكم ان لا يفعل شيئاً لاجل انه يدل به عباده لأفعلا ولا كلاما اذ كان هذا عندهم متمنعا وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله؛ واذا كان هذا متمنعا عندهم لم يكن مقدورا فلا يقدر على أصلكم ان ينصب لعباده دليلاً ليدلهم به على شيء؛ بل هذا عندهم فعل لغرض وهو متمنع عليه وان قلتم هو وان لم يقصد ان يفعل شيئاً لحكمة لكن قد يفعل الشيثين المتلازمين فيستدل باحدهما على الآخر قيل هذا انما يكون بعد ان يثبت التلازم، وان أحدهما مستلزم للآخر وهذا معلوم فيما يدل بمجرد وجوده فانه يتمنع وجوده بدون لازمه أما ما يدل بالجعل والقصد فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولاً له واللازم انما يكون بالقصد وهو عندكم يتمنع ان يفعل شيئاً لاجل شيء فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم وهي أخص بالدلالة من غيرها؛ ولهذا لا يكادون يستدلون بكلام الله بل يعتمدون في السمعيات اما على ما علم بالضرورة أو الاجماع؛ وحقيقة الامر ان الأدلة الجعلية القصدية لا بد فيها من ارادة الرب ومشيئته ان تكون أدلة فلا بد ان يريد ان يجعل هذا الفعل ليدل وهم لا يجوزون ان يريد شيئاً لشيء؛ بل كل مخلوق هو عندهم مراد من نفسه لم يرد غيره، فامتنع ان يكون يريد الرب جعل شيء دليلاً على أصلهم

فحين انهم على أصلهم غير قادر على نصب ما يقصد به دلالة العباد وهدايتهم واعلامهم
 لا قول ولا فعل فبطلت المقدمة الكبرى وبتقدير ان يكون قادرا على ذلك فهو اذا
 أظهر على يد الكاذب ما يظهر على يد الصادق كان لم يفعل هذا المقدور ولم يجعل
 ذلك دليلا على الصدق لا يلزم ان لا يكون قادرا فهم اعتمدوا على هذه الحجة وقالوا
 هذا هذا وهذا هذا، فقد تبين ان من لم يثبت حكمة الرب يلزمه نفي ارادته ومشيتته
 كما تقدم، ويلزمه أيضا نفي قدرته على ان يفعل شيئا لشيء فلا يمكنه ان ينصب دليلا
 ليبدل به عبادته على صدق صادق ولا كذب كاذب؛ وهم يقولون من فعل شيئا لحكمة دليل
 على حاجته ونقصه لانه فعل لغرض والغرض هو الشهوة وذلك يتضمن الحاجة وهذا بعينه يقال
 في الارادة ان من أراد فانما يريد لغرض وشهوة فقولهم بنفي الحكمة يتضمن نفي
 الارادة ونفي القدرة وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين ان من نفي الحكمة يلزمه نفي
 الارادة ومن نفي الارادة يلزمه نفي فعل الرب ونفي الاحداث ومن نفي ذلك يلزمه
 امتناع حدوث حادث في الوجود وان اثبات الحكمة لازم لكل طائفة على اى قول
 قالوه كما قد بسط في غير هذا الموضع اذ المقصود التنبيه على ان اثبات آيات الانبياء
 والاستدلال بكلام الله وآياته التي أراد ان يدل بها عبادته بدون اثبات حكمته ممتنع،
 ولهذا اضطرب كلام من نفي حكمته في آيات الانبياء، وفي كلام الرب سبحانه وهي
 الآيات التي بعثت بها الانبياء القولية والفعلية واضطربوا في الاستدلال على ما جاءت
 به الانبياء كما قد نبه عليه، والله سبحانه وتعالى اعلم

فصل

واما الاستدلال بسنته وعادته فهو أيضا طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق وهم
 متفقون عليه من يقول بالحكمة ومن يقول بمجرد المشيئة فانه قد علم عادته سبحانه
 في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والاعوام وعادته في خلق الانسان
 وغيره من المخلوقات وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والاغذية والادوية
 لغات الامم كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه والعلم بالطب وغير ذلك كذلك سنته
 على في الانبياء الصادقين واتباعهم وفيمن كذبهم أو كذب عليهم فاولئك ينصرهم

ويعزهم ويجعل لهم العاقبة المحموده والآخرون يهلكهم وينذهم ويجعل لهم العاقبة المذمومة كما فعل بقوم نوح وبعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش ومن سائر العرب وسائر الأمم غير العرب وكما فعل من نصر أنبياءه وأتباعهم قال تعالى [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون] وقال (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وقال تعالى (تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيي) وقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير) وقال تعالى (أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون] وقال تعالى [أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الارض فخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بانهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فخذهم الله انه قوى شديد العقاب] وقال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فخذتهم فكيف كان عقاب) وقال تعالى [أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرجوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون] وقال تعالى [ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل وان تجد لسنة الله تبديلاً] وقال تعالى (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى

الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا في الارض ومكر السيء ولا يحق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقال تعالى (وان كانوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافا لك الا قليلا) وقال تعالى (وان كانوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لا اتخذوك خليلا ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً [وقد قيل آية الحاقة وآية الشورى تبين أنه لو افترى عليه لعاقبه بهذه سنته في الكاذبين وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى [قد كان نكص آية في قنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار] وقال تعالى [هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار] وقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب) وانما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الاصابع هن سواء واعتبروها بدياة الانسان فاذا عرفت قصص الانبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وان متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمسكنيهم الهلاك والوار جعل الامر في المستقبل مثلما كان في الماضي فعلم أن من صدقهم كان سعيداً ومن كذبهم كان شقياً وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وانه لا ينقضها ولا يبدلها [اكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر] يقول فاذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال (أم لكم براءة في الزبر) أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم فنفي الدليلين العقلي والسمعي ثم ذكر قولهم نحن جميع منتصر وانا نغلب من يغالبنا فقال تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر) وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الاسلام واستبعاد عامة الناس ذلك ثم كان كما أخبر وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته (أم حسبكم

[م ٣٢ — النبوات]

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزالوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب [وقال لمحمد] ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك [وقال] كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون [وقال تعالى] (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال نعم «وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليأخذن أمتي ما أخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع» قالوا يا رسول الله فارس والروم قال ومن الناس إلا هؤلاء «وفي السنن لما قال له بعض أصحابه «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آله ثم قال انه السنن لتركبن سنن من كان قبلكم» وقال تعالى [قد خلت من قبلكم سنن فسيراً في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين] ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل كقول شعيب [يا قوم لا يحرمكم شقاقى أن يصيكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد] وقال مؤمن آل فرعون (يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظالماً للعباد) وقال تعالى [كدأب آل فرعون والذين من قبلهم] والدأب العادة في ثلاثة مواضع قال تعالى (ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) قال ابن قتيبة وغيره الدأب العادة ومعناه كعادة آل فرعون يريد انهم اليهود (١) كل فريق بنبيهم وقال الزجاج هو

[١] قوله كفر اليهود خطأ من الناسخ ومعناه غير صحيح لان كفر اليهود لما

كان بعد هلاك آل فرعون بمصر وقيام دولتهم بفلسطين بعد وفاة موسى عليه السلام ولعل أصل الصواب في العبارة كان هكذا كعادة آل فرعون والذين من قبلهم يريد كفر الأمم السابقة كل فريق الخ

الاجتهاد معناه أى دأب هؤلاء وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى . وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون وقال طائفة نظم الآية ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النعمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الحالية أخذناهم فلن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم . وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب آل فرعون قال كصنيع آل فرعون قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة نحو ذلك قال وروى عن الربيع بن أنس كسبه آل فرعون وعن السدي قال ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود ﴿ قلت ﴾ هؤلاء جملوا الشبيه في العمل فان لفظ الدأب يدل عليه قال الجوهري دأب فلان في عمله أى جدد وتعب دأبا ودؤوبا فهو دأب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار قال والدأب يعنى بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك قال الفراء أصله من دأبت الآن العرب حولت معناه الى الشأن قلت الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذى هو الاجتهاد والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك اذ ازداد اللفظ زاد المعنى والذى في القرآن مسكن ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك وهذا معروف في اللغة يقال فلان دأبه كذا وكذا أى هذا بعادته وعمله الملازم له وان لم يكن في ذلك تعب واجتهاد ومنه قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان ومنه اللازب والملازم قال ابن عطية دائبين أى متماديين ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذى بكى واجهش اليه « ان هذا الجمل شكى الى أنك تجميعه وتدأبه » أى تديمه في العمل له والخدمة قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التى لا تحصى كثيرة قال وحكى الطبرى عن مقاتل بن حيان يرفعه الى ابن عباس أنه قال معناه دائبين في طاعة الله قال وهذا قول ان كان يراد به أن الطاعة انقيادها للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله وسخر وان كان يراد أنها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد قلت ليس هذا بعيد بل عليه دلت الادلة الكثيرة كما هو مذكور في

مواضع وقالت طائفة منهم البغوى وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود الى مصالح عباد الله لا يفتران . قال ابن عباس مؤوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج دائبين في اصلاح ما يصاحبه من النبات وغيره لا يفتران قال ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه قلت واذا كان دأبهم هو عاداتهم وعملهم الذى كانوا مصرين عليه فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحقق بهم ما حاق بأولئك هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله [ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب] أى هؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله اذ جاءهم كدأب آل فرعون وكذلك قوله [ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد] الى قوله (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم واغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) فهذا كله يقتضى التشبيه في العذاب وأما الطائفة الاخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم قال مكى بن أبى طالب الكاف في كدأب في مواضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ومثلها الآية الاولى الا أن الاولى للعادة في العذاب تقديره فعلناهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج كدأب آل فرعون أى كعادتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قلت الدأب العادة وهو مصدر يضاف الى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى فاذا أضيف الى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون واذا أضيف الى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التى نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم والتحقيق ان اللفظ يتناول الامرين جميعاً وقد تقدم عن الفراء والجوهري ان الدأب العادة والشأن وهذا كقوله (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) روى ابن أبى حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد قد خلت من قبلكم سنن من الكفار والمؤمنين في الخير والشر وعن أبى اسحاق أى قد مضت

منى وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلى والشركى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب
مدین فروا مثلات قد مضت منى فيهم فقد فسرت السنن بأعمالهم وبجزائهم قال البغوى معنى
الآية قد مضت وسافت منى فيمن كان قبلكم من الامم الماضية الكافرة بامهم الى
واستدراجى اياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلى الذى أحبلته لاهلاكهم وادالة أنبيائى
فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أى آخر المكذبين منهم قال
وهذا في حزب واحد يقول فانا أمهم واستدرجهم حتى يبلغ اجلى الذى أحبلت
من نصرة النبى وأوليائه وهلاك أعدائه قلت ونظير هذا قوله تعالى (أولم يسيروا
في الارض فتكون لهم قلوب يسمعون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار
ولكن تعمى القلوب التى في الصدور) وقوله (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها
وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون) وقوله في الآية الاخرى
[كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما
جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما
رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم
إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون]
فهذا كله يبين ان سنة الله وعادته مطرده لا تلتقض في اكرام مصدق الرسل
واهانة مكذبيهم

فصل

آيات الانبياء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة وصدق الخبر بها والشاهد
بها فيلزم من وجودها وجود النبوة وصدق الخبر بها ويمتنع ان تكون مع التكذيب
بها وكذب الخبر بها فلا يجوز وجودها لمن كذب الانبياء ولا لمن أقر بنبوة كذاب
سواء كان هو نفسه المدعى للنبوة أو ادعى نبوة غيره وهذان الصنفان هما المذكوران
في قوله [ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي الى ولم يوح اليه شيء]
وهو قال (سأزل مثل ما أزل الله هؤلاء كاهن من اظلم الكاذبين) كما قال (فمن اظلم

من كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين [ثم قال
والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون] فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو
لذى جاء بالصدق وصدق به والمخبر بها مع انتفاءها هو الذى كذب على الله والمكذب
بها مع ثبوتها هو الذى كذب بالحق لما جاءه فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من
اثبت نبوة هي نبوة حق يتمتع ان تكون لمن نفي هذه أو اثبت نبوة ليست بنبوة
وكذلك كل دليل دل على اثبات الصانع دل على صدق المؤمنين به المخبرين بما دل عليه
الدليل وعلى كذب من نفي ذلك ويمتنع ان تكون تلك الأدلة دالة على نفي ذلك أو
على صدق الخبر بنفي ذلك أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة غيره وما دل
على ان هذه الدار ملك لزيد يدل على صدق المخبر بذلك وكذب النافي له ويمتنع
ان يدل مع انتفاء الملك وما دل على علم شخص وعدله فانه مستلزم لذلك ولصدق
المخبر به وكذلك النافي له يتمتع ان يدل على صدق النافي أو يدل مع انتفاء العلم والعدل
فان ما استلزم ثبوت شيء وصدقه استلزم كذب نقيضه وكان عدم اللازم مستلزماً
لعدم الملزوم فما كان مستلزماً لثبوت النبوة وصدق المخبر بها كان مستلزماً لكذب من
نفاها فامتنع ان يكون موجوداً مع من نفاها وامتنع ان يكون موجوداً مع انتفاءها
فان ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين فالدليل كل مدلول عليه يتمتع بثبوتها مع عدم المدلول عليه
فانه مستلزم لثبوتها فلو وجد مع عدمه للزم الجمع بين النقيضين فما كان دليلاً على نبوة شخص
فهو دليل على جنس النبوة فان نبوة الشخص لا تثبت الا مع ثبوت جنس النبوة فيمتنع وجود
ذلك الدليل مع عدم النبوة وثبوت أحد النقيضين مستلزم لنفي الآخر فثبوت صدق المخبر
بثبوتها مستلزم لكذب المخبر بانتفاءها فهذا امر عقلى مقطوع به معلوم بالبديهة بعد تصوره
في جميع الأدلة أدلة النبوة وغيرها فلا يجوز ان يكون ما دل على النبوة وعلى صدق
المخبر بها وكذب المكذب بها دليلاً للمكذب بها ولا دليلاً مع انتفاءها كالمتنبي الذى
يدعى النبوة ولا نبوة معه فلا يتصور ان يكون معه ولا مع المصدق بنبوته شيء من
دلائل النبوة واما كون دليل من دلائل النبوة مع المصدق بها كائناً
من كان فهذا حق بل هذا هو الواجب فمن صدق بها بلا دليل كان متكلماً
بلا علم فكل من صدق بالنبوة بعلم فعه دليل من أدلتها واخبار أهل التواتر

بما جاءت به الانبياء من الآيات هو من أدلة ثبوتها فكل من آمن بالرسول عن بصيرة فلا بد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق اما علم ضروري أو علم نظري بدليل من الأدلة والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية وقد تكون في نفس الامر علوم ضرورية ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها كالذي يجده الانسان في نفسه ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية وغير ذلك فان كثيراً من الناس لا يمكنهم بيان الأدلة لنيرهم على وجود ذلك عندهم وإذا عرف هذا فقولنا دلائل النبوة مختصة بالانبياء لا تكون لغيرهم له معنيان: أحدهما أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم ولا من يدعى نبوة كاذبة وهذا ظاهر بين فان الدليل على الشيء لا يكون دليلاً على وجوده وعلى عدمه فلا يكون ما يدل على النبوة أو غيرها وعلى صدق الخبر بذلك دليلاً على كذب الخبر بذلك ولا دليلاً على النبوة مع انتفاء النبوة والمعنى الثاني أنها لا توجد الامع النبي فهذا ان أريد به أنها لا توجد الا والنبوة ثابتة فهو صحيح وان كانت مع ذلك دليلاً على نبي فلا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلاً على أمور كثيرة لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله فادل على النبوة قديداً على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة أى مع كون النبوة المدلول عليها باطله لا حقيقة لها ولكن قديداً مع موت النبي ومع غيبته فان موته وغيبته لا ينفي نبوته وليس من شرط دليل النبي أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه ولا في مكانه ولا زمانه وقول من اشترط في آيات الانبياء أن تكون مقترنة بالدعوى في غاية الفساد والتناقض كما قد بسط لاسيما والآيات قد تكون مخلوقة نائية عن النبي وعن مكانه وكذلك سائر الأدلة لاسيما ما يجري مجرى الخبر فالأخبار الدالة على وجود الخبر به لا يجب أن تكون مقارنة للمخبر به لافي محله ولا زمانه ولا مكانه وآيات الانبياء هي شهادة من الله وأخبار منه بنبوتهم فلا تجب ان تكون في محل النبوة ولا زمانها ولا مكانها لكن يجوز ذلك فلا يمتنع ان يكون الدليل في محل المدلول عليه أو في زمانه أو في مكانه لكن يجوز ذلك فيه فالانسان قد تقوم به أمور تدل على بعض الامور التي فيه وقد تعلم أموره بخبر غيره وبعض آثاره المنفصلة عنه فاذا اريد بان آيات الانبياء مختصة بهم وأنهم لا تكون لغيرهم أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها فهذا صحيح لانه يستلزم الجمع بين النقيضين وأما اذا أريد أنها لا توجد الا في ذات النبي أو مقترنة بخبره عن نبوته أو

في المكان الذي كان فيه أو في الزمان فهذا كله غلط وخطأ ممن ظنه وجهل بين بحقائق الأدلة وان كان من الأدلة وآيات النبوة ما يكون في ذات النبي ويكون مقترنا بقوله أني رسول الله ويكون في المكان الذي هو فيه وفي زمانه فهذا يمكن وهو الواقع [١] فإن النبي ﷺ بل وغيره من الانبياء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم وسيرهم أمور كثيرة تدل على نبوتهم وكذلك لما قال أني رسول الله أتى مع ذلك بآيات دلت على صدقه وكذلك في مكانه وزمانه ظهر من انشقاق القمر وغيره ما دل على نبوته لكن آيات الانبياء أعم من ذلك كما ان دليل كل شيء اعم من ان يختص بمعنى المدلول (٢) وزمانه ومكانه وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس في عدم معرفتهم بجنس آيات الانبياء لعدم تحقيقهم جنس الأدلة والبراهين وان خاصة الدليل انه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط سواء كان مقارنا للمدلول عليه أو كان حالا في محله أو مجاوزا لمحله أو لم يكن كذلك والنبوة قد قال طائفة من الناس انها صفة في النبي وقال طائفة ليست صفة ثبوتية في النبي بل هي مجرد تعلق الخطاب الالهي به يقول الرب أني ارسلتك فهي عندهم صفة اضافية كما يقولونه في الاحكام الشرعية انها صفات اضافية للافعال لصفات حقيقية والصحيح ان النبوة تجمع هذا وهذا فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي وصفة اضافية هي مجرد تعلق الخطاب الالهي به يقول الرب أني ارسلتك فهي عندهم صفة اضافية كما يقولونه في الاحكام الشرعية انها صفات اضافية للافعال لصفات حقيقية لكن على الاقوال الثلاثة (٣)

- [١] قوله الواقع يتعين ذلك ليكون الخبر نكرة أما اذا كان معرفة والمبتدأ كذلك معرفة كانت الجملة معرفة الطرف في فتفيد الحصر وهو باطل هنا ينقض ما قرره كما ترى
- (٢) قوله بمعنى المدلول المراد بالعموم العموم المعنى المقارن لا العموم البدلي والا فسدت دلالة وبطل كونه دليلا ومعنى ذلك ان دليل الشيء يجوز ان يدل على شيء آخر معه ولا يجب ان يكون بحيث لا يدل على شيء اصلا الا عليه بل دليل الشيء قد يدل على شيئين أو أكثر دلالة صاحبة ومقارنة لا دلالة بدلي والا لما كان دليلا فتدبر
- [٣] قوله لكن على الاقوال الثلاثة (١) لم يذكر الا قولين فقط فاعمل الثالث

ليس من شرط أدلتها ان تكون حالة في ذات النبي ولكن يجوز أن تكون لها أدلة قائمة بذات النبي كما كان في محمد ﷺ عدة أدلة من دلائل النبوة كما هو مبسوط في دلائل نبوته اذ المقصود هنا الكلام على جنس آيات الانبياء لا على شيء معين لا دليل معين ولا نبي معين فاذا عرف ان دلائل النبوة يمتنع ثبوتها لشخص لا نبوة فيه اذا ادعاها أو ادعيت له كذبا ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة وانها لا توجد الا والنبوة ثابتة وانها دليل على صدق الخبر بالنبوة من جميع الخلق فكل من آمن ان محمداً رسول الله فقد اخبر عن نبوته كما اخبر هو عن نبوة نفسه بما أمره الله به حيث قال (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) فهذا الخبر وهو الشهادة بانه رسول الله الى الناس جميعاً سواء وجد منه أو من غيره هو مدلول عليه لجميع دلائل النبوة فاذا وجد هذا الخبر في غير النبي ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر كان ذلك من دلائل النبوة كما وجد هذا في خلق كثير من المؤمنين ومن دلائل النبوة وجود العلم الضروري بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات فهذا العلم الضروري هو بمنزلة المشاهدة للآيات وكذلك ما يوجد لاهل الايمان مما يستلزم صدق خبرهم ببيان محمداً رسول كما يوجد لامته من الآيات الكثيرة عند تحقيق أمره ونصره وطاقته والجهاد عن دينه والذب عنه وبيان ما أرسل به كما وجد امثال ذلك للصحابة والتابعين وسائر المؤمنين الى يوم القيامة

فصل

جميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة فوجود ذلك يدل على ان صاحبه ليس بنبي ويمتنع ان يكون شيء من ذلك دليلاً على النبوة فان ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسمة وعبادة الكواكب ومخاطبتها كل ذلك مناقض للنبوة فان النبي لا يكون الا مؤمناً وهؤلاء كفار فوجود ما يناقض الايمان هو مناقض للنبوة بطريق الاولى وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة فيمتنع ان يكون دليلاً على وجودها وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي لا يخرج عن مقدور الانس والجن واعنى بالمقدور ما يمكنهم التوصل [م ٣٣ — النبوات]

عليه بطريق من الطرق فان من الناس من يقول ان المقدور لا بد ان يكون في محل المقدرة وليس هذا هو لغة العرب ولا غيرهم من الامم لا لغة القرآن والحديث ولا غيرها وانما يدعون ذلك من جهة العقل وقولهم في ذلك باطل من جهة العقل لكن المقصود هنا التكلم باللغة المعروفة لغة العرب وغيرهم التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره يخاطب بها الناس كقوله في الحديث الصحيح لابي مسعود لما ضرب غلامه «اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك على هذا» فجعل نفس المملوك مقدورا عليه لسيده كما يقول الناس القوة على الضعيف ضعف في القوة ويقولون فلان قادر على فلان وفلان عاجز عن فلان ويقولون فلان ناسج هذا الثوب وبنى هذه الدار ومنه قوله تعالى [ويصنع الفلك] فجعل الفلك مصنوعة لنوح ومنه قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) أي والاصنام التي تعملونها وتحتونها فجعل ما في الاصنام من التأليف معمولا لهم كما جعل تأليف السفينة مصنوعا لهم وهذا كثير (والمقصود هنا) أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم هو مما يصنعه الانس والجن لا يخرج ذلك عنهم والانس والجن قد أرسلت اليهم الرسل فأيات الانبياء خارجة عن قدرة الانس والجن لا يقدر عليها لا الانس ولا الجن والله الحمد والمنة، ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الانس لكن يختلف في المواضع فان الانسى يقدر على ان يضرب غيره حتى يمرض أو يموت بل يقدر ان يكلمه بكلام يمرض به أو يموت فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت هو من مقدور الجن وهو من جنس مقدور الانس ومنعه من الجماع هو من جنس المرض امانع له من ذلك والحب والبغض لبعض الناس كما يفعله الساحر هو من استعاضته بالشياطين وهو من جنس مقدور الانس بل شياطين الانس قد يؤثرون من البغض والحب اعظم مما تؤثره شياطين الجن والجن تقدر على الطيران في الهواء وهو من الاعمال والطيور تطير فهو من جنس مقدور الانس لكن يختلف المحل بأن هؤلاء سيرهم في الهواء والانس سيرهم على الارض وكذلك المشى على الماء وطى الارض وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب هو من هذا الجنس هو مما تفعله الجن وهو مما تفعله الجن ببعض الناس وقد اخبر الله عن العفريت انه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام) أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ولهذا

يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء وتمشي بهم على الماء وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة وليس شيء من ذلك من آيات الانبياء ولله الحمد والمنة اذ كان مقدور الانس والجن والاخبار ببعض الامور الغائبة التي يأتي بها الكهان هو أيضاً من مقدور الجن فانهم تارة يرون الغائب فيخبرون به وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك كما اخبر النبي ﷺ عنهم وما تخبر به الانبياء من الغيب لا يقدر عليه انس ولا جن ولا كذب فيه واخبار الكهان وغيرهم كذبها اكثر من صدقها وكذلك كل من تعود الاخبار عن الغائب فاخبار الجن لا بد ان تكذب فانه من طلب منهم الاخبار بالمغيب كان من جنس الكهان وكذبوه في بعض ما يخبرون به وان كانوا صادقين في البعض وقد ثبت في الصحيح «ان النبي ﷺ سئل عن الكهان ف قيل له ان منا قوماً يأتون الكهان قال فلا يأتوهم» وثبت عنه في الصحيح انه قال «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً» وفي السنن عنه انه قال «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» والنبي ﷺ لما اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى لم يكن المقصود مجرد وصوله الى الأقصى بل المقصود ما ذكره الله بقوله (لنريه من آياتنا) كما قال في سورة النجم [ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصروما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى] وما رآه مختص بالانبياء لا يكون ذلك لمن خالفهم ولا يريه الله تعالى ما أراه محمداً حين أسرى به وكذلك صلاته بالانبياء في المسجد الأقصى وركوبه على البراق هذا كله من خصائص الانبياء والذين تحملهم الجن وتطيرهم من مكان الى مكان أكثرهم لا يدري كيف حمل بل يحمل الرجل الى عرفات ويرجع وما يدري كيف حملته الشياطين ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به كما أمر الله به بل قديق بعرفات من غير احرام ولا اتمام مناسك الحج وقد يذهبون به الى مكة ويطوف بالبيت من غير احرام اذا حاذى الميقات وذلك واجب في أحد قولى العلماء ومستحب في الآخر فيفوته المشروع أو يوقعونه في الذنب ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين وليس هو مما يكرم الله به وليه بل هو مما أخلته به الشياطين وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة

وليس هو قربة وطاعة وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله فان التقرب الى الله انما يكون بواجب أو مستحب وهذا ليس بواجب ولا مستحب بل يضلون صاحبه ويصدونه عن تكميل ما يحبه الله منه من عبادته وطاعته وطاعة رسوله ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات حتى يبقى طالبا له عاملا عليه وهم بسبب اعانتهم له على ذلك قد استعملوه في بعض ما يريدون مما ينقص قدره عند الله أو وقوعه في ذنوب وان لم يعرف أنها ذنوب فيكون ضالا ناقصا وان غفر له ذلك لعدم علمه فانه نقص درجته وخفض منزلته بذلك الذي أوهموه أنه رفع درجته وأعلى منزلته وهذا من جنس ما تفعله السحرة فان الساحر قد يصعد في الهواء والناس ينظرونه وقد يركب شيئا من الجمادات اما قصبة واما خابية واما مكنسة واما غير ذلك فيصعد به في الهواء وذلك أن الشياطين تحمله وتفعل الشياطين هذا ونحوه بكثير من العباد والضلال من عباد المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين فيحملهم من مكان الى مكان وقد يرى أحدهم بما يركبه اما فرس واما غيره وهو شيطان تصور له في صورة مركوب وقد يرى أنه يمشى في الهواء من غير مركوب والشيطان قدحملة والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب ونحن نعرف من هذا أمورا يطول وصفها وكذلك المشى على الماء قد يجعل له الجن ما يمشى عليه وهو يظن أنه يمشى على الماء وقد يخيلون اليه أنه التقى طرفا للنهر ليعبر والنهر لم يتغير في نفسه ولكن خيلوا اليه ذلك وليس في هذا ولله الحمد شيء من جنس معجزات الانبياء وقد يمشى على الماء قوم بتأييد الله لهم واعانتهم اياهم بالملائكة كما يحكى عن المسيح وكما جرى للعلاء بن الحضرمي ولأبي مسلم الخولاني في عبور الجيش وذلك اعانة على الجهاد في سبيل الله كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة ليس هو من فعل الشياطين والفرق بينهما من جهة السبب ومن جهة الغاية أما السبب فان الصالحين يسمون الله ويدكرونه ويفعلون ما يحبه الله من توحيده وطاعته فيسرلهم بذلك ما يسره ومقصودهم به نصر الدين والاحسان الى المحتاجين وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور والمقصود به الاعانة على مثل ذلك والجن فيهم مسلم وكافر فالمسلمون منهم يعاونون الانس المسلمين كما يعاون المسلمون بعضهم بعضا والكفار مع الكفار والجن الذين يعطون الانس وتستخدمهم الانس ثلاثة أصناف أعلاها أن يأمرهم بما أمر الله به

ورسله فيأمرهم بعبادة الله وحده وطاعة رسله فان الله أوجب على الجن طاعة الرسل كما أجب ذلك على الانس وقال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمع بعضنا لبعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) فالرسل تكون من الانس الى الثقيلين والنذر من الجن باتفاق العلماء واختلفوا هل يكون في الجن رسل والا كثرون على أنه لا رسل فيهم كما قال تعالى [وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى] وعن الحسن البصري قال لم يبعث الله نبيا من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء ذكره عنه طائفة منهم بغوى وابن الجوزي وقال قتادة ما نعلم ان الله ارسل رسولا قط الا من أهل القرى لانهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور رواه ابن أبي حاتم وذكره طائفة من ونبينا محمد ﷺ قد أرسل الى الثقيلين وقد آمن به من آمن من جن نصيبين فسمعوا القرآن وولوا الى قومهم منذرين ثم أتوا فبايعوه على الاسلام بشعب معروف بمكة بين الابطاح وبين جبل حراء وسألوه الطعام لهم ولدوابهم فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم قال النبي ﷺ فلا تستنجوا بها فانها زاد اخوانكم من الجن والاحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها وقد روى الترمذى وغيره أنه قرأ عليهم سورة الرحمن وهي خطاب للثقيلين وقد اتفق العلماء على ان كفارهم يدخلون النار كما أخبر الله بذلك في قوله [قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لغنت أختها] وقال الله تعالى (لا ملأن جہنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقال (لا ملأن جہنم من الجنة والناس أجمعين) وأما مؤمنوهم فأكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة وقال طائفة بل يصيرون ترابا كالدواب والاول أصح وهو قول الاوزاعي وابن أبي ليلى وأبي يوسف ومحمد ونقل ذلك عن مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وهو قول أصحابهم

واحتج عليه الاوزاعي وغيره بقوله ولكل درجات مما عملوا بعد ذكره أهل الجنة وأهل النار من الجن والانس كما قال في سورة الانعام وفي الاحقاف ولكل درجات مما عملوا بعد ذكر أهل الجنة والنار قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم درجات أهل النار تذهب سفولا ودرجات أهل الجنة تذهب صعودا فبيننا عليه السلام هو مع الجن كما هو مع الانس والانس معه اما مؤمن به واما مسلم له واما مسلم له واما خائف منه كذلك الجن منهم المؤمن به ومنهم المسلم له مع نفاق ومنهم المعاهد المسلم للمؤمن الجن ومنهم الحربى الخائف من المؤمنين وكان هذا أفضل مما أوتي سليمان فان الله سخر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك فان سليمان كان نبيا ملكا مثل داود ويوسف وأما محمد فهو عبد رسول مثل ابراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء أفضل من أولئك فأولياء الله المتبعون لحمد انما يستخدمون الجن كما يستخدمون الانس في عبادة الله وطاعته كما كان محمد عليه السلام يستعمل الانس والجن لافي غرض له غير ذلك ومن الناس من يستخدم من يستخدمه من الانس في أمور مباحة كذلك فيهم من يستخدم الجن في أمور مباحة لكن هؤلاء لا يخدمهم الانس والجن الا بعوض مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم أو يعينونهم على بعض مقاصدهم والا فليس أحد من الانس والجن يفعل شيئا الا لغرض والانس والجن اذا خدموا الرجل الصالح في بعض أغراضه المباحة فاما أن يكونوا مخلصين يطلبون الاجر من الله والا طلبوه منه اما دعاءه لهم واما نفعه لهم بجاهه أو غير ذلك (والقسم الثالث) أن يستخدم الجن في أمور محظورة أو بأسباب محظورة مثل قتل نفس وامراضها بغير حق ومثل منع شخص من الوطء ومثل تبغيض شخص الى شخص ومثل جلب من يهواه الشخص اليه فهذا من السحر وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر بل يكون موافقا للشياطين على بعض أغراضهم مثل شرك أو بدعة وضلالة أو ظلم أو فاحشة فيخدمونه ليفعل ما يهوونه وهذا كثير في عباد المشركين وأهل الكتاب وأهل الضلال من المسلمين وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الشياطين بل يظنه من كرامات الصالحين ومنهم من يعرف أنه من الشياطين ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة ونيل ما يشتهي من الرياسة والشهوات وقتل عدوه فيدخل في ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة كما أن الهير كانت تطيعه والريح قال

تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادي الشكور) والجن والانس فيهم المؤمن المطيع والمسلم الجاهل أو المنافق أو العاصي وفيهم الكافر وكل ضرب يميل الى بنى جنسه والذي أعطاه الله تعالى لسليمان حارج عن قدرة الجن والانس فانه لا يستطيع أحدا أن يسخر الجن مطلقاً لطاعته ولا يستخدم أحد منهم إلا بمعاوضة اما عمل مذموم تحبه الجن واما قول تخضع له الشياطين كالاقسام والعزائم فان كل جنى فوقه من هو أعلى منه فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم كما يخدم بعض الانس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه وهم كارهون طاعته وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه وقد يقتلونه أو يمرضونه فكثير من الناس قتله الجن كما يصرعونهم والصرع لاجل الزنا وتارة يقولون انه أذاهم اما بصب نجاسة عليهم واما بغير ذلك فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام وتارة يفعلون ذلك عبثاً كما يعيث شياطين الانس^١ بالناس والجن أعظم شيطنة وأقل عقلاً وأكثر جهلاً والجنى قد يحب الانسى كما يحب الانسى الانسى وكما يحب الرجل المرأة والمرأة الرجل يغار عليه ويخدمه بأشياء واذا صار مع غيره فقد يعاقبه بالقتل وغيره كل هذا واقع ثم الذى يخدمونه تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس مما لم يذكر اسم الله عليه ويأتونه اما بطعام واما شراب واما لباس واما نقد واما غير ذلك وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك وليس شئ من ذلك من معجرات الانبياء ولا كرامات الصالحين فان ذلك انما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة وهو لو كان مباحاً لم يحزان بفعل بهذا السبب فكيف اذا كان في نفسه ظمناً محرماً لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك وقد يجبرون بأمواد غائبة مما رأوه وسمعوه ويدخلون في جوف الانسان قال النبي ﷺ «ان الشيطان يجرى من الانسان مجرى الدم» لكن انما سلطانهم كما قال الله (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ولما قال الشيطان (رب بما أعويتني لازين لهم في الارض ولا غوينهم أجمعين الاعبادك منهم المخلصين) قال الله تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) ثم قال الأي لكن [من اتبعك من الغاوين وأن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم] .

فأهل الاخلاص والايمان لاسلطان له عليهم ولهذا يهربون من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ويهربون من قراءة آية الكرسي وآخر سورة البقرة وغير ذلك من قوارع القرآن ومن الجن من يخبر بأمور مستقبله للكهان وغير الكهان مما يسرقونه من السمع والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلت ثم أنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كهان يتحاكمون اليهم وكان أبو بردة بن نيار كاهناً ثم أسلم بعد ذلك وهو من أسلم والاصنام لها شياطين كانت تتراعى للسدنة أحياناً وتكلمهم أحياناً قال أبي بن كعب مع كل صنم جنية وقال ابن عباس في كل صنم شيطان تتراعى للسدنة فتكلمهم والشياطين كما قال الله تقتربن بما يحانسها بأهل الكذب والفجور قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون] فكيف يجوز أن يقال إن مثل هذا يكون معجزة لنبي أو كرامة لولي وهذا يناقض الايمان ويضاده والانبياء والاولياء أعداء هؤلاء قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى [ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون] وهذا يظهر الفرق بين اخبار الانبياء عن الغيب ما لا سبيل للمخلوق الى علمه الا انه كما قال تعالى [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً] فقوله على غيبه هو غيبه الذي احتص به وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه فهذا أيضاً تخبر منه الانبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به كما في أخبار المسيح بقوله [وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم] فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل فيدخلون معه وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل فأنهم يأكلون معه وكذلك إذا ادخر شيئاً ولم يذكر اسم الله عليه عرفوا به وقد يسرقون بعضه كما جرى هذا لكثير من الناس وأما من يذكر اسم الله على طعامه وعلى ما يختاره فلا سلطان

لهم عليه لا يعرفون ذلك ولا يستطيعون أخذه. والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون مما ذكر اسم الله عليه والشياطين لا تعلم به ولهذا من يكون إخباره عن شياطين تخبره لا يكشف أهل الايمان والتوحيد وأهل القلوب النورة بنور الله بل يهرب منهم ويعترف أنه لا يكشف هؤلاء وأمثالهم وتعترف الجن والانس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الايمان والقرآن ويقولون أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة وإنما تظهر عند الكفار والفجار وهذا لان أولئك أولياء الشياطين ولهم شياطين يعاونون شياطين المحدثين ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانية كدخول النار مع كونها لم تضر عليهم برداً وسلاماً (فان الحليل لما ألقى في النار صارت عليه برداً وسلاماً ولذلك أبو مسلم الجولاني لما قال له الاسود العنسي المتني أتشهد اني رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمداً رسول الله قال نعم فأمر بنار فأوقدت له وألقى فيها فجاء اليه فوجدوه يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً فقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ وأخذه عمر فأجلسه بينه وبين أبي بكر وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراي في أمة محمد من فعل به كما فعل بابرهم . وأما اخوان الشياطين فاذا دخلت فيهم الشياطين فقد يدخلون النار ولا يحرقهم كما يضرب أحدهم ألف سوط ولا يحس بذلك فان الشياطين تلتقي ذلك وهذا أمر كثير معروف قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه وقد ضربنا نحن من الشياطين في الانس ما شاء الله حتى خرجوا من الانس ولم يعادوه وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف وفيهم من لا يخرج الا بالعقوبة كالانس فهؤلاء الشياطين اذا كانوا مع جنسهم الذين لا يهابونهم فعلوا هذه الامور وأما اذا كانوا عند أهل ايمان وتوحيد وفي بيوت الله التي يذكر فيها سمع لم يجترئوا على ذلك بل يخافون الرجل الصالح أعظم مما تخافه فجار الانس ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاه والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله ولا بين أهل الايمان والشرعية المتبعين للرسول إنما يمكنهم ذلك في الاماكن التي تأتيها الشياطين كالساجد المهجورة والمشاهد والمقابر والحمامات والمواخير فلمواضع التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها كالمقبرة واعطان الابل والحمام وغيرها فتكون حال هؤلاء

فيها أقوى لأنها مواضع الشياطين كالماخورة والمزبلة والحمام ونحو ذلك بخلاف
الأمكنة التي ظهر فيها الايمان والقرآن والتوحيد التي أتى الله على أهلها
وقال فيهم (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في
زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية
يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله
الأمثال للناس والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح
له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة
وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا
ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) فهذه أمكنة النور والصالحين
والملائكة لا تتسلط عليها الشياطين بكل ما تريد بل كيدهم فيها ضعيف كما أن كيدهم في
شهر رمضان ضعيف إذ كانوا فيه يسلسلون لكن لم يبطل فعلهم بالكلية بل ضعف
فشرهم فيه على أهل الصوم قليل بخلاف أهل الشراب وأهل الظلمات فإن الشياطين
هنالك محالهم وهم يحبون الظلمة ويكرهون النور ولهذا ينتشرون بالليل كما جاء في
الحديث الصحيح ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق إذا وقب . وخوارق الجن
كالاخبار ببعض الأمور الغائبة وكالتصرفات الموافقة لأغراض بعض الانس كثيرة معروفة
في جميع الأمم فقد كانت في العرب كثيرة وكذلك في الهند وفي الترك والفرس والبربر
وسائر الأمم فهي أمور معتادة للجن والانس وآيات الانبياء كما تقدم خارجة عن
مقدور الانس والجن فانهم مبعوثون الى الانس والجن فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً
معروفة فيمن بعثوا اليه اذ يقال هذه موجودة كثيراً للانس فلا يختص بها الانبياء
بل هذه الخوارق هي آية وعلامة على فجور صاحبها وكذبه فهي ضد آيات الانبياء التي
تستازم صدق صاحبها وعدله ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين من أهل
الشياطين وهذا معروف لكثير ممن تخدمه الشياطين بل من طوائف المخدمين من
يكونون كلهم من هذا الباب كالبنوي الذي للترك وأكثر المؤهلين من هذا الباب وهم
يصعدون بهم في الهواء ويدخلون المدن والحصون بالليل والابواب مغلقة ويدخلون
على كثير من رؤساء الناس ويظنون أن هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء ولا يعرف

أن الجن طارت بهم وهذه الاحوال انشيطانية تبطل أو تضعف اذا ذكر الله وتوحيده
وقرئت قوارع القرآن لاسيما آية الكرسي فانها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية
وأما آيات الانبياء والاولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده والجن المؤمنون قديعون
المؤمنين بشيء من الخوارق كما يعين الانس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الاعانة وما
لا يكون الامع الاقرار بنبوة الانبياء فهو من آياتهم فوجوده يؤيد آياتهم لا يناقضها
مع أن آيات الانبياء التي يدعون أعلى من هذا وأعلى من كرامات الاولياء فان
تلك هي الآيات الكبرى والذين ذكر عنهم انكار كرامات الاولياء من المعتزلة وغيرهم كابي
اسحق الاسفرائني وأبي محمد بن أبي زيد وكذا ذكر ذلك أبو محمد بن حزم لا ينكرون الدعوات
المجابه ولا ينكرون الرؤيا الصادقة فان هذا متفق عليه بين المسلمين وهو أن الله تعالى
قد يخص بعض عباده باجابة دعائه أكثر من بعض ويخص بعضهم بما يريه من المبشرات
وقد كان سعد بن أبي وقاص معروفا باجابة الدعاء فان النبي ﷺ قال « اللهم سدد
رميته وأجب دعوته » وحكاياته في ذلك مشهورة وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ
أنه قال « لم يبق بعدى من النبوة الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى
له » وثبت عنه في الصحيح أنه قال « ان من عباء الله من لو أقسم على الله لأبره » ذكر ذلك
لما أقسم أنس بن النضر انه لا تكسر ثنية الربيع فاستجاب الله لذلك وأيضا فان منهم البراء بن
مالك اخو أنس بن مالك وكانوا اذا اشتد الحرب يقولون يا براء أقسم على ربك فيقسم
على ربه فينصرون . والقسم قيل هو من جنس الدعاء لكن هو طلب مؤكد بالقسم
فالسائل يخضع ويقول اعطني والمقسم يقول عليك لتعطيني وهو خاضع سائل لكن
من الناس من يدعى له من الكرامات ما لا يجوز ان يكون للانبياء كقول بعضهم ان
الله عباداً لو شاءوا من الله ان لا يقيم القيامة لما أقامها . وقول بعضهم انه يعطي كن أي
شيء أرادته قال له كن فيكون وقول بعضهم لا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعزب
عن قدرة ربه محال فانه لما كثر في الغلاة من يقول بالحلول والاتحاد والهة بعض
البشر كما قاله النصاري في المسيح صاروا يجعلون ما هو من خصائص الربوبية لبعض
البشر وهذا كفر وأيضا فان كثيراً من الناس لا يكون من أهل الصلاح وتكون له
خوارق شيطانية كما لعباد المشركين وأهل الكتاب فتجلى لهم على أنها كرامات فن

الاناس من يكذب بها ومنهم من يجعل أهلها من أولياء الله وذلك لان الطائفتين ظنت
أن مثل هذه الخوارق لا يكون الا لاولياء الله ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية التي
هي جنس ما للسحرة والكهان ولعباد المشركين وأهل الكتاب وللمتنبئين الكذابين
وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين فلمالم يميزوا بين هذا وهذا
وكان كثير من الكفار والفجار وأهل الضلال والبدع لهم خوارق شيطانية صار
هؤلاء منهم حزبين حزبا قد شاهدوا ذلك وأخبرهم به من يعرفون صدقه فقالوا هؤلاء
اولياء الله وحزبا رأوا ان أولئك خارجون عن الشريعة وعن طاعة الله ورسوله
فقالوا ليس هؤلاء من الاولياء الذين لهم كرامات فكذبوا بوجود ما رآه أولئك
وأولئك قد عاينوا ذلك أوتواتر عندهم فصار تكذيب هؤلاء مثل تكذيب من ينكر
السحر والكهانة والجن وصرعهم للانس اذا كذب ذلك عند من رأى ذلك أو ثبت
عنده ومن كذب بما يتقن غيره وجوده نقصت حرمة عند هذا المتيقن وكان عنده
اما جاهلا واما معانداً فربما رد عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك ولهذا صار كثير
من المنتسبين الى زهد أو فقر أو تصوف أو وله أو غير ذلك لا يقبلون قولهم ولا يعاؤون
بخلافهم لانهم كذبوا بحق قد تيقنه هؤلاء وأنكروا وجوده وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه
وقد يدخلون انكار ذلك في الشرع كما ادخلت المعتزلة ونحوهم انكار كرامات الاولياء
وانكار السحر والكهانة في الشرع بناء على أن ذلك يقدر في آيات الانبياء فجمعوا
بين التكذيب بهذه الامور الموجودة وبين عدم العلم بآيات الانبياء والفرق بينها وبين
غيرها حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الانبياء وأنها نظير لها
فلو وقعت لم يكن للانبياء ما يتميزون به والذين ردوا على هؤلاء من الاشعية ونحوهم
بأنهم كذبوا في هذا في التسوية بين الجنسين وأنه لا فرق لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها
جعلوا الفرق ما ليس بفرق وهو اقترائها بالدعوى والتحدى بمثلها وعدم المعارضة
وهم يقولون أنا نعلم بالضرورة ان الرب انما خلقها لتصديق النبي وهذا كلام صحيح
لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه من أنه لا يخلق شيئاً لشيء وأيضا فاختصاصها بوجود
العلم الضروري عندها دون غيرها لا بد أن يكون لامر أو جب التخصيص وهم يقولون
بل قد تستوى الامور ويوجد العلم الضروري ببعضها دون بعض كما قالوا مثل ذلك

في العادات أنه يجوز انخراقها كلها بلا سبب على أعظم الوجوه كجعل الجبال يواقيت لكن يعلم بالضرورة أن هذا لا يقع فكذلك قالوا في المعجزات يجوز أن يخلقها على يد كاذب (١)

الصادق بما ادعى من العلم الضروري صحيح وأما قولهم ان المعلوم به مماثل غيره فغلط عظيم بل هم لم يعرفوا الفرق بمنزلة العاصي الذي أوردت عليه شبهات السوفسطائية فهو يعلم بالضرورة أنها باطلة ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق ولكن العاصي يقول فيها فساد لا أعرفه لا يقول دلائل الحق كدلائل الباطل وهؤلاء ادعوا الاستواء في نفس الامر فغلطوا غلطاً عظيماً ولو قالوا بينهما فرق لكنه لم يتلخص لنا لكان قولهم حقاً وكانوا قد ذكروا عدم العلم لا العلم بالعدم كما يقول ذلك كثير من الناس يقول ما أعرف الفرق بينهما وذلك أن العلم الضروري يحصل ببعض الاخبار دون بعض وقد قيل انا نعلم أنه متواتر بمحصول علمنا الضروري به والتحقيق أنه اذا حصل له علم ضروري كان قد حصل الخبر الذي يوجبه لهم وقد لا يحصل لغيرهم والعلم يحصل بعدد الخبرين وبصفتهم وبأشياء أخرى تنضم الى الخبر ومن جعل الاعتبار بمجرد العدد فقد غلط والا كثرون يقولون العلم الحاصل به ضروري وقيل انه نظري وهو اختيار الكعبي وأبي الحسين وأبي الخطاب والتحقيق أنه قد يكون ضرورياً وقد يكون نظرياً وقد يجتمع فيه الامران يكون ضرورياً ثم اذا نظر فيه وجد أنه يوجب العلم وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات قد يكون ضرورياً وقد يكون نظرياً وكل نظري فان منتهاه انه ضروري ولهذا قال أبو المعالي المرتضى عندها أن جميع العلوم ضرورية أي بعد حصول أسبابها ولا بد من فرق في نفس الامر بين ما يوجب العلم وما لا يوجبه وأصل خطأ الطائفتين أنهم لم يعرفوا آيات الانبياء وما خصهم الله به ولم يقدرُوا قدر النبوة ولم قدروا آيات الانبياء قدرها بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها فاما ان يكذبوا بوجودها واما ان يسووا بينها ويدعوا فرقا لا حقيقة له ولهذا يوجد كثير ممن يكذب بهذه الخوارق الشيطانية أن تكون لبعض الاشخاص لما يراه من نقص دينه وعلمه فاذا عاينها بعد ذلك أثبت عند خضع لذلك الشخص الذي كان عنده اما كافراً واما

(١) ساض في الاصل مقدار نصف سطر

ضالاً واما مبتدعاً جاهلاً وذلك لانه انكر وجودها معتقدا انها لا توجد الا للصالحين فلما تبين وجودها جعلها دليلاً على الصلاح وهو غلط في الاصل بل هذه من الشياطين من جنس ما للسحرة والكهان ومن جنس ما للكفار من المشركين وأهل الكتاب فان لمشركى الهند والترك وغيرهم ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية أموراً كثيرة يطول وصفها أكثر وأعظم من أكثر مما يوجد منها لأهل الضلال والبدع من المسلمين وما يوجد منها للمنافقين فان الشياطين لا تتمكن من اغواء المسلمين وان كان فيهم جهل وظلم كما تتمكن من اغواء المشركين وأهل الكتاب ولهذا تى في القرآن قصة موسى مع السحرة وذكر ما يقوله الكفار لانبيائهم فانه ما جاء نبي صادق قط الا قيل فيه انه ساحر أو مجنون كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) وذلك ان الرسول يأتي بما يخالف عاداتهم ويفعل ما يرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعا وهذا فعل المجنون فان المجنون فاسد العلم والقصد ومن كان مبالغه من العلم ارادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك وطالب ما لا يعلمه مجنوناً ثم النبي مع هذا يأتي بأمر خارجة عن قدرة الناس من اعلام بالغيوب وأمر خارجة لعاداتهم فيقولون هو ساحر وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالاسلام من الفلاسفة ونحوهم يقولون ان ما أخبرت به الانبياء من الغيوب والجنة والنار هو من جنس قول المجانين وسندهم خوارقهم من جنس خوارق السحرة والمرورين المجانين كما ذكر ابن سينا وغيره لكن الفرق بينهما أن النبي حين القصد بخلاف الساحر وانه يعلم ما يقول بخلاف المجنون لكن معجزات الانبياء عندهم قوى نفسانية ليس مع هذا ولا هذا شيء خارج عن قوة النفس والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى ومن وافقهما متوقفون في وجود الخدم الذي تخدمه الجن قالوا لا يقطع بوجوده وكذلك الكهان ذكروا فيه القولين قول من يقول انه المتخرس وقول من يقول انه مخدوم وهم متوقفون فيه لا يقطعون بوجود مخدوم كاهن كما يقطعون بوجود الساحر لانه في زمانهم وجد الساحر والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة بخلاف الكهان فان القرآن ذكر اسمه ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفكأثم يلقون السمعوا كثرهم

كاذبون) وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قيل له «ان منا قوما يأتون الكهان قال: فلا باتوهم» وسئل عن الكهان وما يجربون به فأخبر أن الجن تسترق السمع وتخبرهم به فالكتاب والسنة اثبتا وجود الكاهن وأحمد قد نص على أنه يقتل كالساحر لكن الكاهن إنما عنده أخبار والساحر عنده تصرف بقتل وامراض وغير ذلك وهذا تطلبه النفوس أكثر وابن صياد كان كاهنا ولهذا قال له النبي ﷺ «قد خبأت لك خبيئا فقال: الدخ فقال: اخسأ فإن تعدو قدرك إنما أنت من أخوان الكهان ولما قضى في الجنين بغرة قال: حمل بن مالك أيودي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل قتل ذلك بطول فقال: إنما أنت من أخوان الكهان» من أجل سجنه الذي سجع فكانوا يسجعون أساجيع وقد رأيت من هؤلاء شيوخاً يسجعون أساجيع كاساجيع الكهان ويكون كثير منها صدقا ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله (وما هو بقول شاعر قايلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قايلا ما تذكرون تنزل من رب العالمين) وكذلك في الشعراء ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) الى قوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفكائهم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) والرسول في آية الحاقة محمد وقال أيضاً [انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بظنين وما هو بقول شيطان رحيم فاين تذهبون ان هو الاذكر للعالمين] فلما أخبر به أنه قول رسول هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن فهذا تنزيه للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أى متهم وان يكون بمجنون فالجنون فساد في العلم والتهمة فساد في القصد كما قالوا ساحر أو مجنون وقال في الطور (فأنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين) وقد أخبر عن الانبياء قبله أنه ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون ولم يقولوا كاهن لان الكاهن عند العرب هو الذي يتكلم بكلام مسجوع وله قرين من الجن وهذا الاسم ليس بدم عند أهل الكتاب بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم ويسمون هرون وأولاده الذين عندهم

التوراة بهذا الاسم والقدر المشترك العلم بالامور الغائبة والحكم بها فعلماء أهل الكتاب يجنبون بالغيب ويحكمون به عن الوحي انذى أوحاه الله وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحي الشياطين وتمتاز بانها تسجع الكلام بخلاف اسم الساحر فانه اسم معروف في جميع الامم وقد يدخل في ذلك عندهم المخدم الذي تخبره الشياطين ببعض الامور الغائبة ولكون الساحر يأتي بالحوارق شبهوا النبي وقالوا ساحر فدل ذلك على قدر مشترك لكن الفرقان بينهما أعظم كالفرق بين الملائكة والشياطين وأهل الجنة وأهل النار وخيار الناس وشرارهم وهذا أعظم الفروق بين الحق والباطل والكفار قالوا عن الانبياء انهم مجانين وسحرة فكما يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين وانهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة وانهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر فالساحر يفسد الادراك حتى يسمع الانسان اشيء ويراه ويتصور خلاف ما هو عليه والانبياء يصححون سماع الانسان وبصره وعقله والذين خالفوهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون فالسحرة يزيدون الناس عمى وصما وبكما والانبياء يرفعون عماهم وصممهم ويكفهم كافي الصحيح عن عطاء بن يسار أنه سأل عبد الله بن عمر وروى عبد الله بن سلام أنه قيل له أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وحرزا للاميين أنت عبيدى سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالاسواق ولا تجزى بالسيئة السيئة وكن تجزى بالسيئة الحسنة وتعفو وتغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فاقتح به أعيناعمي وأذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله وهذا مذكور عند أهل الكتاب في نبوة أشعيا ولفظ التوراة قديراد به جميع الكتب التي نزلت قبل الانجيل فيقال التوراة والانجيل ويراد بالتوراة الكتاب الذي جاء به موسى وما بعده من نبوة الانبياء المتبعين لكتاب موسى قد يسمى هذا كله توراة فان التوراة تفسر بالشرعية فكل من دان بشرعية التوراة قيل لنبوته انها من التوراة وكثير مما يعزوه كعب الاحبار ونحوه الى التوراة هو من هذا الباب لا يختص ذلك بالكتاب المنزل على موسى كافة الشرعية عند المسلمين يتناول القرآن والاحاديث النبوية وما استخرج من ذلك

كما قد بسط هذا في موضع آخر (والمقصود هنا) أن الانبياء يفتحون الاعين العمى والآذان الصم والقلوب الغلف والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل حتى يخيّل للإنسان الأشياء بخلاف ما هي عليه فيتغير حسه وعقله قال في قصة موسى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وهذا يقتضى أن أعين الناس قد حصل فيها تغير ولهذا قال تعالى (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) فقد علموا أن السحر يغير الاحساس كما يوجب المرض والقتل وهذا كله من جنس مقدور الانس فان الانسان يقدر أن يفعل في غيره ما يفسد ادراكه وما يمرضه ويقتله فهذا مع كونه ظاهراً وشرأ هو من جنس مقدور البشر والجنى اذا أراد أن يرى قرينه أموراً غائبة سئل عنها مثلها له فاذا سئل عن المسروق أراه شكل ذلك المال واذا سئل عن شخص أراه صورته ونحو ذلك وقد يظن الرائي انه رأى عينه وانما رأى نظيره وقد يتمثل الجنى في صورة الانسى حتى يظن الظان أنه الانسى وهذا كثير كما تصور لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني كنانة قال تعالى [واذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وأنى جار لكم] الآية فلما عاين الملائكة ولى هارباً ولما رجعوا ذكروا ذلك لسراقه فقال والله ما علمت بحربكم حتى بلغتني هزيمتكم وهذا واقع كثيراً حتى أنه يتصور لمن يعظم شخصاً في صورته فاذا استغاث به أتاه فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت وقد يقول له انه بعض الانبياء أو بعض الصحابة الاموات ويكون هو الشيطان وكثيراً من الناس أهل العبادة والزهد من يأتيه في اليقظة من يقول انه رسول الله ويظن ذلك حقاً ومن يرى اذا زار بعض قبور الانبياء أو الصالحين أن صاحب القبر قد خرج اليه فيظن انه صاحب القبر ذلك البى أو الرجل الصالح وانما هو شيطان أتى في صورته ان كان يعرفها والا أتى في صورة انسان وقال انه ذلك الميت وكذلك يأتي كثيراً من الناس في مواضع ويقول انه الحضر فاعتقد انه الحضر وانما كان جنياً من الجن ولهذا لم يجترئ الشيطان على أن يقول لاحد من الصحابة أنه الحضر ولا قال أحد من الصحابة انى رأيت

(م ٣٥ — النبوات)

الخضر وإنما وقع هذا بعد الصحابة وكلما تأخر الامر كثر حتى انه يأتي اليهود والنصارى ويقول انه الخضر لليهود كنيسة معروفة بكنيسة الخضر وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر والخضر الذي يأتي هذا الشخص غير الخضر الذي يأتي هذا ولهذا يقول من يقول منهم لكل ولي خضر وإنما هو جنى معه والذين يدعون الكواكب تنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب وهو شيطان تزل عليه لما أشرك ليغويه كما تدخل الشياطين في الاصنام وتكلم أحياناً لبعض الناس وتترأى للسدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً وقد يستغيث المشرك لشيخ له غائب فيحكي الجنى صوته لذلك الشيخ حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافة بينهما ثم ان الشيخ يحببه فيحكي الجنى صوت الشيخ للمريد حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه والا فصوت الانسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم ويومين وأكثر وقد يحصل للمريد من يؤذيه فيدفعه الجنى ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه وقد يضرب الرجل بحجر فيدفعه عنه الجنى ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك حتى يقول أنى اتقيت عنك الضرب وهذا أثره في وقد يكونون يأكلون طعاماً فيصور نظيره للشيخ ويجعل يده فيه ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك حتى يتوهم الشيخ وهم أن يد الشيخ امتدت من الشام الى مصر وصارت في ذلك الاناء وعمر بن الخطاب لما نادى ياسارية الجبل قال ان لله جنداً يباغونهم صوتى فعلم ان صوته انما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة أو صالحى الجن فيهتفون بمثل صوته كالذى ينادى ابنه أو غير ابنه وهو بعيد لا يسمع يافلان فيسمعه من يريد ابلاغه فينادى يافلان فيسمع ذلك الصوت وهو المقصود بصوت أبيه والا فصوت البشر ليس في قوته أن يباغ مسافة أيام وقد قلنا ان آيات الانبياء التى احتصوا بها خارجه عن قدرة الجن والانس قال تعالى (قل لئن اجتمعت لانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) [واما اذا كانت مما تقدر عليه الملائكة فهذا مما يؤيدها فان الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله ولا يؤيدونه بالحوارق فاذا أيد به كما أيد الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر ويوم حنين كان هذا من اعلام صدقه وأنه صادق على الله في دعوى النبوة فانها لا تؤيد الكذب لكن الشياطين تؤيد الكذاب والملائكة تؤيد الصادق والتأييد

بحسب الايمان فمن كان ايمانه أقوى من غيره كان جنده من الملائكة أقوى وان كان ايمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك كملك الانسان وشيطانه فانه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال «ما منكم من أحد الا وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن قالوا وبك يا رسول الله قال وبى لكن الله اعانى عليه فاسلم» وفي حديث آخر «فلا يأمرنى الا بخير» وهو في صحيح مسلم من وجهين : من حديث ابن مسعود . ومن حديث عائشة وقال ابن مسعود « ان للقبالة من الملك ولمة من الشيطان فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق فاذا كانت حسنة الانسان أقوى ايد بالملائكة تأييداً يقهر به الشيطان وان كانت سيئة أقوى كان جند الشيطان معه أقوى وقد يلتقى شيطان المؤمن بشيطان الكافر فشيطان المؤمن مهزول ضعيف وشيطان الكافر سمين قوى» فكما أن الانسان بفجوره يؤيد شيطانه على ملكه وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر لان الآخر لم يؤيد ملكه فلم يؤيده أو ضعف عنه لانه ليس معه ايمان يعينه كالرجل الصالح اذا كان ابنه فاجراً لم يتمكن الدفع عنه لفجوره وبسط هذه الامور له موضع آخر (والمقصود هنا) الكلام على الفرق بين آيات الانبياء وغيرهم وان من قال ان آيات الانبياء والسحر والكهانة والكرامات وغير ذلك من جنس واحد فقد غلط أيضاً والطائفتان لم يعرفوا قدر آيات الانبياء بل جعلوها من هذا الجنس فهؤلاء نفوه وهؤلاء أثبتوه وذكروا فرقا لا حقيقة له واذا قال القائل آيات الانبياء لا يقدر عليها الا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك قيل له هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل ما يكون آية لا يقدر عليه الا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك قيل له هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل ما يكون أنه لا يقدر عليه الا الله فان الله خالق كل شيء وغيره لا يستقل باحداث شيء وعلى هذا فلا فرق بين المعجزات وغيرها وقد يقال لا يقدر عليها الا الله أى هى خارجة عن مقدورات العباد فان مقدوراته على قسمين منها ما يفعله بواسطة قدرة العبد كفعال العباد وما يصنعه ومنها ما يفعله بدون ذلك كاتزال المطر فان أراد هذا القائل أنها خارجة عن مقدور

الانس بمعنى أنه لا يقع منهم لا باعانة الجن ولا بغير ذلك فهذا كلام صحيح وان أراد أنه خارج عن مقدورهم فقط وان كان مقدوراً للجن فهذا ليس بصحيح فان الرسل أرسلوا الى الانس والجن والسحر والكهانة وغير ذلك تقدر الجن على ايصالها الى الانس وهى مناقضة لآيات الانبياء كما قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم] وان أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة والانس والجن أو أن الله يفعلها بلا سبب فهذا أيضاً باطل فمن أين له أن الله يخلقها بلا سبب ومن أين له أنه لا يخلقها بواسطة الملائكة الذين هم رسله في عامة ما يخلقها فمن أين له أن جبريل لم ينفخ في مريم حتى حملت بالمسيح وقد أخبر الله بذلك وهو وأمه مما جعلها آية للعالمين قال تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) وخلق المسيح بلا أب من أعظم الآيات وكان بواسطة نفخ جبريل قال تعالى [فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً] قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً قال انما أنا رسول ربك ليسب [١] لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً] وقال تعالى [ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا] وكذلك طمس أبصار قوم لوط كان بواسطة الملائكة والذي عنده علم من الكتاب لما قال عفريت من الجن لسليمان [انا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين] قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيتك به قبل أن يرتد اليك طرفك [أتته به الملائكة كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره أن الملائكة أتته به أسرع مما كان يأتى به العفريت وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمداً ﷺ بالملائكة وبالريح وقال تعالى [فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً] وقال تعالى يوم حنين [فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها] وقال تعالى يوم الغار [فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها] وقال تعالى [اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب] وقد ثبت في الصحيح «أن الانسان يصوره ملك في الرحم باذن الله ويقول الملك أى رب نطفة أى رب علاقة

[١] قوله ليسب بالياء وهى قراءة أبى عمرو وورش وقالون والباقون يقرؤنها

لا تسب بالهمزة بدل الياء

أى رب مضغة «فاذا كان الخلق المعتاد يكون بتوسط الملائكة وقال يقرر التوحيد بقوله تعالى [يا أيها الناس اعبدوا ربكم] الآيات ثم النبوة بقوله [وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا ثم المعتاد] وكذلك الانعام يقرر التوحيد ثم النبوة في وسطها ثم يختتمها باصول الشرائع والتوحيد أيضاً وهو ملة ابراهيم وهذا مبسوط في غير هذا الموضع (والمقصود) انه قد بين انفراده بالخلق والنفع والضرر والائان بالآيات وغير ذلك وان ذلك لا يقدر عليه غيره قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) وقال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بآيات من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ وكذلك نفصل الآيات وليقولوا درست ولنبيته لقوم يعلمون اتبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ففي هذه الآيات تقرير التوحيد حتى في ازال الآيات قال (إنما الآيات عند الله) وكذلك قوله في العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ألو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله نبيى وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والارض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون] وقال أيضاً [وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون] هذا بعد قوله [فان استطعت أن تبتغي نقفاً في الارض أو سماً في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين] وهو أرسله بآيات بان بها الحق وقامت بها الحجة وكانوا يطلبون آيات تعنتا فيظن من

يظن أنهم يهتدون بها لكن لا يحصل بها المقصود وقد يكون موجبة لعذاب الاستئصال فتكون ضرراً بلا نفع وبين سبحانه أنه قادر على انزال الآيات وإنما ليست الا عنده وغير أفعال العباد قد اتفق الناس على أنه لا يخلقه الا الله وإنما تنازعوا في أفعال العباد والصواب أنها أفعال لهم وهي مخلوقة لله لكن آيات الانبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد كما قال [قل إنما الآيات عند الله] والملائكة إنما هي سبب من الاسباب كما في خلق المسيح من غير أب فجهنم إنما كان مقدوره النفخ فيها وهذا لا يوجب الخلق بل هو بمنزلة الانزال في حق غير المسيح وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين وإنما حصول الحياة فيه فبإذن الله فإن الله يحيي ويميت وهذا من خصائصه ولهذا قال الخليل ربني الذي يحيي ويميت وفي القرآن في غير مواضع [يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وكنتم أمواتاً فاحياكم ويحيي الارض بعد موتها والله يحيي ويميت] وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به بل لهم فيه شركة كطمس أبصار اللوطية وقلب مدينهم وكذلك النصر إنما يقدرون على القتال كالانس والنصر هو من عند الله كما قال تعالى [وما جعله الله الا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله] والقرآن إنما يقدرون على النزول به لا على احداثه ابتداء فهم يقدرون على الاتيان بمثله من عند الله وأما الجن والانس فلا يقدرون على الاتيان بمثله لان الله لا يكلم بمثله الجن والانس ابتداء ولهذا قال [لا يأتون بمثله] وقال تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقال (فأتوا بعشر سور مثله) وقال (فلأأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) لم يكلفهم نفس الاحداث بل طالبهم بالاتيان بمثله اما احداثاً واما تبليناً عن الله أو عن مخلوق ليظهر عجزهم عن جميع الجهات فقد يقال فنفس أفعال العباد ليست من الآيات اذ كانت مقدورة ومفعولة للعبد وان كان ذلك باقدار الله تعالى ولا نفس القدرة على ذلك الفعل فان المقصود من القدرة هو الفعل بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد الملائكة والجن والانس وهي ايضا لا تنال بالاكتساب فان الانس والجن قد يقدرون باسباب مباينة لهم على أمور كما يقدرون على قتل من يقتلونه وامراضه ونحو ذلك وآيات الانبياء لا يقدر أحد أن يتوصل اليها بسبب والسحر والكهانة مما يمكن التوصل اليه بسبب كالذي يأتي باقوال وأفعال تحدث بها الجن فالنبوة لا تنال بكسب العبيد ولا آياتها تحصل بكسب العباد وهذا من الفروق بين آيات الانبياء

وبين السحر والكهانة وبينها فروق كثيرة أكثر من عشرة (أحدها) ان ما تخبر به الانبياء لا يكون الا صدقا واما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور من المسلمين فانه لا بد فيه من الكذب (الثاني) أن الانبياء لا تأمر الا بالعدل ولا تفعل الا العدل وهؤلاء المخالفون لهم لا بد لهم من الظلم فان ما خالف العدل لا يكون الا ظاهما فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقا كما قال تعالى [قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون] (الثالث) ان ما يأتي به من يخالفهم معتاد لغير الانبياء كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور وآيات الانبياء هي معتادة انها تدل على خبر الله وأمره على علمه وحكمه فتدل على انهم انبياء وعلى صدق من اخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم وكرامات الاولياء هي من هذا فانهم يجربون بنبوة الانبياء وكذلك اشراط الساعة هي أيضا تدل على صدق الانبياء اذ كانوا قد اخبروا بها فالذي جعله اولئك من كرامات الاولياء واشراط الساعة ناقضا لآيات الانبياء اذ هو من جنسها ولا يدل عليها فالولئك كذبوا بالموجود وهؤلاء سووا بين الآيات وغيرها فلم تكن في الحقيقة عندهم آية وكانت الآيات عند أولئك منتقضة وأولئك فسروا جهلهم بالكذب بالحق وهؤلاء نصروا جهلهم أيضا بقول الباطل فقالوا ان الآية هي المقرونة بالدعوى التي لا تعارض وزعموا انه لا يمكن معارضة السحر والكهانة اذا جعل آية وانه اذا لم يعارض كان آية وهو تكذيب بالحق أيضا فانه قد ادعاه غير نبي ولم يعارض فالطائفتان ادخلت في الآيات ما ليس منها واخرجت منها ما هو منها فكرامات الاولياء واشراط الساعة من آيات الانبياء واخرجوها والسحرة والكهانة ليس من آياتهم وادخلوها أو سووا بينها وبين الآيات بل ونواها (١)

(الرابع) ان آيات الانبياء والنبوة لو قدر انها تنال بالاكتساب فهي انما تنال بعبادة الله وطاعته فانه لا يقول عاقل ان احدا يصير نبيا بالكذب والظلم بل بالصدق والعدل سواء قال ان النبوة جزاء على العمل أو قال انه اذا زكى نفسه فاض عليه ما

يفيض على الانبياء فعلى القولين هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل وحينئذ فيمتنع ان صاحبها يكذب على الله فان ذلك يفسدها بخلاف من خالف الانبياء من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل البدع والفسجور من أهل الملل أهل الكتاب والمسلمين فان هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والاثم بل خوارقهم مع ذلك أشد لانهم يخالفون الانبياء وما يناقض الصدق والعدل لم يكن الا كذبا وظلما فكل من خالف طريق الانبياء لا بد له من الكذب والظلم اما عمدا واما جهلا وقوله تعالى (تنزل على كل افاك اثم) ليس من شرطه ان يعتمد الكذب بل من كان جاهلا يتكلم بلا علم فيكذب فان الشياطين تنزل عليه أيضا اذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من غير اجتهاد يعذر به فهو كذاب ولهذا يصف الله المشركين بالكذب وكثير منهم لا يعتمد ذلك وكذلك قال النبي ﷺ لما افتى أبو السنابل « بان المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل بل تعتد ابعده الاجلين » فقال كذب أبو السنابل اى في قوله بان المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل بل تعتد ابعده الاجلين وكذلك لما قال بعضهم ابن الاكوع حبط عمله قال النبي صلى الله عليه وسلم كذب من قالها انه جاهد مجاهد ونظاره كثيرة فالانبياء لا يقع في أخبارهم عن الله كذب لاعمداً ولا خطأ وكل من خالفهم لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة فان خبره اذا لم يكن مطابقاً لخبرهم كان مخالفا له فيكون كذبا فالذى تنزل عليه الشياطين اذا ظن واعتقد أنهم جاؤا من عند الله وأخبر بذلك كان كاذبا وكذلك اذا قال عما أوحوه اليه ان الله أوحاه اليه كان كاذبا قال تعالى [ان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوك] ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد وهو أول من ظهر في الاسلام بالكذب في هذا وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « يكون في ثقيف كذاب ومير » فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد وكان يتشيع لعلی ولهذا يوجد الكذب في الشيعة أكثر مما يوجد في جميع الطوائف والمير هو الحجاج بن يوسف وكان ظالما معتديا وكان يتشيع لعثمان والمختار يتشيع لعلی فذكر لابن عمر وابن عباس أمر المختار وقيل لاحدهما أنه يزعم أنه يوحى اليه فقال صدق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وقيل لآخر أنه يزعم أنه ينزل عليه فقال صدق (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل

على كل أفاك أثيم] (الخامس) أن ماتأتى به السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدوراً للانس والجن وآيات الانبياء لا يقدر على مثلها لا الانس ولا الجن كما قال تعالى [قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] (السادس) أن ماأتى به السحرة والكهان وكل مخالف للرسول تمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب وآيات الانبياء لا يمكن أحداً أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها وكذلك كرامات الصالحين لا تعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها بل قد يكون بعض آيات أكبر من بعض وكذلك آيات الصالحين لكنهما متصادقة متعاونة على مطلوب واحد وهو عبادة الله وتصديق رسوله فهي آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد والدالة بعضها أدل وأقوى من بعض ولهذا كان المشايخ الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضاً بخوارقه إما يقتل وامراض وإما يسلب حاله وعزله عن مرتبته وإما غير ذلك خوارقهم شيطانية ليست من آيات الانبياء والاولياء وكثير من هؤلاء يكون في الباطن كافراً منافقاً وكثير منهم يموت على غير الاسلام وكثير منهم يكون مسلماً مع ظلم يعرف أنه ظلم ومنهم من يكون جاهلاً يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض فهذا خارج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين (السابع) أن آيات الانبياء هي الحارقة للعادات عادات الانس والجن بخلاف خوارق مخالفينهم فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الانبياء وآيات الانبياء ليس معتادة لغير الذين يصدقون على الله ويصدقون من صدق على الله وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا وتلك معتادة لمن يقتري الكذب على الله أو يكذب بالحق لما جاءه فتلك آيات على كذب أصحابها وآيات الانبياء آيات على صدق أصحابها فإن الله سبحانه لا يخلى الصادق مما يدل على صدقه ولا يخلى الكاذب مما يدل على كذبه اذ من نعته ما أخبر به في قوله [أم يقولول اقتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك] ثم قال خبراً مبتدئاً (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) فهو سبحانه لا بد أن يمحى الباطل ويحق الحق بكلماته وقال تعالى (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما الا بعين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما

(م ٣٦ — النبوات)

تصفون) كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سدى وإنما خلقهم بالحق وللحق فلا بد أن يجزى هؤلاء وهؤلاء باظهار صدق هؤلاء واظهار كذب هؤلاء كما قال (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (الثامن) ان هذه لا يقدر عليها مخلوق فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن ولا للإنس وان كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك فانها اما مقدورة للإنس أو للجن أو مما يمكنهم التوصل اليها بسبب وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الانبياء كما تقدم ولكن ليست من آياتهم الكبرى ولا يتوقف اثبات النبوة عليها وليست خارقة لعادة الصالحين بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين وآيات الانبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين (التاسع) ان خوارق غير الانبياء الصالحين والسحرة والكهان وأهل الشرك والبدع تنال بافعالهم كعبادتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك وأما آيات الانبياء فلا تحصل بشيء من ذلك بل الله يفعلها آية وعلامة لهم وقد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين وأعظم من ذلك مما يقصد به اكرامهم لكن هذا النوع [١] يقصد به الاكرام والدلالة بخلاف الآيات المجردة كانشقاق القمر وقاب العصا حية واخراج يده بيضاء والاثيان بالقرآن والاخبار بالغيب الذي يختص الله به فامر الآيات الى الله لا الى اختيار المخلوق والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشئته ورحمته كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن وكما يخلق من يشاء من المخلوقات بخلاف ما حصل باختيار العبد اما لكونه يفعل ما يوجهه أو يدعو الله به فيجيبه فالخوارق التي ليست آيات تارة تكون بدعاء العبد والله تعالى يجيب دعوة المضطر وان كان كافراً لكن للمؤمنين من اجابة الدعاء ما ليس لغيرهم وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه وبمن يطيعه من الجن والإنس في حصولها وأما آيات الانبياء فلا تحصل بشيء من ذلك (العاشر) أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر الا بما أمرت به الانبياء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والايمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الانبياء وأما السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فانهم يخرجون عما اتفقت عليه الانبياء فكلمهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون

(١) لكن هذا النوع الخ يعني بذلك مثل النصر على الاعداء وكشف الكربات

ونوال الرغبات فهذا النوع فيه الاكرام والدلالة بخلاف الثاني فانه للدلالة فقط ☆

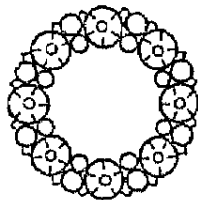
ببعض ما جاء به الانبياء والانبياء كلهم منزّهون عن الشرك وعن التكذيب بشيء من الحق الذي بعث الله به نبيا قال تعالى [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون] وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وقال تعالى [ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة] وقال تعالى [آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله] وقال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق) وقال تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وقال تعالى [ان الدين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا] وقال تعالى [واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانام معكم من الشاهدين] وقال تعالى [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب] وقال تعالى [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون] ثم قال [فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون] وقال تعالى لما ذكر الانبياء (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) وقال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانتهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فالانبياء يصدق متأخرهم متقدمهم ويبشر متقدمهم

بمتأخرهم كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد وكما صدق محمد جميع النبيين قبله ولهذا يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزل مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أديارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) وقال [نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد] وقال (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) والانبياء وأتباعهم كلهم مؤمنون مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر ويصدقون بجميع ما جاءت به الانبياء ومن خالفهم لا يكون الا مشركاً ومكذباً ببعض ما أنزل الله وبين الطائفتين فروق كثيرة غير خوارق العادات (الحادى عشر) ان النبي هو وسائر المؤمنين لا يخبرون الا بحق ولا يأمرون الا بعديل فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد لا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها فلا يأمرون الا بما يوافق المعروف في العقول الذى تتلقاه القلوب السليمة بالقبول فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يناقض بعضهم بعضاً بل دينهم وملازمهم واحد وان تنوعت الشرائع فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التى فطر الله عليها عباده موافقون للدلالة العقلية لا يناقضونها قط بل الادلة العقلية الصحيحة كلها توافق الانبياء لا تخالفهم وآيات الله السمعية والعقلية العيانة والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة لا يناقض بعضها بعضاً كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع والذين يخالفون الانبياء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحرة والكهان وسائر أنواع الكفار وكل مبتدعين من أهل الملل أهل العلم وأهل العبادة فهؤلاء مخالفون للدلالة السمعية والعقلية للسماعية والعيانية مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول كما أخبر الله عنهم بقوله (كلما التى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) الآية فهؤلاء مخالفون أقوال الانبياء اما بالتكذيب واما بالتحريف من التأويل واما بالاعراض عنها وكتبتها فاما أن لا يذكروها أو يذكروا الفاظها ويقولون ليس لها معنى يعرفه مخلوق كما أخبر الله عن أهل الكتاب أن منهم من يكذب في اللفظ ومنهم من يحرف الكلم في المعنى ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرأون قال تعالى [أفطمعون أن يؤمنوا لكم] الى قوله (فويل لهم مما كتبت أيديهم

١
ويل لهم مما يكسبون) وكذلك هم مخالفون للدالة العقلية فالانبياء كلوا الفطرة وبصرو
لخلق كما تقدم في صفة محمد ﷺ أن الله يفتح به أعينا عميا وآذاناً صما
قلوبا غلفا ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل كما أفسدوا الادلة السمعية والحس والعقل
بما تعرف الادلة والطرق ثلاثة الحس والعقل والخبر فمخالفوا الانبياء أفسدوا هذا وهذا
هذا أما افسادهم للمجاهد عن الانبياء فظاهر وأما افسادهم للحس والعقل فانهم قسمان
نسم أصحاب خوارق حسية كالسحرة والكهات وضلال العباد وقسم أصحاب كلام
واستدلال بالقياس والمعقول وكل منهما يفسد الحس والعقل أما أصحاب الحال الشيطاني
فقد عرف ان السحر يغير الحس والعقل حتى يحيل الى الانسان الشيء بخلاف ما هو
وكذلك سائر الخوارق الشيطانية لاتأتى الا مع نوع فساد في الحس أو العقل كالمؤهلين
الذين لا تأتيمهم الا مع زوال عقولهم وآخرين لا تأتيمهم الا في الظلام وآخرين تتمثل
لهم الجن في صورة الانس فيظنون أنهم انس أو يرونهم مثال الشيء فيظنون أن الذي
وأوه هو الشيء نفسه أو يسمعونهم صوتاً يشبه صوت من يعرفونه فيظنون أنه صوت
ذلك المعروف عندهم وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التي فيها نوع من
الشرك ومخالفة للشريعة وأما أصحاب الكلام والمقال البهتاني فانهم بنوا أصولهم العقلية
وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل فأهل الكلام أصل كلامهم في
الجواهر والاعراض مبنى على مخالفة الحس والعقل فانهم يقولون انا لا نشهد بل ولا نعلم
في زماننا حدوث شيء من الاعيان القائمة بنفسها بل كل ما نشهد حدوثه بل كل ما حدث
من قبل أن يخلق آدم انما تحدث أعراض في الجواهر التي هي باقية لا تستحيل قط بل
تجتمع وتنفرد والخلق عندهم الموجود في زماننا وقبل زماننا انما هو جمع وتفريق
لا ابتداء عين وجوهر قائم بنفسه ولا خلق اشياء قائم بنفسه لا انسان ولا غيره وانما
يخلق أعراضاً ويقولون ان كل ما نشاهده من الاعيان فانها مركبة من جواهر كل
جوهر منها لا يتميز بينه عن شماله وهذا مخالفة للحس والعقل كالاول ويقول كثير
منهم أن الاعراض لا تبقى زمانين ويقولون انه لا يبقى ويعدم في زماننا شيء من الاعيان
بل كما لا يحدث شيء من الاعيان لا يبقى شيء من الاعيان فهذا أصل علمهم ودينهم
ومعتقدهم الذي بنوا عليه حدوث العالم وإثبات الصانع وهو مخالف للحس والعقل ورسول

الذين يشبّون الجوهر الفرد ان الفلك والرحاء وغيرها يتفكك كلما استدار ويقول كثير منهم أن كل شيء فانه يمكن رؤيته وسمعه ولمسه الى غير ذلك من الامور التي جعلوها أصول علمهم ودينهم وهي مكابرة للحس والعقل والمتفلسفة أضل من هؤلاء فانهم يجعلون ما في الذهن ثابتاً في الخارج فيدعون أن ما يتصوره العقل من المعاني الغائبة الكلية موجودة في الجواهر قائمة بأنفسها اما مجردة عن الاعيان واما مقترنة بها وكذلك العدد والمقدار والحلاء والدهر والمادة يدعون وجود ذلك في الخارج وكذلك ما يثبتونه من العقول والعلّة الاولى الذي يسميه متأخروهم واجب الوجود وعامة ما يثبتونه من العمليات انما يوجد في الذهن فالذي لا ريب في وجوده نفس الانسان وما يقوم بها ثم ظنوا ما يقوم بها من العمليات موجوداً في الخارج فكان افسادهم للعقل أعظم كما أن افساد المتكلمين للحس أعظم مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هي العلوم العقلية والعمليات عندهم أصح من الحيات وأولئك المتكلمون أصول علمهم هي الحيات ثم يستدلون بها على العمليات وبسط هذه الامور له موضع آخر والمقصود هنا التنبيه على أن من خالف الانبياء فانه كما أنه مكذب لما جاء به من النبوة والسمع فهو مخالف للحس والعقل فقد فسد عليه الادلة العقلية والنقلية والله سبحانه وتعالى أعلم ۞

تم والحمد لله طبع كتاب النبوات للعلامة تقي الدين بن تيمية وذلك بعد عرضه على أصله وتصحيحه وذلك سنة ١٣٤٦ هجرية على صاحبها أفضل صلاة وأكمل تحية ۞



فهرست

كتاب النبوات للعلامة ابن تيمية

صفحة	صفحة
٢	فصل في معجزات الانبياء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين
٢	طرق النظر في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلائلها
٢	الطريق الاول أن المعجزة هي الخارق للعادة اذا اقتزن بدعوى النبوة وأنكروا ما عداها من الخوارق
٣	الطريق الثاني أن خرق العادة جائز مطلقا والفرق بين المعجزة والكرامة والحر هو التحدي بالمعجزة ومناقشة المصنف لهم
٤	فروق ضعيفة بين المعجزة والكرامة
٥	بيان أن كثيراً من الناس كائنهم من غيرهم ضلوا لزعمهم أن الكرامة تستلزم العصمة فأوجبوا موافقتهم في كل ما يقولون
٥	بيان أن جنس معجزات الانبياء خارج عن مقدور البشر ومقدور جنس الحيوان بخلاف خوارق غيرهم
٧	بيان أن الخوارق جنسان جنس في نوع العلم وجنس في نوع القدرة وما
٨	بيان أن الخوارق لا تدل على صلاح صاحبها وإنما الذي يدل على صلاحه هو اتباع الرسل
٨	تنازع العلماء في دلالة الخوارق على ولاية معين
٩	بيان أن من لم يكن مقرا بالانبياء لا يعرف الولي من غيره
١٠	بيان أن الخوارق على ثلاثة أنواع اما أن تعين صاحبها على البر والتقوى أو تعينه على المباحات أو تعينه على الفواحش
١١	فصل في بيان أن آيات الانبياء لا بد أن تكون مختصة بهم ليست معتادة للآدميين الخ
١٢	بيان أن آيات الانبياء يجب أن لا يعارضها من ليس بنبي وأمثلة ذلك
١٣	شروط المعجزة
١٥	الامر بسؤال أهل الكتاب عما جاء به

صفحة	صفحة
وأفعال الانبياء وأن أهم خصائص المعجزة أن تكون خارجة عن مقدور جميع البشر ولا يمكن معارضتها	النبى ﷺ لانهم كانوا يعلمون جنس ما جاءت به الرسل ويعلمون ذكره في كتبهم
بيان أن من لم يعرف وجود الانبياء في العالم وخصائصهم كما يعرف السحرة لم يكن لهم في الانبياء كلام كارسطو واتباعه	١٧. بيان ان اعظم ما كان عليه المشركون قبل مبعثه ﷺ هو دعوى الولد والشريك لله تعالى والله منزّه عن ذلك ولذلك كان القرآن مملوءاً من تنزيهه عن ذلك
بيان السبب في أن ارسطو لم يعلم بالانبياء مع أن موسى عليه السلام كان موجوداً قبله	١٨. بيان ان مذهب الفلاسفة دائر بين التعطيل والشرك .
بيان أن طريق معرفة الانبياء وخصائصهم يكون بمعرفة أخبارهم واستقراء أحوالهم ولهذا قرر الله أمر النبوة في القرآن وأثبت جنسها بما وقع في العالم من قصص الانبياء وما وقع لهم مع من كذبهم من أممهم	١٨. بيان أنه لما كان الشرك أكثر من القول بأن له ولداً كان تنزيه الله عنه أكثر
بيان أن الله تعالى لما أراد تقرير جنس ما جاء به محمد ﷺ مثله بما جاء به موسى الى فرعون فمن أقرب بجنس الانبياء كان اقراره بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في غاية الظهور وهذا أصل عظيم الخ	١٩. بيان أن قوله تعالى (قل ما كنت بدعاً من الرسل) يبين أن هذا الجنس من الناس وهم الرسل قد تقدم له نظراء وعرف الناس جنس ما جاءوا به
فصل ومن آيات الله نصر الرسل على قومهم وذلك على وجهين تارة	١٩. بيان أن الناس يعرفون أن السحرة لهم خوارق ولهذا كانوا إذا طعنوا في الرسل اتهموهم بالسحر فلما كانت النبوة معلومة لهم والسحر معلوماً لهم بين الله الفرق بين أفعال الانبياء وأفعال السحرة الخ
	٢٠. بيان الفرق بين خوارق السحرة وخوارق الانبياء وأفعال السحرة

صحيفة	صحيفة
ليلبس على العباد قلنا في الجواب الح	يكون باهلاك الامم وتارة بانجاء
الجواب الاول عن السؤال المتقدم	الرسول . وفيه حكمة ذكر قصص
وبيان ضعفه	الانبياء في القرآن وذكر قصة
الجواب الثاني والثالث والرابع	ابراهيم تارة معها وتارة لا وبيان
وبيان ضعفها	أن ابراهيم ومحمدا عليهما الصلاة
الوجه الثامن والتاسع	والسلام اعظم الرسل
فصل في ان الرسول لا بد وان	٢٨ (فصل) في آيات الانبياء وبراہينهم
يبين اصول الدين وهي البراهين	٢٨ اضطراب العلماء في دليل النبوة
الدالة على ان ما يقوله حق . وقد بين	وذكر أقوالهم وبيان ما ذهب اليه
المصنف انه لا يمكن الاستدلال	المعتزلة وما ذهب اليه القاضي أبو بكر
على الانبياء الا براہينهم الح	وشروط المعجزة عند المتكلمين
بيان أن أصول الاسلام أربعة	ومناقشة المصنف لهم
دال ودليل ومبين ومتمدل .	٣٠ بيان سبب عدول المتأخرين كالرازي
بيان أن النظر الذي اخترعه	عن طريقة متقدمي المتكلمين في انه
المتكلمون ليس هو المشروع مع	لا يشترط في المعجزة ان تكون
كونه استدلالا فاسدا لا يوصل	مما ينفرد به الباري
الى علم وبيان فساد الاستدلال بطريق	٣٠ كلام القاضي أبي بكر في المعجزة
الحدوث وبطلان كونه هو النظر	والفرق بينها وبين السحر
الواجب على كل مكلف	٣١ تشنيع المتأخرين كابن حزم على
بيان ان الرسول لم يدع الناس بهذا	طريقة القاضي وبيان ما ورد عليه
الدليل ولا أوجبه ولهذا طعن	حيث جعل جنس الخارق هو الآية
المتأخرون كالرازي على وجوبه وأنه	للرسل وهو مبحث بديع جداً
على فرض صحته لا يلزم وجوبه	٣٣ فان قال قائل لم لا يجوز ان تظهر
بيان ان الجهمية لما التزموا الاستدلال	المعجزات على يد مدعى النبوة
(م ٣٧ - النبوات)	

صحيفة	صحيفة
٤٥	بطريق الحدوث نفوا صفات الله أذ كانت الصفات اعراضاً تقوم بالموصوف وذلك لا يتأتى الا في الاجسام وخالفهم المعتزلة في نفى الاسماء فقط الخ
٤٦	٤١ فساد مسلك الحكماء
٤٦	٤٢ بيان ان المعتزلة اقرروا بالاسماء خلافاً للجممية لكنهم نفوا صفاته تعالى فوقعوا في التناقض
٤٨	٤٢ بيان أن الاشعري ومن تبعه أثبتوا الصفات متابعة للدليل السمعي وقالوا ليست اعراضاً لأن العرض لا يبقى زمانين فخالفوا الحس وضرورة العقل
٤٩	٤٣ بيان بطلان كلام الكلابية الذي بنى على هذه الطريقة
٤٩	٤٣ بيان ان هذه الطريقة في الاستدلال كانت سبباً في افتراق الامة
٤٩	٤٤ بيان ان كثيراً من أهل النظر جعلوا ما أوجبوه من النظر الذي هو أصل الدين هذه الطريقة المبتدعة التي ذمها سلف الامة لذلك عدل عنها بعض المتأخرين منهم كالغزالي والرازي والتبس الامر على بعض آخر فسلكوا مسلك الملاحدة من الحكماء واظهروه في قالب المكاشفة الخ
٤٥	انكار جمهور المتكلمين ان يكون الله محباً أو محبوباً
٤٦	بيان أن الله لا يحب الشرك
٤٦	بيان ان الذين اعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال
٤٧	بيان أن النظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى
٤٨	بيان أن الاستدلال على الخالق بخلق الانسان طريقة عقلية صحيحة وشرعية دل عليها القرآن . وهذا من أهم مباحث هذا الكتاب البديع وبيان أن ما اصطاح عليه الاصوليون في تسميتهم الدليل الشرعي مادل بمجرد خبر الرسول اصطلاح قاصر
٤٩	بيان أن الاشعري استدل بخلق الانسان لكنه سلك طريقة الجممية
٤٩	بيان أن الفلاسفة مع كونهم اشد مخالفة للسمع والعقل من هؤلاء عرفوا فساد طريقتهم فاستطالوا عليهم وسلكوا طريق الامكان والوجوب وهو فاسد وقد بين المصنف وجه فساد
٥١	نقض المصنف لقول الفلاسفة ان الجواهر لا تفنى . وبيان ان نظريات الطبيعة والكيمياء في هذا العصر ايدت

صفحة	موضوع
٥٢	ما ذهب اليه قدس سره
٥٣	بيان ان الطرق التي ذكرها الرازي في الاستدلال على انبات الصانع باطلة لانها مبنية على باطل
٥٧	بيان أن الرازي لما استدل بحدوث الصفات سماها طريقة القرآن مع ان طريقة القرآن هي الاستدلال
٥٨	بآيات الله في خلق الاعيان والاعراض الخ
٥٨	بيان أن أصل الاشتباه في هذا المقام ان خلق الشيء في مادة هل هو خلق عين ام أحداث اجتماع
٥٩	وافتراق والناس في هذا على ثلاث فرق - بيان طريقة الجهمية في ان الجسم مركب من مادة وصورة
٥٩	بيان ان الجسم مركب عند الفلاسفة من مادة وصورة وان المادة باقية والصور الجوهرية تتعاقب عليها
٦٠	وبيان فساد طريقة الجهمية هذه
٦٢	بيان ان الجواهر حادثة عند أهل الملل ولكن الدليل الذي استدلوا به وهو ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . باطل فلا دليل عندهم على حدوثها
٦٣	بيان ان المتكلمين لما جهلوا النشأة
٥٦	الاولى للانسان وقالوا ببقاء المسادة وفناء الاعراض اضطربوا في المعاد والبحث هل هو جمع هذه الاجزاء بعد تفريقها أو اعادتها بعد اندامها الخ
٥٧	بيان خطأ الفلاسفة في توهمهم أن المادة باقية بعينها وإنما تفسد صورتها فساد قول الاشاعرة في أن خلق الله للكائنات عبارة عن خلق الاعراض فقط وهي تفتى بنفسها الخ
٥٨	بيان أن من عرف النشأة الاولى عرف النشأة الأخرى
٥٩	فساد قول الجهمية في أن الله لا يحدث شيئاً من شيء لا جوهرها ولا عرضا
٥٩	بيان الحق في احداث الاشياء ونقض كلام الجهمية
٦٠	بيان ان خاصية الخلق هي قلب جنس الى جنس
٦٢	اختلاف الناس في الامكان هل هو صفة خارجية لا بد لها من محل أو حكم عقلي لا يفقر الى غير الذهن وتحقيق المقام في ذلك
٦٣	بيان أن الجهمية غلطوا فيما جاء به الشرع كما غلطوا في المعقولات وبيان الاشتباه فيما يسمى شرعا

صحيفة	صحيفة
٧٧ فصل في تمام القول في محبة الله وانقسام المراد الى ما يراد لذاته وما يراد لغيره	وعقلا وسمعا
٧٧ بيان أن محبة الله لا بد أن تكون خاصة به ويعبر عنها بالانابة	٦٤ بيان ما ادخله الجهمية في الشرع وليس منه
٧٨ بيان أن القلوب تطمئن بذكره وأن الخوف الذي يحصل من الذكر عارض	٦٤ بيان ان التبديل نوعان أحدهما مناقضة خبر الرسول والثاني مخالفة أمره
٧٩ بيان أن الفلاسفة قسموا اللذات الى ثلاثة أقسام وجعلوا غايتها هو العلم وتبعهم الغزالي في ذلك . وانهم عظموا تجريد النفس عن الهوى	٦٥ بيان أن القول الحق هو القرآن والحال الحق هو الإيمان
٧٩ يالزهد في اغراض البدن وبيان فساد ذلك	٦٦ بيان أن الكتاب والسنة ناطقان بأن الله يحب ويحب خلافا للجهمية وادلة ذلك
٧٩ تقسيم الغزالي السلوك الى ثلاثة منازل	٦٩ بيان أن الإسلام هو الاستسلام لله وحده والاستسلام له يستلزم الاستسلام لقضائه وأمره ونهيه
٨٠ تقسيمه للعلوم الى ثلاثة أقسام وبيان ان كلامه وان كان عن خبرة بما يقول لكن من عرف ما جاءت به الرسل عرف انه هل هو حق مطابق أولا	٧٠ وتفسير قوله [بلى من اسلم وجهه لله]
٨١ رد المصنف على ما جعله الغزالي غاية السلوك	٧١ بيان شبهة من انكر المحبة وتفنيدها
٨١ بيان أن اتباع الغزالي كابن عربي وابن سبعين صرحوا بحقيقة ما وصلوا اليه وهو ان الوجود واحد ولما علموا أن الغزالي لا يوافقهم رموه	٧١ تفسير اسمه تعالى الودود
	٧٢ الأدلة على ثبوت المحبة خلافا للسكالية وتمام تفسير اسمه «الودود» مؤيداً بالآيات والآثار
	٧٥ الشبهة الثانية لمن انكر المحبة وهي قولهم ان الإرادة والمحبة لا تتعلق الا بمعدوم يراد فعله الخ وتفنيد هذه الشبهة وبيان الفرق بين الإرادة والمحبة وهو من بدائع هذا الكتاب

صحيفة	صحيفة
٨٥	بأنه مقيد بالشرع . وبيان أن الغزالي وسط بين علماء الشرع والفلاسفة
٨٦	بيان عقائد ابن عربي وان التحقيق الذي زعمه هو وابن سبعين وحدة الوجود وانهم سلكوا في ذلك مسلك الفلاسفة
٨٦	طلب أهالي الاسكندرية من المؤلف أن يبين لهم حقيقة مذهب ابن عربي وابن سبعين فينبه لهم بيانا شافيا وانه ينتهي الى القول بالوجود المطلق
٨٧	بيان مذهب ابن التومرت المتكلم وان الله عنده هو الوجود المطلق العاري عن الصفات وبيان ما في مذهبه من الفساد وتشنيع المؤلف عليه
٨٧	بيان أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لا في مجرد علم ليس فيه ذلك
٨٨	رجوع الرازي في نهاية عمره الى طريقة القرآن وبهذه طريقة المتكلمين وبيان أن السعادة في العلم بالله وما يقرب اليه
٨٩	بيان أن السعادة متضمنة للاصلين العظمين الأيمان والاسلام
٩٠	بيان أن الله تعالى خص هذه الأمة بأن لا يعذبهم بعذاب عام ولا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم وأن لا تزال طائفة منهم على الحق الى يوم القيامة
٩٠	بيان أن العمل الخالص ما كان لله وحده والصواب ما كان على السنة
٩٠	بيان أن الاسلام دين جميع الانبياء وبيان أن رد ما اختلف فيه الى الله والرسول خير سواء كان في الاصول أو في الفروع وأن أهل السنة هم الذين يعرفون الحق الذي جاء به الرسول
٩٠	بيان أن أهل البدع هم أهل أهواء وشهوات يتبعون أهواءهم ويحكمون بالظن والشبه كالحوارج والجمية والقدرية وأمثالهم .
٩٠	نهي النبي ﷺ عن الاختلاف
٩٠	مناقشة المصنف لنفاة الحكمة والارادة والزامه لهم

صحيفة	صحيفة
٩٢	بيان أن من فر من حكم الله ورسوله
١٠١	لخذور يصيبه كان ما يصيبه من الشر
١٠٢	أضعاف ما ظنه شرا في اتباع رسول الله ﷺ
٩٣	﴿فصل﴾ ويقال لهم لم فررتم من
١٠٣	اثبات المحبة والحكمة والارادة والفعل
١٠٤	وهذا ﴿فصل﴾ عظيم يتضمن الرد
١٠٥	على الفلاسفة والجهمية والمعتزلة وبيان
١٠٦	فساد عقائدهم والزامهم بالحجة وهو
١٠٧	يدل على عبقرية المصنف ونفاذ
١٠٨	بعيرته في المعقولات رحمه الله
٩٨	﴿فصل﴾ في تجويز بعضهم أن يعذب
١٠٩	الله جميع أهل العدل والصلاح
١١٠	والدين وأن ينعم جميع أهل الظلم
١١١	والكذب والفواحش
٩٩	وأما جمهور المنتسبين الى أهل السنة
١١٢	من أصحاب الأئمة الاربعة فيقطعون
١١٣	بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب
١١٤	بالنار ويعفو عن بعضهم لكن هل
١١٥	الثواب والعقاب مبنى على الموازنة
١١٦	بالحكمة والعدل أم لا لهم فيه قولان الخ
١١٧	اضطراب هؤلاء في صفة النبي وما
١١٨	يجوز عيسى وفي الآيات التي يعلم
١١٩	بها صدقه ونقلهم اجماعات متناقضة
١٢٠	﴿فصل﴾ يتضمن تفهيد المصنف لطريق
١٢١	الاشعري في الاستدلال على النبوة
١٢٢	تفهيده لطريقة أبي المعالي وأتباعه
١٢٣	﴿فصل﴾ الفقهاء وأهل الحديث أثبتوا
١٢٤	السحر والكهانة وكرامات الاولياء
١٢٥	رداً على المعتزلة ولم يستطيعوا أن
١٢٦	يأتوا بفارق بين خوارق الانبياء
١٢٧	وغيرهم الا افتراق خوارق الانبياء
١٢٨	بدعوى النبوة وسلامتها من المعارض
١٢٩	مناقشة المصنف لهم وبيان أن كلامهم
١٣٠	باطل من وجوه
١٣١	﴿الوجه الاول والثاني والثالث﴾
١٣٢	في بطلان الاعتبار بعدم المعارضة
١٣٣	﴿الوجه الرابع﴾ أنه ان اعتمد
١٣٤	على عدم المعارضة فلا بد من سلامه
١٣٥	ما يقوله من انتفاض
١٣٦	﴿الوجه الخامس﴾ أن آية النبي
١٣٧	تكون مختصة به مستلزمة لصدقه
١٣٨	وهم يجوزون انفكاكها عن صدقه
١٣٩	﴿الوجه السادس﴾ في بطلان قولهم
١٤٠	أن الكاذب اذا أتى بمنل خوارق
١٤١	السحرة والكهان فلا بد أن يمنعه
١٤٢	الله ذلك
١٤٣	﴿الوجه السابع﴾ آيات الانبياء
١٤٤	ليس من شرطها استدلال النبي بها
١٤٥	﴿الوجه الثامن﴾ أن الدليل ليس

صحيفة	صحيفة
من شرطه استدلال أحد به بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً الى علم الحق	١٠٦
(الوجه التاسع) آيات الانبياء	١٢٢
يجب أن تكون خارقة لمعتاد غيرهم	
(الوجه العاشر) آيات الانبياء	١٢٤
خارجة عن مقدور من أرسل الانبياء اليه وهم الجن والانس	
(الوجه الحادى عشر) آيات الانبياء	١٢٧
الانبياء مختصة بهم لم يخلق الله مثلها لغيرهم وأدلة ذلك بالتفصيل	
بيان أن الكاذب المدعى للنبوّة لا يمكنه أن يأمر: بل ما تأمر به الرسل وهو مسلك بديع في الاستدلال	١١٤
(الوجه الثانى عشر) أن ما يأتى به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات كله مقدور للبشر وبه يظهر خطأ من لم يفرق بين خوارق الانبياء وغيرهم	١١٤
بيان حكمة اسراء النبي ﷺ وهي أن يرى من آيات ربه الكبرى	١٢٩
(فصل) ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء أنهم قالوا ان المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة الحق	١٣٢
بيان أن الدعوى لا يصح أن تكون	١٣٣
جزءاً من الدليل وأن جميع الأدلة عقلية بمعنى أن العقل اذا تصورهما علم أنها تدل الحق	
(فصل) في رد مشبى الكرامات على حجة النفاة	١٢٢
(فصل) في بيان تناقضهم في شروط المعجزة	١٢٤
(فصل) في الفروق بين آيات الانبياء وغيرها	١٢٧
(فصل) ومن تدبر هذا وغيره تبين له أن جميع ما ابتدعه المتكلمون وغيرهم مما يخالف الكتاب والسنة فانه باطل . وفيه كلام الامام أحمد في مقدمة كتابه في الرد على الزنادقة	١٢٨
بيان أن من عرف السنة عرف ما أخطئوا فيه وقد تكون السنة في ذلك ظاهرة معلومة عند جمهور الامة فتظهر مخالفة من خالفها كالروافض والخوارج الحق	١٢٩
بيان ما ورد في الخوارج واتفاق الصحابة على قتالهم الحق	١٢٩
بيان أن قدماء الشيعة كانوا يفضلون أبا بكر رضى الله عنه على على كرم الله وجهه	١٣٢
بيان أن الجهمية ليست من أمة رسول الله ﷺ	١٣٣

صحيفة	صحيفة
۱۳۴	مذاهب الفرق في الايمان
۱۳۵	بيان ما ابتدعه المتكلمون وبيان مذاهبهم في صفة الكلام
۱۳۹	بيان خطأ المتكلمين في معنى خرق العادة وشروط المعجزة
۱۴۵	بيان أن الله تعالى قد بين جميع أصول الدين في القرآن
۱۴۶	بيان أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل وهو حق في نفسه كالحكم الذي يحكم به الخ
۱۴۷	بيان أن المتدعين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب كما ابتدعوا في أدلة اثبات الصانع الخ
۱۴۸	بيان أن سبب ذلك اعراضهم عن القطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المشدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة
۱۴۹	بيان أن الذين صنفوا كتب المقالات لم يبنوا مقالة أهل السنة
۱۵۰	بيان خطئهم في ادعاء أن الصحابة لا شغالهم بالجهاد لم يتفرغوا لعلم الكلام
۱۵۱	بيان أن الهدى والبيان والأدلة والبراهين في القرآن
۱۵۲	بيان هداية القرآن
۱۵۳	بيان أن القرآن أثبت الصفات على
وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل وهي طريقة الرسل الخ وبين للناس جميع أصول الدين	
۱۵۴	بيان أن ما يؤخذ عن الانبياء من أدلة العقائد أولى
۱۵۵	بيان أن الله أعطى كل نبي من الآيات ما آمن على مثله البشر
۱۵۵	ارسال موسى عليه السلام بالآيات والبراهين
۱۵۶	ايمان السحرة بموسى عليه السلام
۱۵۷	بيان أن التكذيب بالآيات يكون لاغفلة عنها أو عدم النظر فيها أو جحودها بمد النظر
۱۶۰	بيان أن الانبياء يأمرهم بعبادة الله وحده وتصديق بعضهم بعضاً وأن موسى عليه السلام أمر بتصديق من بعده من الانبياء
۱۶۱	بيان أن النبي بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها
۱۶۳	﴿ فصل ﴾ وقد ذكر الله في القرآن الحجة على من أنكر قدرته وعلى من أنكر حكمته
۱۶۵	بيان أن الله تعالى جعل للرسول علامات يعرفون بها
۱۶۶	بيان أن من ستن الله أن لا يؤيد الكاذب بمثل ما يؤيد به الصادق

صحيفة	صحيفة
١٦٧	بيان أن الملهمين ليسوا معصومين
١٨٢	وأن الرسل هم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحى الشيطان
١٦٨	بيان أن الفلاسفة والباطنية والملاحدة أبعد الناس عن النبوة وبيان الصفات التي جعلها الفلاسفة للأنبياء وخطئهم في ذلك
١٧٢	بيان أن الفلاسفة لم يقدروا النبوة حق قدرها وقد ذل بهم طائفته من المتصوفة المدعين للتحقيق
١٧٢	الفرق بين النبي والرسول وهو مبحث مديع
١٧٥	(فصل) في أن الدليل يجب طرده
١٧٦	بيان أن دلالة الآيات أكمل من دلالة القياس المنطقي
١٨٦	(فصل) والدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم الى ما يدل بنفسه والى ما يدل بدلالة الدال به وبيان كل منهما
١٨٧	والآيات التي تدل بنفسها مجردة نوعان: أحدهما ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته الخ
١٨٠	بيان خطأ من ادعى أنه يحصر الأدلة
١٨١	بيان أن الدليل المنطقي لا يوجد في كلام فصيح وأن الدليل قد يكون من مقدمة أو مقدمتين أو أكثر
١٨٢	بيان أن المشترك في القياس التمثيلي (الاصولي) هو الحد الاوسط في القياس المنطقي وأن المعنى فيهما واحد والظلم متنوع وأن العلة في القياس الاصولي تعرف بالنص والمناسبة والدوران والاجماع والسير والتقسيم الخ
١٨٤	بيان أن الدليل قد يكون مطابقاً للمدلول عليه
١٨٥	(فصل) النوع الثاني ما يدل بقصد الدال كالكلام والاشارة باليد أو العين والخط والقيافة الخ
١٨٦	بيان ان لكل قوم شعاراً خاصاً بهم
١٨٧	بيان أن الرسول لا بد له من علامة يعرف بها
١٨٩	(فصل) وخاصة الدليل أن يكون مستلزماً للمدلول
١٩١	(فصل) والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانة المشهودة والدلالات المسموعة وهي كلامه لكن لما كان يعذر عليهم أن يسمعوا كلامه أرسل اليهم رسلاً وأيدهم بالبراهين الخ
١٩٢	(فصل) فالآيات التي تكون آيات للأنبياء هي دليل وبرهان الخ

صفحة	صفحة
١٩٣	(فصل) . والله تعالى سماها آيات وبراكين وأما تسميتها بخرق العادة فللناس فيه ثلاثة أقوال وبينها
١٩٦	ابطال قول الأشعرية ومن تبعهم
١٩٦	بيان أن الخوارق التي لا يقدر عليها العباد كلهم هي آيات للأنبياء
١٩٨	وأن من آياتهم ما يكون قبل ولادتهم وقبل انبأهم وبعد موتهم
٢٠٠	بيان أن آيات الأنبياء تكون مستازمة للنبوة
٢٠٠	بيان أن طريقة القرآن في الاستدلال فيها الهدى والنور وأن آيات الأنبياء مستازمة لصدوقهم
٢٠٢	بيان أن آيات الأنبياء لا يكون مثلها لمن يكذبهم
٢٠٥	(فصل) من آيات الأنبياء ما يظهر مثلها على يد أتباعهم
٢٠٦	(فصل) في معنى خرق العادة
٢٠٧	بيان ما تتميز به خوارق الأنبياء عن غيرهم
٢٠٩	الفرق بين النبي والكاهن
٢١٠	بيان أن الفلاسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن قالوا أن الفرق بين النبي والساحر أن النبي يأمر بالخير والساحر يأمر بالشر
٢١١	بيان الفرق بين طاعة الشيطان للكاهن وطاعته للنبي .
٢١٣	خوارق الأنبياء لا بد أن تحرق عادة جميع الأمم غير الأنبياء مثل الخبر الصادق بالغيب
٢١٤	بيان خطأ من اشترط في الآيات أن تكون مقارنة لدعوى النبوة
٢١٥	بيان أنه لا يوجد خرق عادة لجميع الناس إلا وهو من آيات الأنبياء كالأذى يقتله الدجال ثم يحييه ثم يريد أن يقتله فيمجز عن قتله الخ
٢١٦	تمجيز القرآن لجميع الناس والجن لا يكون خرق العادة دليلاً للأنبياء إلا إذا عجز عنه جميع الثقلين من الجن والجن
٢١٩	(فصل) في اضطراب القوم في معنى العادة التي تحرق والتحقيق في معنى العادة
٢١٩	بيان خطأ من يقول بخرق العادة لا لسبب ولا حكمة
٢٢١	(فصل) ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه فلا يعرف آيات الأنبياء إلا من عرف ما اختص به الأنبياء وبيان ذلك
٢٢٣	بيان أن دلالة المعجزات على نبوة

صفحة	محتوى	صفحة
٢٣٦	بيان تناقض من استدلوا بأحكامه على علمه ولم يثبتوا الحكمة	٢٣٦
٢٣٧	وجوب اتبهافه تعالى بالرحمة والعلم والعدل والصدق وان ذلك يستلزم النبوة وقد بينه المصنف بيانا شافيا	٢٣٧
٢٤٠	بيان أن ما ذكره المعتزلة لا يدل على ثبوت النبوة	٢٤٠
٢٤١	بيان أن الغزالي عدل عن طريقة شيوخته في الاستدلال على النبوة ولكنه أخطأ أيضاً	٢٤١
٢٤٢	(فصل) اذا عرفت حكمة الرب وعدله عرف أنه يرسل من يصطفيه من خلقه	٢٤٢
٢٤٣	بيان ان الله يظهر البراهين التي تدل على صدق رساله	٢٤٣
٢٤٤	لا تظهر معجزة الا على يد نبي	٢٤٤
٢٤٥	تنزيه الرب عن فعل الأمور المقدورة التي تتقضى حكمته	٢٤٥
٢٤٦	ابطال حجج الملاحدة	٢٤٦
٢٤٧	(فصل) في الاستدلال بسته تعالى وعادته	٢٤٧
٢٤٨	الاستدلال بالقرآن على عاقبة المكذابين للرسول	٢٤٨
٢٥٠	الادلة على تحقيق سنة الله وعادته	٢٥٠
٢٥١	تفسير كلمة «دأب»	٢٥١
٢٢٤	بيان أن المنجبر قد يعرف صدقه بالضرورة لقرائن تقترن بخبره	٢٢٤
٢٢٤	بيان أنه لا يشك في نبوة محمد وعيسى عليهما السلام الا أحد رجلين اما جاهل لم يعرف احوالهما واما معاند متبع لهواه	٢٢٤
٢٢٦	تنزيه الله عن الزوجة والولد	٢٢٦
٢٢٧	بيان ان الله أحسن بالتنزيه عن السفه فاذا أرسل رسولا فلا أن يعرف الناس انه رسوله	٢٢٧
٢٢٨	(فصل) . وقد دل القرآن على أنه سبحانه لا يؤيد الكاذب عليه بل لا بد أن ينتقم منه ويظهر كذبه	٢٢٨
٢٢٩	بيان أن من الكبائر والظلم افتراء الكذب على الله وادعاء النبوة كذبا	٢٢٩
٢٣٠	(فصل) في الاستدلال بالحكمة على النبوة	٢٣٠
٢٣٣	بيان أن الكلام في النبوة فرع اثبات الحكمة لله تعالى وبيان اثبات الحكمة	٢٣٣
٢٣٥	بيان أن حكمة الله في مخلوقاته باهرة وأن الفلاسفة من أعظم المشتبهين بالحكمة	٢٣٥

صفحة	صفحة
٢٥٢	بيان أن من كذب بآيات الله فله
٢٥٣	من العذاب مثل ما لآل فرعون
٢٥٤	(فصل) آيات الانبياء مستلزمة
٢٥٥	لثبوت النبوة
٢٥٦	الخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذي
٢٥٧	جاء بالصدق
٢٥٨	دلائل النبوة مختصة بالانبياء
٢٥٩	التحقيق ان النبوة صفة ثبوتية
٢٦٠	في النبي
٢٦١	(فصل) . في أن جميع ما يختص
٢٦٢	بالسحرة مناقض للنبوة وكذا ما يختص
٢٦٣	بالكهان الخ
٢٦٤	بيان أن ما تأتى به السحرة هو من
٢٦٥	فعل الشياطين
٢٦٦	بيان أن ما تخبر به الانبياء من الغيب
٢٦٧	لا تنذر عليه الشياطين
٢٦٨	بيان أن الجن تحمل كثيراً من الناس
٢٦٩	من مكان الى مكان وليس هذا من
٢٧٠	جنس المعجزات
٢٧١	اختلاف العلماء هل يكون في الجن
٢٧٢	رسل أم لا
٢٧٣	استخدام الشياطين لامور محظورة
٢٧٤	بيان أن الشياطين لا تقدم الناس
٢٧٥	فساد عقائد الملاحدة وهاتمة الكتاب
٢٧٦	ولله الحمد
٢٧٧	وخالقه
٢٧٨	تحذير المؤمنين من أفعال الشياطين
٢٧٩	وبيان ان الشياطين يخافون من
٢٨٠	الصالحين
٢٨١	بيان ان خوارق الجن معروفة في
٢٨٢	جميع الامم وانهم لا يألفون الا أهل
٢٨٣	الظلمات
٢٨٤	بيان أن خوارق الانبياء اعلى من
٢٨٥	كرامات الاولياء
٢٨٦	اسكار المعتزلة لكرامات الاولياء
٢٨٧	الفرق بين الانبياء والسحرة والكهان
٢٨٨	الفرق بين الكاهن والساحر
٢٨٩	تصور الشيطان للناس
٢٩٠	تقليد الجن لصور وأصوات بعض
٢٩١	الناس
٢٩٢	الفرق بين آيات الانبياء وغيرهم
٢٩٣	بيان ان الملائكة تقدر على ما لا يقدر
٢٩٤	عليه الشيطان
٢٩٥	بيان قدرة الله على الاحياء والاموات
٢٩٦	الفرق بين اعمال السحرة والكهان
٢٩٧	وأعمال الانبياء
٢٩٨	بيان ان ما تأمر به الانبياء واحد
٢٩٩	والادلة على ذلك من القرآن
٣٠٠	فساد عقائد الملاحدة وهاتمة الكتاب
٣٠١	ولله الحمد